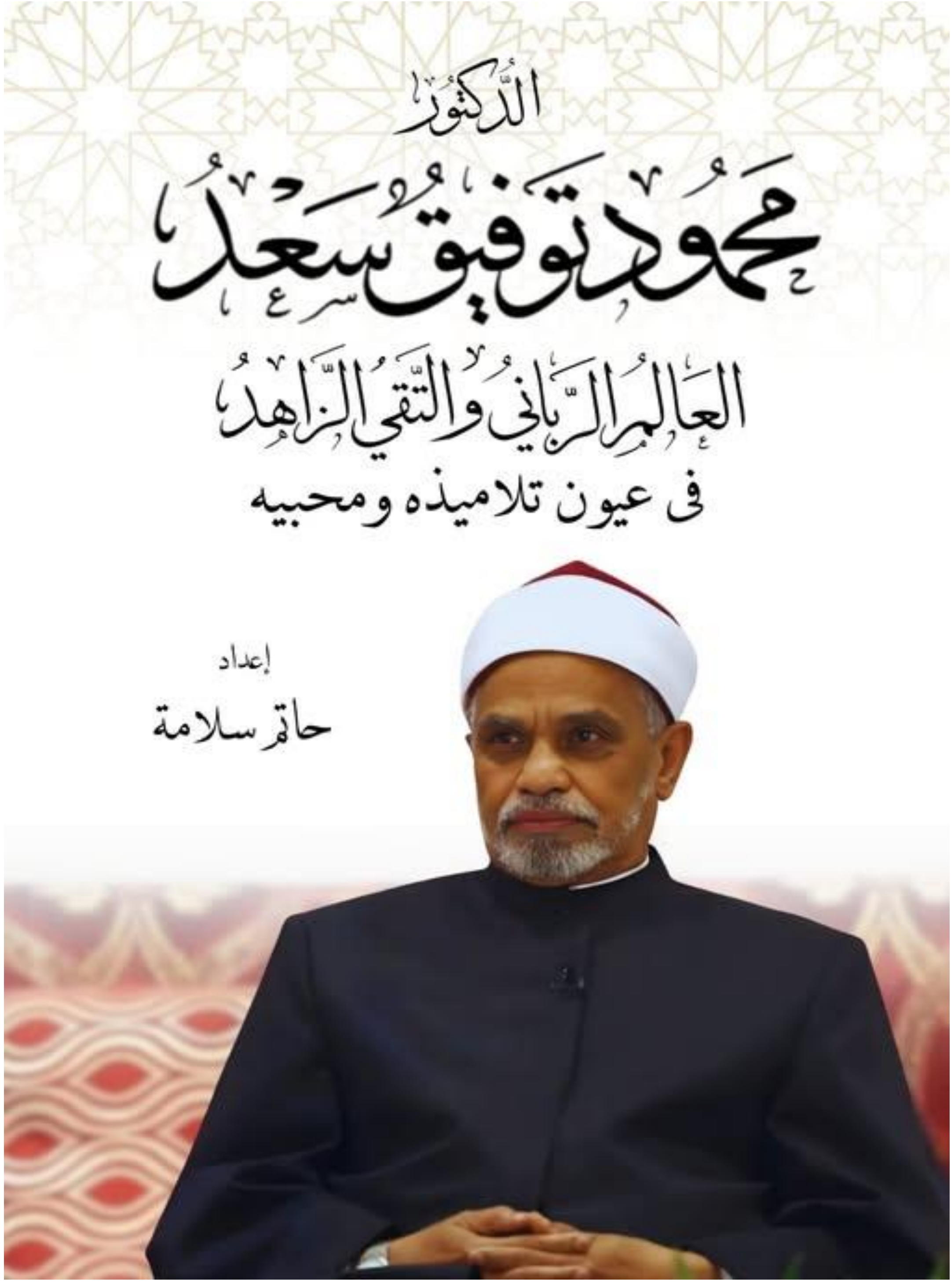

الدكتور
محمود توفيق سعد
العالم الرباني والتقي الزاهد
فى عيون تلاميذه ومحبيه
إعداد
حاتم سلامة

الدكتور محمود توفيق سعد
العالم الرباني والتقي الزاهد

حاتم سلامة
٢٠٢٥

الطبعة الأولى

...... ١٤٤٦هـ - ...... ٢٠٢٥ م

اسم الكتاب	الدكتور محمود توفيق سعد بأقلام تلامذته ومحبيه
إعداد	حاتم إبراهيم سلامة
تليفون	٠١٠٣٠٣٦١٥١٥
إيميل	salama٢٢٧@gmail.com

الدكتور

محمود توفيق سعد

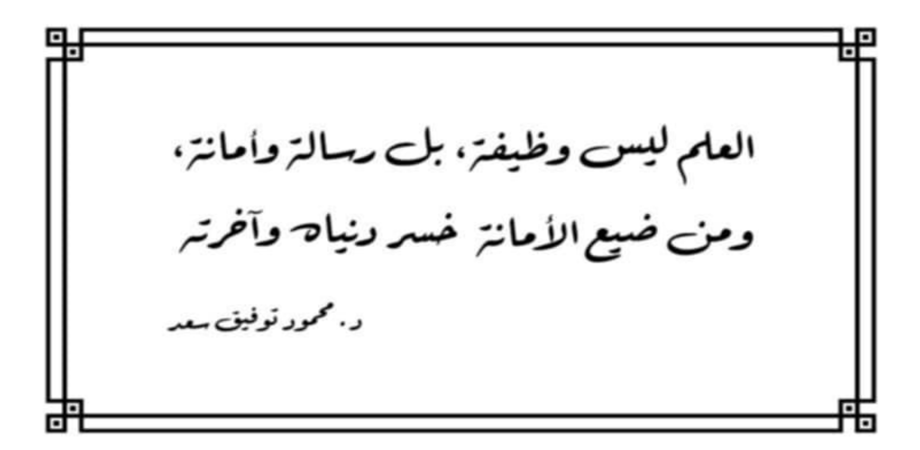
العالم الرباني والتقي الزاهد

بأقلام تلامذته ومحبيه

إعداد

حاتم إبراهيم سلامة

٢٠٢٥


العلم ليس وظيفة، بل رسالة وأمانة،
ومن ضيع الأمانة خسر دنياه وآخرته
د. محمود توفيق سعد



كان شيخنا محمود توفيق سعد رحمه الله محبا للخير، ساعيا لنشره، زاهدا في الدنيا، لا تهمه الأضواء، ولا يبحث عن الثناء، بل كان همه الأكبر أن يترك أثرا في القلوب، وأن يكون سببا في هداية الناس إلى الله.

د. فاطمة سامي

كان شيخنا محمود توفيق هدية الزمن الذي لم نر مثل إخلاصه الذي فاق كل إخلاص، ولعل عزائي فيه أنني كلما رأيته في منامي رأيته يجلس أمام قصر له في الجنة ليكتب بحثا في كتاب الله تعالى، رحمه الله وأحسن إليه.

د. أماني عبد الفتاح

مَـوْلايَ كَيْفَ رَحَلْتَ قَبْلَ وَداعِنا؟ هَلْ هكَذا تتفَرَّقُ العُوَّادُ؟

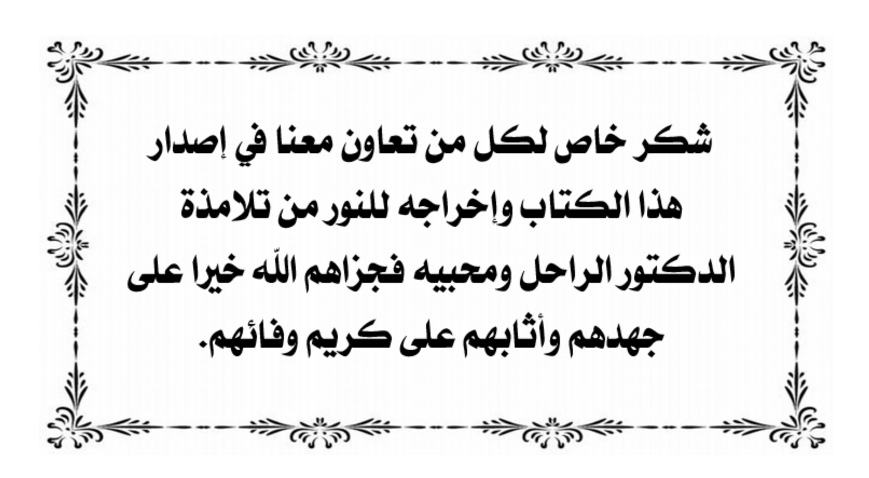
أَرْثِيكَ كَيْـفَ وأنتَ فيـنا شـاهِدٌ ومُعَلِّمٌ في رُوحِـــنا تَرْتادُ

الأزهــرُ المَعْـــمُورُ يَذْرِفُ دَمْعَهُ ما لِلدُّمـــوعِ نِهايةٌ ونَفادُ

لَمَّا رَحَلْــتَ مُفارِقًا ما كانَ لي غَـيْرَ الدُّمُـوعِ ذَخِيرةٌ وعَتادُ

لَمَّا رَحَلْتَ –وأنتَ أَكْرَمُ راحِلٍ فُتَّتْ عليكَ الرُّوحُ والأكبادُ[1]

(١) من قصيدة لشاعر الأزهر الكبير الدكتور أحمد محمد المعصراوي



شكر خاص لكل من تعاون معنا في إصدار هذا الكتاب وإخراجه للنور من تلامذة الدكتور الراحل ومحبيه فجزاهم اللّه خيرا على جهدهم وأثابهم على كريم وفائهم.

مقدمة

يحزنني جدًا أن يموت عالم من العلماء الكبار ممن لهم في حياتنا أثر وتأثير، دون أن يكتب لنا أو يروي علينا شيئا من سيرة حياته، كيف عاش وماذا لقي ومن قابل، وبماذا أدرك وتعلم من تجارب الدنيا وأحداث الحياة؟

كثيرون من العلماء من يرون ذلك مسارًا يخرج بهم عن طريق الزهد والتخفي والتجرد لله، وتصورون أن ذلك جرحا لإيمانهم وإخلاصهم بالرياء والعجب، وإذا كلمت أحدهم يقول لك: أنا لا شيء في حياتي أحكيه أو أتندر به، ولا قيمة لها ولن يستفيد الناس منها شيئا، إنه يريد أن يجعل ما فعله فيها وما ليقيه من أيامها بينه وبين الله.. لكنه لو نظر للأمر على منحى أخر، وأنه كتابة سيرته الذاتية ورواية مواقفه الحياتية يمكن لها أن تلهم من بعده وغيره من الناس كيف يواجهون الحياة ويتعلمون من الأحداث ويتصرفون في المواقف، لعلم أن هذه الكتابة ضرورة حياتية يمكن لها أن تكون سبيلا ليستمد بعد موته وابلا من أوابل الخير لم تكن في الحسبان.. وهناك صنف من هؤلاء العلماء يموتون دون أن يتركوا شيئا يحكى أو يروى عن حياتهم، لكنهم استطاعوا أن يسجلوا كثيرا منها عن طريق معاشرتهم لتلاميذهم وتربيتهم لهم، حين ينطلق هؤلاء التلاميذ ليرووا ويسجلوا مآثر شيخهم ومناقب حياته ومواقفه التربوية الخالدي التي أثرت في مهجهم.. فإذا بهم وكأنهم يعرفون الناس به ويقدمون صفحة جلية لهم عن هذا الذي لم تساعده القناعة العقلية أو الفترة الزمنية أن يكتب تاريخ حياته وشهادته على عصره وأهله. ولعل الراحل الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله من هذا

الطراز الباهر الذي لم يدون شيئا من سيرته الذاتية، ولكننا فوجئنا بهذا الحشد الكبير من التلاميذ، كل منهم يروي مواقفه مع الرجل ويسجل ما طبع فيه من خلاله المرضية التي عاينها فيه.

لقد حباني الله منذ صغري بمحبة العلماء الربانيين الصادقين، وعلى قدر حبي لهذا الصنف الطاهر، كان بغضي العنيف للعلماء الخونة المرتزقة الذين يتاجرون بدينهم وضمائرهم.. وإن كل شيخ من الشيوخ الصادقين الأتقياء الأنقياء، أعتبره شيخًا لي، حتى وإن لم ألتق به أو أقابله أو أشرف بالجلوس تحت قدميه.. ولقد كان حبي وتقديري للعلماء الربانيين على موعد مع هذا البركان الثائر من المشاعر التي تدفقت على أقلام تلامذة هذا العالم النجيب ومحبيه، والتي عكست ما يكنونه من مشاعر غامرة، ومودة صادقة للراحل الكبير، العلامة الدكتور محمود توفيق سعد .

لم أكن أعرف الشيخ من قبل أو حتى شرفت بلقائه، كنت فقط أعرف اسمه من مقالاته في مجلة الازهر، وكثيرا ما كان يأتي ذكره بين الحين والحين على لسان بعض أصدقائي المقربين يتندرون بمواقفه وكلامه وتوجيهاته لهم وحرصه على إرشادهم.

والحق أنني لا أعلم ما الذي جعلني أن أكون أسير كل هذا المشهد، ورأيت أنه من الواجب علي أن أصنع شيئا لهذا الرجل الصالح، وأن أجمع ما تيسر من سيرته ومواقفه الكريمة في كتاب جامع خشية أن تضيع سدى، إلا أنني أعتقد

أن هذا من بركات الرجل وصلاحه مع ربه أن يسخر رجلا لم يكن من تلاميذه، أو حتى نعم برؤيته، ليصنع ما وجب صنعه على يد أقرب المقربين إليه.

لقد انهالت علينا كلمات التلاميذ العظام بما يثير العجب ويُعرف برجل نجزم أمام ما قرأناه عنه أننا أمام رجل ليس من عصرنا، وأمام نمط مختلف من الناس والهمم والطبائع.. قلت في نفسي: لعلهم يبالغون أو أنها لوعة حزين يتجاوز في القول والتعبير.. فأقبلت بنفسي على سماع الرجل، فإذا بي أجد نفسي أمام طاقة هائلة من العلم والتواضع وسمو الروح والنفس، بل إنني أمام رجل صادق، يفوح عبير الصدق من كل عبارة أو جملة أو معنى يريده وينطق به .

وهنا أدركت مع كل ما كُتب عن الراحل الكريم وأمام هذه المشاعر المتدفقة والأخلاق المبهرة التي حاول تلامذته أن يترجموها للعَالَم من حولهم، ليعرِّفوا الدنيا ماذا خسرت مصر؟ وماذا خسر الأزهر الشريف؟ بل أيقنت أن هذه الكتابات الرثائية العاطرة، من الجحود الهائل أن لا يجمعها جامع، ومن الخسران الكبير أن لا يضمها كتاب أو تهمل وتضيع، وتكون بمثابة دمعة على خد حزين سرعان ما جفت وتبخرت، فإذا بهمة عملاقة تتولد في نفسي وتنبعث في أعماق ذاتي، لجمع هذه الدرر الغوالي، وبدأت الاتصال والحديث مع كل من كتب عنه من تلامذته ومحبيه الكرام لاستئذانه فيما كتب أن نضعه في السفر المرقوب، بل تواصلت مع الكبار من أئمة اللغة والكبار ممن صحبوه وعرفوه لاستكتابهم في الموضوع، فما حدثت أحدا من الكرام إلا وأجاب وارتضى، ورأى هذا واجب يفرضه عليهم وفاؤه م للشيخ الكريم .

حتى استطعت جمع عدد لا بأس به من المقالات الرائعة، التي تفوح بحب عالم جليل، وتحلق بأجنحة الوفاء لشيخ كان لهم مربيا ومهذبا وملهما قبل أن يكون معلما ومدرسا، ولقد تكونت لدي صفحات أجزم أن كل من يقرأها، لن يتركها حتى يفرغ منها لشدة جذبها، وبريق صدقها، وأن الشوق والحماسة فيما يطالعونه من شمائل الشيخ وإنسانيته العالية، يمكن أن يجعلهم يعيدون قراءة هذا الكتاب مرات ومرات، بل يمكن أن يجعله أحدهم كتاب تربية، أو كتابا يمكن تقريره على طلبة العلم، فيما يدرسونه من أخلاق العلماء، والصورة المثلى التي يتحلون بها ويكونون عليها، بل فوق هذا أجزم أن كل من تصفحه، يشعر أنه أمام نموذج من الصحابة وُجد في عصرنا الحديث، وأمام رجل أبي النفس، عفيف الروح، مترفع الهمة، جسور الرضا .

نعد القراء ونعد الأزهر ورجاله، ونعد طلاب العلم، ونعد كل محبي الراحل الكريم وأبنائه البررة، أن نقدم لهم عملا طيبا يشعرهم بأن شيخهم ما زال أثره يرن في الدنيا، واخلاقه تشنف الأسماع.

وكل الشكر والتقدير لتلاميذه البررة النجباء وأبنائه وبناته من لبوا طلبي وامتثلوا لرغبتي، في تخليد ذكرى شيخهم ووالدهم، وكل الأسف لمن لم يلبوا الطلب، وكنا نتمنى أن يقدموا لنا ولو كلمة عزاء أو سطرا من رثاء.. ألا يدرون أنها شهادة للزمان عن شيخهم الراحل وكانوا أولى الناس برا به؟ ! كما أقدم شكري الخاص لنفر من أخلص تلاميذه ممن عاونوني وساعدوني، ولله در

أحدهم حينما قال لي: اجعلني جنديا وخادما لك في هذا الكتاب.. يقول هذا وهو ذو المقام الرفيع والمكانة العالية... وما هو إلا وفاء نادر .

رحم الله الشيخ الدكتور محمود توفيق سعد الذي وافته المنية مساء يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر شعبان ١٤٤٦هـ، الموافق السابع والعشرين من شهر فبراير ٢٠٢٥م بعد حياة حافلة بالعطاء في دنيا العلم، أوقفها على خدمة علوم اللِّسان العربي الشريف وعلوم الشريعة، وأفناها في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

حاتم إبراهيم سلامة

سنجرج- منوف- منوفية

٠١٠٣٠٦٣١٥١٥

Salama227@gmail.com

حفته أجنحة الوفاء

انظر حولك أيها المعتبر لترى بعينيك علماء كثيرين نفقدهم بين الحين والحين، بعد أن كانوا يعيشون بيننا وهم ملء السمع والبصر، يقومون بواجبهم، ويؤدون رسالتهم.. لكن قليلا منهم من تهتاج المشاعر لفقده، وتزعق الأرواح لرحيله.. وتزحف جيوش من الكتبة تخط ببنانها عبرات الرثاء، جاهشة بدمع الوفاء.. لتسطر فيك وعنك يا سيدي مالم يُسطر فيمن رحل مثلك وفقدناه بزمنك.. حتى غدت كأنها أجنحة المحبة ترفرف حول روحك لتصعد بها إلى طبقات المعالي.

قل لي بالله عليك يا رجل، كيف كنت تعيش بين الناس بهذه الأخلاق السامية والهمة العالية والسمت النبيل، فأسرت أشواقهم، وملكت رنين قلوبهم، فما من أحد منهم إلا بينك وبينه شاهد بمروءتك، ودليل بأبوتك، وقرينة بمعروفك فيه.

ما كنا نظن أبدا إلا بعد موتك أن صورة العالم الرباني الزاهد الورع التي نعرفها من حال السلف الصالح يمكن أن تتحقق في رجل من عصرنا الحاضر، حتى قرأنا عنك وسمعنا شهادة الشاهدين، وقد جعلونا نتخيلك حلما جميلا أيقظنا منه نعي الناعي ينعاك.

قل لي مرة أخرى بالله عليك.. ها هم الرؤساء والوزراء والكبراء وأصحاب المناصب والرتب يموتون كل يوم، فمن منهم صنع فينا مثل ما صنعت؟ ومن منهم ترك أثرا أثيرا كما تركت.؟

ومن منهم آلمنا فقده وأسفت عليه قلوبنا كما أسفت عليك؟ كأنك أردت أن تعلمنا أن الأخلاق والنبل والشهامة تندرت في عالمنا وتحققت معجزتها على يديك.. كل يوم يمر علي وأنا أغترف من معين أنبائك وأخبارك وما يقصه محبيك ما يدهش اللب ويحير الفكر.. وأسائل نفسي: أيمكن لرجل أن تحتمل ذاته كل هذا القدر الهائل من المكارم التي استشعرها فيه القريب والبعيد، الكبير والصغير؟ نعم يمكن لذلك كله أن يتحقق ولا يكون غريبا في رجل كان يعيش لله وبالله.. رجل أراد أن يحيي فينا سيرة الأنبياء وسبيل الصالحين، وحال الأتقياء المخبتين.. وبرا بك ووفاء بصلاحك سنحاول جاهدين أن نجمع شيئا من مناقبك، لتكون سلوة للطالبين وقدوة للعلماء إن أرادوا حلية العاملين، وتخليدا لذكرى رجل أحب ان يكون من الصالحين، فاجعله يا رب في الصالحين.

الإعداد

بطاقة تعريفية

أعدها د: ياسين عطية

هو العالِم الأزهري المَكِين، الأستاذُ البلاغي الأمين، الرَّائدُ الصادق، النَّاطقُ بالحقِّ وللحقِّ، ذو الهِمَّة الرَّفيعةِ والتآليفِ الغزيرة، السَّائرُ على دَرْبِ الأوَّلينَ الماجدين، الفَاهِمُ المُفْهِمُ لِمَا حَوتْه أسفارُ الأقدمين، ثَمرةُ عقلِ العلماءِ العاملين، ورَبِيبُ فِكرِ الشُّيوخِ المُتقِنِين.. إنَّه فضيلةُ الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمَّد سعد.

وُلِدَ فضيلةُ الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمَّد سعد القاضي في التاسع عشر من شهر رمضان عام سبعين وثلاثِ مائةٍ وألفٍ من هجرة سيِّدنا رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – الموافق للثالث والعشرين من شهر يونيو عام واحد وخمسين وتسعِ مائةٍ وألفٍ من ميلاد سيِّدنا المسيح عبد الله ورسوله – عليه السلام – في قرية الدِّير، مركز إسنا، محافظة قنا [تتبع الآن محافظة الأقصر] بجمهورية مصر العربية.. أتمَّ حفظَ القرآن الكريم فى سِنِّ الثانية عشرة على يد الشيخ فتح الله جبر محمود، وفى العام نفسه حصل على الشهادة الابتدائية العامَّة، والتحق بالتعليم الأزهري، ثم حاز الشهادةَ الإعدادية من معهد إسنا الإعدادي الأزهري سنة ١٩٦٦م، وبعد أربع سنوات حاز الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد أسوان الثانوي الأزهري.

بعد الدراسة الأوَّلية في معاهد الأزهر الشريف التحق فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة، وتلقَّى العلم فيها على جمهرةٍ من أعيان علمائها وشيوخها، حتى تخرَّج فيها سنة ١٩٧٤م بتقدير جيد جدّاً مع مرتبة الشَّرف.

ويَذكُر الشيخ محمود توفيق سعد أنَّ مِن أكثرِ شيوخ كلية اللغة العربية تأثيراً فيه؛ علميّاً وخُلُقيّاً:

فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسنين أبو موسى، أستاذ البلاغة وعضو هيئة كبار العلماء حالياً، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد محمد الحجَّار، أستاذ البلاغة، وفضيلة الأستاذ الدكتور كامل إمام الخولى، أستاذ البلاغة وعميد الكلية الأسبق، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردى، أستاذ البلاغة وعميد الكلية ونائب رئيس جامعة الأزهر، وفضيلة الأستاذ الدكتور صادق خطاب، أستاذ البلاغة، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة، أستاذ اللغويات، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم البنا، أستاذ اللغويات، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد حسن كحيل، أستاذ اللغويات، وفضيلة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرازق بسيوني، أستاذ اللغويات، وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الفتاح إبراهيم بحيرى، أستاذ اللغويات وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية، وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عثمان، أستاذ النقد الأدبي، وفضيلة الأستاذ الدكتور طه أبو كريشة، أستاذ النقد الأدبي وعميد الكلية ونائب رئيس جامعة الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء.

أمَّا الشُّيوخ الذين كان لهم الأثرُ البالغُ فى التكوين العلمي والرُّوحِى لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد من خارج كلية اللغة العربية فذكر منهم: فضيلة الإمام الأكبر سماحة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر، وسماحة الشيخ محمد زكى إبراهيم، رائد العشيرة المُحمَّدية.

وفى أثناء دراسته الجامعية جَايَلَ الشيخ محمود توفيق سعد ثُلَّةً من أهل العلم المُجدِّين المجتهدين؛ منهم فضيلة الأستاذ الدكتور محمَّد الأمين الخضري، أستاذ البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، وأوَّلُ عميدٍ لكلية العلوم الإسلامية للوافدين (رحمه الله)، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد محمد على (عبده زايد)، أستاذ البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، ونائب رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي (رحمه الله).

بعد تخرُّجه فى كلية اللغة العربية التحق فضيلة الشيخ محمود توفيق سعد بدراساتها العليا لمدَّة سنتين حاز بعدهما درجة التخصُّص (الماجستير) في البلاغة والنقد بتقدير «ممتاز»، عام ١٩٧٩م، عن رسالته: «آراءُ العِصام في شرحه للسَّمرقندية وقيمتُها في البلاغة والنقد»، التي أشرف عليها فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردي، وناقشها فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى والأستاذ الدكتور محمد أحمد جمعة.

وبعد أربع سنوات حاز الشيخ درجة العالِمية (الدكتوراه) فى البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بتقدير «مرتبة الشرف الأولى»، عن رسالته: «التناسب القرآني عند برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ)»، التي أشرف عليها

أيضاً فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردي، وكذلك فضيلة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الله الخولى، وناقشها فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف البيومي، وفضيلة الأستاذ الدكتور على البدري حسين.

بعد أدائه الخدمة العسكرية بدأ فضيلة الشيخ محمود توفيق سعد عملَه الوظيفي مدرساً فى أحد المعاهد الأزهرية الثانوية عام ١٩٧٦م، عُيِّن بعدها مُعيداً فى قسم البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بالمنوفية وفقاً للأمر التنفيذي رقم ٨٤٨ بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨م، ثم مُدرِّساً مُساعداً بالأمر التنفيذي رقم ٣٤٥ بتاريخ ٢ يونيو ١٩٧٩م، ثم مُدرِّساً بتاريخ ٥ أكتوبر ١٩٨٣م، ثم أستاذاً مساعداً بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٨٧م، ثم أستاذاً بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩٩٣م، كما شَغَلَ رئاسةَ قسم البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية بالمنوفية مرتين؛ أولاهما وفقاً للأمر التنفيذي رقم ٣٥٣ بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٩٣م، والأخرى وفقاً للأمر التنفيذي رقم ٧٦٧ بتاريخ ٢٢ يناير ٢٠٠٤م.

ويُفيد بيانُ حالةٍ لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، صادرٌ عن كلية اللغة العربية بالمنوفية، بتقديمه استقالتَه من جامعة الأزهر بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٦م، وصَدَر بها قرارُ رئيس الجامعة رقم ١٥٣ لسنة ٢٠٠٦م، لكنَّ فضيلتَه آبَ مرةً أخرى إلى رحاب جامعتِه؛ جامعةِ الأزهر، أستاذاً غيرَ متفرِّغ فى قسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة عام ٢٠١٧م؛ فأقام نهضةً علميةً متفرِّدة، وعَمِلَ على تنمية بناء العقلِ البلاغي لعُضوات القسم من المعيدات والمدرسات المساعدات، وعُنِى عنايةً جمَّةً بباحثات

القسم؛ بُغية صناعة الباحثة البلاغية المتمكِّنة؛ فخُصِّص له يومُ الاثنين من كل أسبوع موعداً لنشاطه العلمي، وكان من أثر ذلك أنْ عقد عدداً من الدورات المتخصِّصة؛ منها: «علم التناسب القرآني»، و«أصول البحث البلاغي وضوابطه»، و«سمات البلاغة النبوية في أحاديث النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في شأن المرأة»، كما خطَّ عدداً من المشروعات البحثية البلاغية، ودأب على تقديم التوجيهات والإرشادات العلمية للباحثات من داخل الكلية وخارجها، وتدريبهن على التحليل والتأويل والتعليل، وأشرف على عدد من رسائلهن العلمية؛ منها: «مواطن اليقين عند استحكام الشِّدَّة فى القرآن الكريم: دراسة بلاغية سياقية»، «التناسب بين مطالع السور المكية وخواتيمها»، «علاقات الجمل فى شعر عمرو بن كلثوم: دراسة بلاغية»، «بناء الجملة في رسالة الشافعي»، «البنية التركيبية لرائية أبى مروان الجزيرى الأندلسي»، «خصائص التصوير النبوي للانفعالات النفسية: دراسة بلاغية فى الصحيحين»، «لفظا الجمال والحسن فى القرآن الكريم: دراسة بلاغية تحليلية»، «الحذف في قصص أولى العزم من الرُّسل: دراسة بلاغية تحليلية»، «بلاغة الحجاج فى الرسالة للإمام الشافعي»، «الخصائص التركيبية والدلالية للأمر والنهى فى كتاب الزمردة من العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: دراسة بلاغية."

وقد دَرَّس الشيخُ محمود توفيق سعد فى عددٍ من الجامعات فى المملكة العربية السعودية؛ فعَمِلَ بين عامَى ١٩٨٧و ١٩٩٢م أستاذاً فى كلية المعلمين بمدينة حائل، وبين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠١م أستاذاً فى جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية بالرياض، وبين عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ أستاذاً للدراسات العليا فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

انضمام الشيخ إلى هيئة كبار العلماء: عُيِّن فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمَّد سعد عضواً فى هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف فى طَوْرِها الثانى بموجب القرار الجمهوري رقم (١٠٨)، الصادر فى الثالث من شهر رجب سنة ١٤٤١هـ الموافق السابع والعشرين من شهر فبراير سنة ٢٠٢٠م، بناء على مذكرة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف.

وشمل القرار تعيين أربعة أعضاء؛ فضمَّ مع فضيلته كلّاً من: فضيلة الأستاذ الدكتور السعيد السيد السيد عبادة، وفضيلة الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمد جبر، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسنى إبراهيم سليم.

أمَّا عن العطاء العلمي لفضيلة الشيخ محمود توفيق سعد فهو مُتشعِّبٌ مُتغازِر، منه الكتب والمؤلفات والبحوث المنشورة، ومنه المشروعات العلمية، ومنه عضويات اللجان العلمية، ومنه المؤتمرات والندوات، ومنه الرسائل العلمية؛ إشرافاً ومناقشةً.

أمَّا الكتب والمؤلفات والبحوث فمنها:

١ -آراء العصام فى شرحه للسمرقندية وقيمتها فى البلاغة والنقد، رسالة التخصُّص (الماجستير)، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٩٧٩م.

٢ -التناسب القرآنى عند برهان الدين البقاعى (ت ٨٨٥هـ)، رسالة العالمية (الدكتوراه)، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٩٨٣م.

٣ -سُبل استنباط المعانى من القرآن والسُّنة: دراسة منهجية تأويلية ناقدة.

٤ -دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين: دراسة منهجية تأويلية ناقدة.

٥ -الإمام برهان الدين البقاعي: جهاده ومنهاجه فى تأويل بلاغة القرآن الكريم.

٦ -فى نقد العقل البلاغى.

٧ -صورة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم: دراسة فى البلاغة القرآنية.

٨ -إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز فى البيان القرآنى.

٩ -مسالك العطف بين الإنشاء والخبر فى القرآن الكريم.

١٠ -فقه بيان النبوة منهجاً وحركة: دراسة فى البلاغة النبوية.

١١ -تغييب الإسلام الحق: دحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم.

١٢ -الكلمة نور: محاورات منهجية فى كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم لشيخنا أبى موسى .

١٣ -الإمام أبو حنيفة بليغاً: وصيته تلاميذَه نموذجاً – قراءة فى المنهج والبيان.

١٤ -قضايا نقدية فى مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى.

١٥ -نسق بناء القصيدة فى عيار الشعر لابن طباطبا – دراسة نقدية.

١٦ -قراءة فى المثل السائر لابن الأثير.

١٧ -أسرار البلاغة القرآنية .

١٨ -الرجال قوَّامون على النساء: مدارسات إيمانية أخلاقية فى ضوء علم البلاغة العربي.

١٩ -إعجاز القرآن الكريم بالصَّرْفة: دراسة ناقدة.

٢٠ -المنهج إلى التذوق البلاغي للقصيدة العربية.

٢١ -الاحتفال بذكرى ميلاد سيد الأنبياء: أحكام وآداب.

٢٢ -شذرات الذهب: دراسة عربية فى بيان القرآن الكريم.

٢٣ -فقه تغيير المنكر [كتاب الأمة – وزارة الأوقاف فى دولة قطر].

٢٤ -القول البلاغي فى بديع القرآن: مراجعات منهجية.

٢٥ -نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني.

٢٦ -وَصاة عتبة بن أبى سُفيان مُعلِّمَ ولدِه: مقاربات فى المنهج والبيان.

٢٧ -أصول مدارسات فى علم تناسب الآيات والسور وترتيبها فى الذِّكْر العَلِى الحكيم (لطلبة الدراسات العليا – جامعة الأزهر).

٢٨ -التفكير البلاغي فى بيان الوحي [كتاب مؤتمر البلاغة – جامعة أم القرى].

٢٩ -نقد مذهب تقى الدين السبكي فى دلالة التقديم على التخصيص [مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض].

٣٠ -خصائص البيان القرآنى فى سورة المسد [حولية مجلة الإمام الشاطبى للدراسات القرآنية فى جدة].

٣١ -مستويات بناء صورة المعنى فى العقل البلاغى [مجلة جذور حولية النادى الأدبى الثقافى فى جدة].

٣٢ -مراجعات ناقدة فى أسلوب الفصل والوصل [مجلة جذور حولية النادي الأدبي الثقافي في جدة].

٣٣ -الإغريض فى الفرق بين الكناية والتعريض لتقى الدين السُّبكى – تحقيق ودراسة [مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية].

٣٤ -الاستفهام القرآني: دقائق ورقائق بيانية [مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية].

٣٥ -فقه التعبير القرآني في ضوء مقامات القُرْب [مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية].

٣٦ -نظرية النظم الجرجانية وقراءة الشعر [مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية].

٣٧ -فقه مَنزِل طلب العلم عند الإمام الشافعي – قراءة فى أنساب المعاني [مجلة كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا].

٣٨ -فقه علاقات المعاني في العقل البلاغي.

٣٩ -تقريب رسالة القواعد للشيخ أحمد بن إدريس – دراسة فى أصول وقواعد التصوف.

٤٠ -الدراسات البلاغية العليا فى جامعة الأزهر: الدَّاء والدَّواء [بحث مقدَّم للملتقى الأول لعلماء البلاغة والنقد، المنعقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة سنة ٢٠١٦م، تحت عنوان: النهوض بالبحث البلاغى والنقدي].

٤١ -أسرار البلاغة القرآنية فى سورة «تبت يدا أبى لهب.»

٤٢ -علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى.

٤٣ -تثوير مقالة العلماء في الأمر والنهى والاستفهام [محاضرات مكتوبة لطلاب الفرقة الثانية في كلية اللغة العربية].

٤٤ -مراجعات منهجية في سبيل غير العربي إلى العرفان بإعجاز بلاغة القرآن.

٤٥ -الهجرة في طلب العلم: مدارسة إيمانية إصلاحية فى آيةٍ من سورة التوبة.

٤٦ -المعنى القرآني: معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة – رؤية منهجية ومقاربة تأويلية.

٤٧ -استقيموا على الطريقة: مراجعات فى الفهم والإفهام فى باب الوصل والاتصال.

٤٨ -المبادئ العشرة لعلم البلاغة العربى.

٤٩ -المسلم بين حُريتين: مقدمة لكتاب «تيارات منحرفة فى التفكير الدينى المعاصر» للشيخ على العماري.

وممَّا يشهد لهذه المؤلفات والبحوث بالرَّصانة والتفرُّد تسجيلُ رسالة علمية عن جهود الشيخ في تدبُّر القرآن الكريم، عنوانُها: «منهج التدبُّر عند الشيخ محمود توفيق محمد سعد: المعنى القرآني أنموذجاً»، حصلت بمقتضاها الباحثة فاتن سعد زينى على درجة الماجستير فى تخصص البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية.

ومواكبةً لمستجدَّات العصر وتوظيفها في خدمة الأمَّة نَشرَ فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد على صفحته على موقع «فيس بوك» عديداً من المقالات

العلمية والثقافية؛ منها: «إحياء علم البلاغة العربي»، «أركان فريضة البحث العلمي البلاغي في بيان الوحي»، «الأصالة شرطٌ رئيسٌ من شرائط جودة الموضوع في البحث العلمي»، «المقصد الأعظم من التعليم الجامعي»، «المقصد الأعظم من الجهاد فى سبيل الله تعالى»، «فقه إماطة الأذى عن الطريق»، «فى رحاب بيان النبوة: حكمة قَرْن بيان النبوة بين إكرام الضيف وقول الخير»، «فريضة علاقة الباحث البلاغي بأسفار البلاغيين»، «من أصول تلقِّى البيان البليغ»، «مِن حقِّ الولد على والدَيْه»، «قولٌ في القيمة العلمية التربوية لأسفار الشُّروح والحواشي.«

وللشيخ عددٌ من المقالات المنشورة فى مجلة الأزهر التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف هلالَ كل شهر؛ منها: «ولكم في البحث العلمي حياةٌ يا أولى الألباب»، «العقل المسلم: مكانته وسماتُه»، «كيف نقرأ؟»، «حُجية السُّنة من الذِّكْر الحكيم»، «فقه الهجرة فى زمن الاستضعاف".

أما المشروعات العلمية لفضيلة الشيخ محمود توفيق سعد فقد ذكر فى السيرة الموجزة التي كتبها بنفسِه أنه عاكف على إنجاز مشروعين؛ أولهما موضوعُه «الانتصار للقرآن»، ويقوم على ثلاثة أصول؛ هي: نَقْضُ ما أَشْكَل، تفصيلُ ما أُحْكِم، الطريق إلى تحقيق ما يجب. ويتضمن المشروع الآخر شرح فصول من كتاب «دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجانى شرحاً لا يعتمد على تقريب عبارة عبد القاهر فحسب، بل يعتمد على تثوير مكنوناتها وبيان ما يمكن أن يكون

امتداداً لها خارج الإطار الذي جرى فيه عبد القاهر؛ رغبةً في تأصيل علم بلاغة النص.

وقد شَغَلَ الشيخُ الجليلُ عضويةَ عددٍ من اللِّجان والمجالس العلمية؛ منها: اللجنة العلمية لترقية المدرسين والأساتذة المساعدين في جامعتي الأزهر وأم القرى، اللجنة العلمية المشرفة على مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، اللجنة العلمية لتطوير برنامج الماجستير والدكتوراه في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، اللجنة العلمية المحكمة لمؤتمر «سؤال الهُوِيَّة في البحث البلاغي» في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، اللجنة العلمية المحكمة لمؤتمر «البلاغة بين الواقع والمأمول» في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة الخطط والمناهج لبحوث الماجستير والدكتوراه في كليتي اللغة العربية بجامعتي أم القرى والإمام محمد بن سعود الإسلامية، مجلس الدراسات العليا في كليتي اللغة العربية بجامعتي أم القرى والإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة تأسيس برنامج المهارات والاستشارات اللغوية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

كما شارك الشيخُ في عديد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات العلمية داخلَ مصر وخارجَها.

وقد امتدَّ العطاءُ العلمي لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد إلى الرسائل العلمية؛ إشرافاً ومناقشةً؛ فقد أشرف على أكثر من خمسين رسالةً علميةً لدرجتى «الماجستير» و«الدكتوراه»، فى جامعة الأزهر، وجامعة المنوفية، وجامعتى الإمام محمد بن سعود وأمِّ القرى بالمملكة العربية السعودية، وناقش ما يزيد على خمسين

رسالةً علميةً في جامعات: الأزهر، البحرين، الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الملك عبد العزيز، أم القرى.

كما شارك في تحكيم كثير من البحوث العلمية للجامعات والمراكز البحثية، منها بحوث الترقية لأعضاء هيئة التدريس فى جامعات: الأزهر والمنوفية بمصر، الإمام محمد بن سعود وأم القرى بالمملكة العربية السعودية، البحرين، الموصل بالعراق، أم درمان بالسودان، آل البيت بالأردن.

وقد أسهم الشيخ فى تقريب أُمَّهات كتب التراث البلاغي إلى عقول طلاب العلم؛ فعقد غيرَ مجلس فى مُدارسة كتاب «المُطوَّل» للإمام سعد الدين التفتازانى، إنْ في الدورة التي عقدتها أمانة هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف لأعضاء الهيئة المعاونة فى جامعة الأزهر في شهر مارس عام ٢٠٢٠م، وإنْ فى المجالس التي بدأها في شهر أكتوبر عام ٢٠٢٤م فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة.

ويَتزيَّا فضيلة الشيخ محمود توفيق سعد بسَمْتِ العلماء الأزهريين المخلصين؛ فقد مُلئ علماً وحِلْماً، وتواضعاً وصدقاً، وصرامةً وحرصاً فى إقامة طالب العلم، ولا سيما علم البلاغة العربي، على طريق الأوَّلين المَجيدين المُجيدين، ولا يصرفه ذلك كلُّه عن النُّصْح لأولى الأمر، والصَّدع بكلمة الحق، والذَّود عن قضية المسلمين والأزهر الأولى؛ قضية فلسطين.

رَحِمَ اللهُ الشيخَ الجليلَ فضيلةَ الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، ووَصَل بما تَركَه مِن علمٍ نافعٍ ما انقطع مِن عمله، وأثابه عن العلم وطلابه حُسنَ الثواب[1]

(١) نقلا عن جريدة صوت الأزهر بتاريخ الأربعاء ٥ رمضان ١٤٤٦هـ- ٥ مارس ٢٠٢٥م

هكذا رأيت أبي

بقلم: عزة محمود توفيق سعد

في زوايا البيت الذي احتضنه، وبين دفاتر العلم التي أفنى عمره بينها، عاش أبي الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله حياةً ملؤها السكينة، وترك أثرًا خالدًا لا يُنسى، لم يكن مجرد عالم من علماء الأزهر، بل كان أبًا حنونًا، ومعلمًا فاضلًا، ونموذجًا في الأخلاق والتواضع.

كان قدوةً لنا في كل شيء، في سلوكه، في تعامله مع ربه، وفي محبته للناس، خاصة أمي الحبيبة التي ما رأيته يومًا في خلاف معها، بل كان رفيقًا رحيمًا محبًا.. أما نحن أبناؤه، فقد نشأنا على يديه في بيتٍ يسوده الاحترام والرحمة، لم يُجبرنا على شيء قط، بل كان يناقشنا ويوجهنا بحكمة، ويحرص في كل لقاء عائلي أن نخرج منه بفائدة، بعلم، بموعظة، أو درسٍ في الدين والحياة.

في تربيته.. توازنٌ بين الحزم والرحمة، كان عادلًا بيننا، حريصًا على أن ينشئنا على تعاليم الإسلام وقيمه، لم يستخدم العقاب الجسدي أو العنف اللفظي يومًا، بل علمنا بالحكمة والصبر، فجمع بين الحنان والهيبة، وبين الحب والقيادة.

وصاياه لنا كانت نبراس حياة، أوصانا بالصلاة في وقتها، وبحفظ القرآن، وطلب العلم، لا سيما العلم الشرعي، علمنا صلة الأرحام، والابتعاد عن الغيبة والنميمة، والتواضع، وشكر النعم، ومساعدة الآخرين، دون رياء أو منّ.

ومن المواقف التي حفرت في ذاكرتي.. كان أبي يحب شيخه الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى حبًا كبيرًا، يوقره ويذكره دائمًا بخير، ويدعو له، ومن خلاله تعلمنا كيف نوقر المعلمين ونحترم العلماء، وكيف يكون التلميذ وفيًا لشيخه مدى الحياة.

كان الهدوء والوقار طبعه رحمه الله، وكان رجلًا متواضعًا، كريم النفس، عطوفًا، حكيمًا في حديثه، قليل الكلام، لكنه إذا تكلم أفاد، خصوصًا حين يُعلم الناس، لم يكن سريع الغضب، بل كان صبورًا، حليمًا، واسع الصدر.

عشقه للكتب... ورفقته الأبدية معها الكتاب كان رفيقه الأثير، يقضي معه الساعات، يتأمل، يكتب، يقرأ، ويتنقل بين الصفحات كمن يسافر في عالم خاص، مكتبته كانت مكانه المقدس، وأعظم هدية لديه كانت كتابًا أو قلمًا... هكذا كانت الكتب جزءًا من روحه، وكان رغم أصوله الصعيدية لم يرث إلا كل جميل من طباعها: الكرامة، الشجاعة، الشهامة، وإكرام الضيف، أما العناد والقسوة، فقد نأى بنفسه عنها، وكان ذلك سرًا من أسرار تميزه.

وفاته.. وجع لا يزول فقده كان كسرًا كبيرًا في حياتي، لم أشبع من وجوده، ولم أكن أتصور الحياة من دونه، رحل قبل أن أحقق معه أحلامًا كثيرة، لكنني

أؤمن أن دعاءنا وذكراه الطيبة ستبقى جسرًا يصلنا به، حتى نلقاه في الفردوس الأعلى بإذن الله.. كنت، وما زلت، أفتخر أنني ابنة الدكتور محمود توفيق، ولكن هذا الفخر ليس مجرد شعور، بل مسؤولية أحملها أمام الله والناس، لأكون خير امتداد لوالدي في الخُلق والعلم والسلوك.

رأيت أبي بارًا بوالديه، في حياتهما وبعد وفاتهما، كان يجلس إلى جوار والده يراجع معه القرآن، لا يبدأ طعامه حتى يأكل والده، ولا يقدّم أمرًا على راحته.. وكان حريصًا على أقاربه، يشاركهم أفراحهم، ويواسيهم في أحزانهم، ويهتم بشؤونهم وكأنهم جزء لا يتجزأ من حياته.

رحلته في طلب العلم.. كفاحٌ من قريته إلى الأزهر، حدثنا كثيرًا عن رحلته الشاقة من قريته الصغيرة إلى القاهرة، وحده، طالبًا للعلم، لم تكن طريقه سهلة، لكنه بالإرادة والتوكل على الله، بلغ مكانة كبيرة، وظل متواضعًا، شاكرًا، حتى آخر أيامه.

كان يمد يده للفقراء في الخفاء، لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، وكان حاضرًا دائمًا مع طلابه، لا يتأخر عن مساعدتهم، حتى وهو على فراش المرض، أوصى بأن يستمر هذا العمل من بعده، فجعل جزءًا من تركته للفقراء والطلاب، لتكون صدقة جارية له.

عن أي والد أتحدث ؟

بقلم: نهى محمود توفيق سعد

قد يكتب كثير من الناس عن إنسان فيصفون فيه المحامد والمناقب لأنهم لا يرون إلا غيرها ظاهرة أمامهم، ولا يمكن لهم أن يعرفوا الطبائع الحقيقية لدخائل من يصفونه، ولأنه هو أيضا كذلك حريص على أن يظهر أمامهم بمظاهر الحسن والكمال.. لكن الشهادة حينما تأتي من الداخل ومن أهل البيت فإنها إيقاعها يكون مختلفا مغايرا لأن من يعاشرون الإنسان عن قرب هم أكثر الناس دراية به ومعرفة بشؤونه لأنه لا يمكن أن يتجمل أمامهم وإن تجمل فمن المحال أن يتجمل طول الوقت، فإذا به يترك الخداع والتجمل ليكون منبسطا على طبيعته، ولعلي هنا وسط هذه الكوكبة من الكتاب الذي أطروا والدي وأثرت فيهم مواقف حياته في تعامله معهم يروون عنه ما رأوه من ظاهره لكنني اليوم أتكلم عنه بحديث مختلف عن الجميع فأنا أتحدث عن الدكتور محمود توفيق سعد من الداخل من الزاوية التي لا يعلمها أحد ، إنني اليوم أتحدث عن والدي الذي عاشرته وعشت معه تحت سقف واحد فكان نعم الأب ونعم المرشد والمعلم والمرب.

كان والدي رحمه الله فضيلة الدكتور محمود سعد والدا مثالا يتمتع بحياة أسرية متزنة، تملؤها البساطة والوقار، لم يكن من هذا النوع الذي يغلق على نفسه

داخل مكتبه بعيدًا عن أسرته، أو تأسره كتبه وأبحاثه عن الدنيا وشؤونها، بل كان قريبًا من أسرته، يتابع شؤونهم، ويشاركهم لحظاتهم اليومية رغم انشغالاته العلمية، كان بيته ملاذًا هادئًا يعمه الاحترام والسكينة، وكانت مجالسه في البيت مزيجًا بين الحديث العائلي العادي والنقاشات العلمية والدينية التي يحرص على غرسها في أبنائه..كان أبًا عطوفًا لكنه في الوقت نفسه حازم في الأمور التي تحتاج الحزم، لم يكن قاسيًا، ولم يكن يفرط في التدليل، بل اتخذ منهجًا وسطيًا في تربية أبنائه، كان يحرص على أن يعلمهم الاعتماد على أنفسهم، وكان يعاملهم معاملة الكبار، يناقشهم في أمور الحياة والدين، ويوجههم بأسلوب الحكمة والنصح، لا بأسلوب الأمر والنهي فقط، كان يراقب سلوكهم ويحرص على أن يكونوا نموذجًا للأخلاق والاستقامة .

وكان من أبرز وصاياه لأبنائه الاهتمام بالعلم وعدم الانشغال بتوافه الأمور، وكان دائم التأكيد على أهمية الصدق والأمانة في التعامل مع الناس، كان يوصينا دوما بعدم الاغترار بالدنيا أو السعي خلف المال على حساب القيم والمبادئ، ويحثنا باستمرار على قراءة القرآن والتمسك بالصلاة، ويشدد على بر الوالدين وصلة الرحم، وكان يرى أن النجاح الحقيقي هو أن يكون الإنسان نافعًا لغيره، وليس مجرد تحقيق إنجازات شخصية فقط، ما ترك موقفا يحدث إلا و أشار إلي و يقول لي: ماذا كانت تفعل السيدة عائشة أو السيدة فاطمة في مثل هذا الموقف؟ أريدك أن تكوني مثلهم.

كان والدي رحمه الله مثالًا للعطاء الخفي، فكان كثيرًا ما يساعد المحتاجين دون أن يشعرهم بأنه صاحب فضل عليهم، ومن المواقف المؤثرة التي

لا تُنسى، أنه كان يكفل بعض الطلاب غير القادرين على دفع المصروفات، لكنه لم يكن يقدم لهم المال مباشرة حتى لا يُحرجهم، بل كان يدفعها للجامعة أو المعهد الذي يدرسون فيه دون أن يخبرهم بذلك، كما كان يتكفل بأسر فقيرة دون أن يعلم أحد، وكان يرسل لهم ما يحتاجونه في الأعياد والمناسبات وكأنها هدايا وليس صدقات، وكان يفتح بيته للطلاب، يستمع إليهم ويوجههم كأب وليس كأستاذ فقط. لم يكن يفرق بين الغني والفقير، وكان يعتبر كل طلابه أبناءً له.

كان رحمه الله رجلًا يجمع بين الهيبة واللين، لم يكن سريع الغضب، لكنه عندما يغضب يكون غضبه منضبطًا بالحكمة، كان قليل الكلام لكنه مؤثر، وإذا تحدث جعل المستمعين ينصتون لكلماته باهتمام، كان كريمًا في علمه ووقته، متواضعًا رغم مكانته العلمية الكبيرة، يقدر الجميع ولا يتعالى على أحد. كان صادقًا في وعوده، ولا يحب المجاملة الزائفة، كما أنه كان يتمتع بحس فكاهي خفيف، فلم يكن صارمًا طوال الوقت، بل كان يعرف متى يكون جادًا ومتى يكون لطيفًا، وكانت القراءة بالنسبة له حياة كاملة، لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ فيه كتابًا أو جزءًا منه، مكتبته كانت مليئة بالكتب، وكان ينفق جزءًا كبيرًا من دخله على شراء الكتب وكان دائمًا يقول: إن العلم لا يتوقف عند شهادة أو منصب، بل هو رحلة مستمرة حتى آخر العمر .

كان يحمل لي حبًا خاصًا رغم أني لم أكن ابنته الوحيدة.. فلي أختين لكنه كان حريصًا على العدل بيني وبين إخوتي، لم يكن يفرط في تدليلي، لكنه كان يمنح كل واحدة منا اهتمامًا خاصًا، ويشجعنا دائمًا على التعلم والتطور، وكان يرى أن دور المرأة لا يقل عن دور الرجل في العلم والمجتمع، كان يدعمنا في كل خطوة،

ويوجهنا بحكمة وحنان، وكان دائمًا يقول لي: أنتِ ليستِ أقل من أي شخص، العلم يرفعكِ متى ما تمسكتِ به. وكرجل صعيدي كان رحمه الله يحمل في طباعه مزيجًا من حزم الصعيد ولين العلماء، كان شديد الالتزام بالقيم والمبادئ، ولم يكن يقبل التهاون في الأمور الأخلاقية أو الدينية، لكنه لم يكن قاسيًا أو متعصبًا، بل كان يعرف كيف يوازن بين الحزم والرحمة، كان يؤمن بأن الصرامة لا تعني العنف، بل تعني الالتزام والانضباط .

كان شديد الحرص على صلة الرحم، لم يكن يقطع أقاربه رغم مشاغله الكثيرة، كان يخصص وقتًا لزيارة العائلة، ويحرص على السؤال عن أحوالهم، وإذا احتاج أحدهم شيئًا، لم يتردد في مساعدته. وكان يحترم كبار العائلة ويوقرهم، ويعلمنا أهمية البر بالأهل وعدم التفريط في صلة الرحم مهما كانت الظروف.. كان يخبرنا عن الصعوبات التي واجهها في طلب العلم، وكيف كان يسافر من أجل حضور دروس المشايخ الكبار، كان يقول دائمًا إن الطريق لم يكن مفروشًا بالورود، بل كان مليئًا بالعقبات، لكنه بالصبر والاجتهاد والتوكل على الله، استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه.

لقد كنت أشعر دائمًا بالفخر كوني ابنة رجل بهذه المكانة العلمية والخلقية، كان الناس يقدرونه ويستشهدون بأقواله، وكنت أشعر أني محظوظة بأن أكون جزءًا من إرثه العلمي. لكن هذا الفخر كان مسؤولية أيضًا، فقد كان الجميع يتوقع مني أن أكون على مستوى علمه وأخلاقه، وكان هذا دافعًا لي لأحاول أن أكون عند حسن ظنه.. إن فقد والدي خسارة لا تُعوَّض، فهو عمود البيت، وسند الجميع،

وكان وجوده يمنحنا الأمان والحكمة، كان رحيله صعبًا، لكن عزائي الوحيد أنه ترك لنا إرثًا علميًا وسمعة طيبة يتحدث عنها الجميع، كلما تذكرت كلماته ونصائحه، أشعر أنه ما زال حيًا بيننا بعلمه وأثره.

وفي عالم العلماء، أحب أن أذكر تلك العلاقة بين الشيخ وتلميذه، والتي لم تكن مجرد اتصال معرفي أو تبادل أكاديمي، بل تتجاوز ذلك إلى علاقة روحية وأخلاقية تتجلى فيها معاني التربية، والتزكية، والاقتداء، ومن أبهى صور هذه العلاقة ما جمع بين الشيخ العلامة الدكتور محمد أبو موسى – أحد أعمدة البلاغة في العصر الحديث – وأوالدي الذي هو تلميذه النجيب الشيخ الدكتور محمود توفيق، الذي تأثر به تأثرًا بالغًا في منهجه العلمي، وسلوكه الأخلاقي، وروحه التربوية، تتجلى الروحانية في علاقة الشيخين في عمق التأثر الذي تركه الشيخ أبو موسى في نفس تلميذه، إذ لم يكن الشيخ يقتصر في درسه على بيان المسائل البلاغية أو اللغوية، بل كان يحفّ بها بروح إيمانية خاشعة، تنبع من قلبٍ عامرٍ بذكر الله، وتربيةٍ أصيلة. وقد تلقى الشيخ محمود توفيق هذه الروحانية بقبول وتقدير، فانعكست على سلوكه ووعيه، وأثمرت في شخصه توجهًا صادقًا نحو تزكية النفس، وتعظيم الحق، والتمثل بأخلاق العلماء العاملين .فالشيخ محمد أبو موسى مثال في التواضع، والورع، والصدق، وهي الصفات التي تشرّبها تلميذه، فصار يُعرف بين معاصريه بسكينة العالم، ووقار المتأدب، وحرص المربّي. وقد تعلم الشيخ محمود من شيخه كيف يكون العلم وسيلة للتهذيب لا للمراء، وكيف أن العالم الحقيقي لا يُقاس بغزارة حفظه فقط، بل بصفاء قلبه، وحسن عشرته، وسلوكه في الناس.. أما من الناحية العلمية، فقد كان الشيخ أبو موسى مدرسة قائمة بذاتها

في البلاغة والبيان، لا ينقل عن السلف فحسب، بل يعيد إحياء مقولاتهم بمعانٍ معاصرة وروح جديدة. وقد اقتفى الشيخ محمود توفيق هذا الأثر، فتأصلت لديه ملكة التذوق البياني، والتأمل البلاغي، والقدرة على الجمع بين التراث والتحليل العلمي. كما ورث عن شيخه دقة النظر، وصرامة البحث، وحب اللغة العربية كروحٍ لا كقوالب فقط .لقد كانت العلاقة بين الشيخ محمد أبو موسى وتلميذه الشيخ محمود توفيق مثالًا حيًا على أثر الصحبة الصالحة، والتربية العلمية المتجذرة في القيم الدينية والأخلاقية. وهي علاقة لا تزال آثارها بادية في فكر الشيخ محمود، وفي طريقته في التعليم، وفي حضوره المهيب الذي تستشعر فيه عبق السند، وفضل الأستاذ، وصدق التلمذة.

آخر شأني معه

بقلم م: مصطفى إبراهيم عامر

الوَلِيُّ الصَّالِح، العَبقريُّ الفذُّ، الأُصولِيُّ النِّحريرُ، البَلاغِيُّ القديرُ، الذي طاوَلتْ فصاحَةُ قَلبِه قِممَ الجِبال، العَلِيُّ بيانُه، الكَريمُ نُصحُه، الشَّقيق الرحيمُ، حتى لكَأَنَّكَ تحسبُ رُوحَه نسمة مرَّت عليك في يومٍ صائِف، بل هي أَخَفُّ من النسيم. حَمِدَهُ الورى سيرةً وأدبًا وأخلاقًا وتواضعًا وعملًا بعلمه فهو المَحمود، وما كَتبَ كتابًا أو ألقى كلمةً إلَّا وكان عليها مَخايِلُ التوفيق، وما إن تراهُ إلَّا ويطرَبُ فؤادُك سعادَةً من لمعانِ روحِه فهو السعد، فما رأيتُ أحدًا كانَ لهُ من اسمه التَّام أوفر نصيب كما كان لسيدي الوالد محمود توفيق سعد، رحمه الله!

نَعم. أقول رحمهُ الله وقلبي يعتصر، أقولُها، وإن لِساني لذائِبٌ في حَلقي، وبياني ضالٌ ضلالَ الماءِ في اللبن!، تتصارَعُ الذِّكرياتُ، وتتقاتلُ في سَاحَةِ عقلي معلِنة عن فضلِهِ علينا جميعًا، تربيةً وتأثيرًا، فما كانَ أبلَغهُ من خطيبٍ وهوَ صامِتٌ فكيفَ لو تكَلَّم، فإن عجِبتَ من ذلكَ فإنِّي قاصٌّ عليكَ من آخرِ شأنِي معه، فقد حضرتُ معهُ الجُمعة في مسجد المتوكل، على غير عادته، فقد خالفَها حتى لا يرهقنِي، فقلتُ يا سيدنا أستطيع الذهاب لأي مسجدٍ فقال: لا، أنت تعرفُ المتوكل ولا أريد أن أتعبك، ومثلهُ يُسعى إليه على الأعين كرمًا وبرًّا، وهو يفكر في تعبي، وما أنا بالشيءِ الذي يُذكر أصلا أو فرعًا، فدخلتُ المسجِدَ وعيني على

مكانِه، فإذا هو فيه، بجلبابِه الصعيدي، ووجهه المشع بركاتٍ وحسن نور، وأنا مع لغة الخطيب وبلاغته كعادتي السيئة، وعيني على الشيخ فإذا هو مُغمض العينِ يهتزُّ، فكأنَّه في دنيا أخرى لا أعلمُ عنها شيئًا، فكنتُ أنظرُ إلى الخطيب وإليه، فكان إذا ذكر الخطيبُ آيةً أو حديثًا اشتد طربُه وازدادَ ميلُه إلى الأمام كأنه يسجد وهو لا يسجد، فظللتُ أرى هذه الخُطبة الجلية منهُ، تلك الجُمعة البلِيغة، التي حفرتْ درسًا في قلبي، وهو صامِتٌ ولا يدري عني شيئًا ولا عما تركَهُ في نفسي ساعتئذ، فإذا همَّ الخطيبُ ليدعو إلّا وانكمشَ سيدنا كأنه عُصفُور، ورفع يده في خشوع، وإنَّ هيئَتَه ماثلة أمامي حتى الساعة!

إيهٍ، ما مكنني الشيخُ مرةً قطُّ من تقبيلِ يده، وما وجدت في نفسي حُبًّا لتقبيلِ يد أحد إلا ما كُنتُ أجد في نفسي تجاهه، كان، رضي الله عنه ورحمه، ينتفض انتفاضة شديدة إذا لمح فيَّ العزيمة، فإذا خرجنا من المسجد قال في حُبٍّ: «تَعالَ خُد القهوة يا مصطفى»، فأردُّ: رضي الله عنكم يا سيدنا لا أحب أن أضيعَ وقتكم، فيبتسم ويمضي، يا ليتني أتيت يا سيدنا لآخذ القهوة، فلعلها كانت فرصة لأن أشبع منكم، ها أنت ذا رحلتَ، وتركتني أتجرعُ المرارة!

كان هذا دأبه مع غريب مثلي، فكيف بمن يحبُّهم!

وإنك إذا أردت أن تجد نسيجًا عجيبًا من الإكبار، وحالة فريدة من البر، فراقبه وهو في درسِ الشيخِ أبي موسى، أطال الله بقاءه، فهذا درسٌ آخر من معينِ أدبِه الذي لا ينضب!

كانَ الشيخُ، رحمه الله، تعالى من أزهد الناس، حتى إنه كان ليتورّع عن كوب الشاي الذي يُوضع أمامه في المحاضرة فيوضع له، ويُرفع كما هو، اللهمَّ إلا من بعض رشفاتٍ من ماء من كأسٍ مجاور!

كَانَ الشيخُ، رضي الله عنه، داعيةً إلى الله بحسنِ الصَّمتِ فكانَ متصوفًا حقيقيًا، يستحضِرُ أهميةِ التزكية= تزكيةِ القلوبِ دائمًا وأبدا، حتى إنَّك لتستمعُ إليهِ يُوَسِّعُ المصطلحات البلاغية ليُسقِطهَا على علمِ السلوك، فإذا تكلَّمَ في الغَرابَةِ كمُصطلحٍ بلاغيٍّ جَرَّها إلى الغُربَةِ في الدين، فيعلمك أن الغرابةَ في علم البلاغة مذمومة، ولكن الغربةَ في الدين محمودة، حتى إنَّه ليقولُ في كتابِه الفذِّ دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين، وهو كالمقدمة لكتابة الفحل سبل الاستنباط، وكلاهما شاهدان على رسوخ قدمه في العلم، يقول رحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه عليه:

«فالتزكية تمنَحُ العبد أدوات فهم عن الله سبحانه وتعالى لا يتحقق له منها شيء بدونها، فعلوم البشر تعجز وحدها عن استنباط معان من الهدى في بيان الوحي، وإن كان صاحبها عبقري عصره ومصره، فإن لأهل الله سبحانه وبحمده، وأهل القرآن تأدبا هم أهل الله، من أدوات الفهم الوهبي الذين ينفذون بها في أغوار البيان، فيستخرجون ما لا قِبل لغيرهم استخراجه"!

انظُر هَذا النسيجَ الخسراوني، وتأمل في أغوار هذا البيان البَهيّ، لتنفُذَ إلى حقيقة تلك النفس المُلتهبة بتطهير القلب، وتعلمَ علمَ يقين أن هذا هو الباب الأعظم الذي يطلُّ منه بيان الشيخ دوما.

كانَ الشيخُ، رحمة الله تعالى عليه، مطبوعًا على الخمول، مُحبًّا للاختفاء، حتى لكأنَّهُ كَرِهَ أن يُعرفَ، فلما اشتهَرَ خبرُه، قالوا: مات!

صليتُ معهُ المغربَ ذات يومٍ في مسجد المتوكل، فلما أقاموا الصلاة، نظروا إليَّ ليقدموني للإمامة، وأنا أكادُ أموت، وأنظر إلى الشيخ فإذا عينُه في الأرضِ لا يرفعها، فأنا أعلم منه كراهية أن يتقدم، وقلبي لا يُطاوعني أن أتقدم، فظللتُ في حيرةٍ أتلدد، حتى فضّلت هواهُ ومحبته وتقدمت وصليت على كراهية مني ولا أنسى أبدا قراءتي ساعتها واضطراب قلبي، وكنت أقرأ من سور الأنفال، ولا أنسى رعبي وورائي جبل من جبال الحفظ، وما كان لمثلي أن يتقدم على مثله، وهذا شاهد على هضمِه لنفسه، وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى المغرب متأخرًا حتى لا أتعرض لمثل هذا، فدخلت فوجدت شابًّا لم يتجاوز العشرين من عمره والشيخ وراءه مأمومًا، كان الشاب يقرأ في سورة النّحل ساعتها، فأخطأ فلم يجد أحدا يرده إلا الشيخ، وهذا أيضا من عجائب هضمه لنفسه!

كنت إذا ذهبتُ لأسلم عليه وشرع يتكلم، أغمضَ عينَه واستحضر قلبَه للنصح، حتى لكأني أشعر إن قلبَه المتكلم لا لسانه، يخرج الكلامُ عذبًا رقراقًا كأنما يستطعمه، ويكأنه خرج من مشكاة من نور!

كانت علاقة الشيخ، رحمه الله، بالقرآن عجيبة، يستطيعُ الناظِرُ في أصغر كتبِهِ الخاصة ببلاغة القرآن أن يهتدي إلى معالمِ منهجه، وكيف أنه يضرب كثيرا على وترِ المعاني الإحسانية، ومعاني الهُدى في القرآن الكريم، وإن أردتَ خير شاهد، فدونك كتابه الجليل المعنى القرآني، فيتكامل منهجه كأنه يرسخ علمه كله

لهذا الباب باب الإحسان إلى القلوب، فصارَ علمه بذلك نبراسًا وسراجًا ينير فتيلُه من مشكاة الوحي قرآنًا وسُنة!

كَانَ لسيدنا محمود توفيق سعد، رحمة الله تعالى نُفوذٌ عجيبٌ ينسَربُ إلى نفسِكَ مِن دونِ أن تشعُر، تأثيرٌ في طبيعتِك بلا أدنى شعورٍ منك، هذا النفوذُ وذاكَ التأثير من أعظمِ ما كان يُميِّزُ شيخَنا، رضي الله عنه، فبِصَمْتِه وسمتِه يفعل الأعاجِيب، بتطليقِه الدنيا، وهضمه نفسه، وهو جبلٌ كبير لو شاء لركبَ ونوَّع الركائِب، ولكنَّه ترَك وتخَلَّى فَتَحلَّى، وإني لأجدُ تأثيرَهُ في نفسي ظاهِرًا جليًا، فأصبحتُ أتعَزَّى بطريقَتِه، فكان إذا سمع شيئًا الردُّ عليه لن يفيدَ المتحدِّث اكتفى بالسكوتِ والابتسام، فعلَّمني أن أتخيَّرَ كلامِي دونَ أن يأمرني بهذا مباشرة، وعلمني ألا أتسلسل بحبائِل الكلامِ فأصل به إلى ما أكره، رجلٌ بَهِيُّ النفسِ جليلُ العقلِ راسِخُ الفِكر ذو بيانٍ حلو، يُربِّي بالصمتِ والسَّمتِ قبل الكلام، بنفوذ عجيب لا تستطيع دفعه، رحم الله الشيخ، وأجزل له المثوبة!

إنَّ المصيبة بموته لعظيمة، ولا يعرفُ عظمة هذه المصيبة إلا من وقع على بحرِ علمه، ورجاحة عقله، وإضافته الفذة، لا أقول للدرس البلاغي بل للأصولي، ولقد جعل البلاغة سُلَّمًا للتثوير الإيمانيِّ القلبي، وكتبه ناطقة بذلك، ولا نزكيه على ربه، رحم الله الشيخَ بعدد كل حرفٍ كتب، وبعدد كل نفسٍ تنفس، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلف علينا خيرا منها!

كان بالحق قائمًا وبالخير ناصحًا

بقلم: أحمد نوار

أكتب هذه الأسطر إجابة لدعوة الكاتب الذي شرفت بمعرفته ولمست فيه حرصه على أن يخرج بكتاب عن فضيلة الراحل الكريم بالرغم أنه لم يكن يعرفه قبل وفاته معرفة وثيقة، اللهم إلا مجرد السماع فقط، لكن الأرواح جنودا مجندة ولعل الله أن يستخدمنا في التعريف بعلمائه وأوليائه.

وقد يصعب علي ولم يمض على وفاته وقت كاف أكتب عنه وأحكي حاله ومواقفه، فما أن أذكر المواقف والأحداث حتى تتجدد الأشجان والأحزان على فراقه، وقد تزامن مع رحيله هذه الأحداث الدامية في غزة –نسأل الله أن ينصرهم – والتي تعصر القلب ألما وهما إذ لم يسبق لها مثيل.

إلا أن رحيل عالم كان بالحق قائمًا وبالخير ناصحًا وللعلم خادمًا لهو حدث جلل به يقبض الله به العلم وينزعه، ولا يسعنا إلا أن نحاول رواية بعضا من سيرته لتكون قدوة لنا ولأهل العلم طلابا ومعلمين.

الزيارة الأولى

شرفت بالتعرف على د. محمود توفيق في شبابي من خلال ابن أخته د.

صلاح الذي كان كثيرا ما يذكره في حديثه خاصة إذا تعلق الأمر بحكم شرعي أو موقف تربوي، حتى إذا ذهبنا إلى منزله في زيارة وقد ملأت الرهبة والمهابة صدري إذ تحدثني نفسي: " من أنت لتزور وتتحدث للأستاذ الدكتور فلان." (وكانت هيبة العلماء في صدورنا في ذلك الزمن)

وما أن لقيته وصافحني حتى زالت الرهبة وحل محلها الراحة و السكون بل والألفة، وأذكر أنه كان منصتا في صمت واهتمام بالغين، حتى إذا انتهيت أجابني بما فتح الله عليه من قلب وعقل حريصًا أن يصل المعنى إلى السائل، مطوفًا بنا أحداثا من السيرة والتاريخ، ومُحيلا إيانا بعض الكتب .

وكعادة تلك المجالس المباركة أنها عامرة بأطايب الشراب والحلوى كمن يمزج السمن بالعسل.

شكرته وهممت بالانصراف فناداني حتى التفت إلي قائلا: "خد الكتاب ده.. هيعجبك " حينها علت وجهي علامة استفهام.. كيف لك أن تعرف في جلسة واحدة ماذا أحب؟ وكيف تحمل معك كتابا في موضوع ليس محط تركيزك واهتمامك؟ أدركت حينها أنه ما كان ينصت إلي فحسب، ولكن كأنه كان يقرأ أفكاري ويفهم شخصي، واستطاع بهديته أن يأسر قلبي.

وتوالت الزيارات بعد ذلك ولم تنقطع.

مما أعرفه فيه حق المعرفة، أنه كان مهتما بالقرآن وأهله ففي مسجد الحي حيث تنعقد حلقات حفظ القرآن، كثيرا ما كان يدعوهم إلى المنزل حيث الطعام

والصلاة ومجلس ذكر.

كان في بيته السخاء والكرم طبعا أصيلا ليس في شخص الدكتور فحسب، وإنما في أهل بيته أيضا، وكعادة أهل القاهرة أن تأتيهم الزيارات من القرية (البلد) من حين لآخر، فكان رحمه الله واصلا لرحمه مضيافًا لأهل بلده، ساعيًا في قضاء حوائجهم وإدخال السرور على قلوبهم.

بل كان كثيرا ما يرجع إليه المتخاصمون، ليس لحكمته في الفصل والحكم فقط، ولكن لكرمه وسخائه الشديد أيضا، حيث كان يشاركهم المغارم ولو كان به عسر، ونادرا ما كان يغضب أو يعلوا صوته، بل كان يكتم ضيقه وحزنه، فكم من الليالي ضاق فيها صدره وأقض نومه موقف كان قادرًا على إنفاذ غضبه، وما منعه إلا رحما يصلها أو ودا يرعاه أو حقا يحفظه.

يأخذ نفسه وأهله بالعزيمة ويلتمس الأعذار للمقصرين.

كان رحمه الله مع وظيفته كأستاذ جامعي وعالما لغويا أصوليا، حريصًا أن يكون له سهم في كل باب خير يعرض عليه بمال أو جهد أو كلمة حق أو نصح وإرشاد.

وحين حضرت وفاة أبي رحمه الله، وكنت حريصًا وقتها أن يحضر الصالحين الجنازة، لعل دعوة أحدهم تصيبنا فيرحمه الله بها، لم يتردد الدكتور في حضور الجنازة التي كانت بعيدة عن داره في برد شهر فبراير لأحد أصدقاء ابن أخته، بل لم يتركني إلا عند المقابر بعد الانتهاء من الدعاء.

كنت حينها ذلك الشاب في أواخر العشرين، لا أجد وظيفة ولا أملك المال.. كان الزواج حلما بعيد المنال، ولكني طرقت الباب وتقدمت إليه بطلب الزواج من كريمته عزة، التي لم أكن أعرفها بعد، فأجابني بعد أن أطرق طويلا ثم أطلق تلك التنهيدة الطويلة، كمن يراجع حساباته ثم يقول: " يا أحمد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه.. هنعمل إيه بقى مع حديث رسول الله"

قلت له: أنا أرفع عنك الحرج يا دكتور أنت في حل من أمرك، أعرف أن الطلب صعب.. لكنه لم يقبلني فحسب، وإنما كان داعمًا لي في ضيقي وسندا لي في احتياجي، وكان ونعم المعين ميسرًا كثيرًا من المصاعب، حتى أتم الله علينا أمره.

كان رحمه الله والدا وإنسانًا نادرًا مثاليا ما شهدت عليه نقيصة أو لمست فيه عوجًا من القول والفعل، كان حقا قدوة صالحة لمن أراد أن يتأسى بقدوة صالحة.. رحمه الله وغفر له فسوف يظل حيا في قلوبنا ما حيينا نتذكره ونترحم عليه.

ترك فراغا لا يُملأ

د: سلامة جمعة داود[1]

فقدت الأمة الإسلامية وفقد العلم وفقد الأزهر الشريف، رائدًا من رواده ونابغة من النابغين الذين قل وندر وجودهم.. كان الفقيد رحمه الله بحرا وعلامة عاش كنسمة صيف لم يشعر به أحد، وكان متواضعًا جدًا وحينما كان يغمض عينيه كنا نسمع منه دررًا.. ودائما كان يتميز رحمه الله بأنه يطأ أرضا أُنفا، ويحب المشرب الصافي، وكان يطأ أبوابا ويفتح أبوابًا لم يفتحها أحد قبله .

أتاح له تميزه في علم أصول الفقه وتميزه في علم البلاغة أن يجمع بين العلمين في صورة لم نرى لها مثيلا عند من سبق وتفرد رحمه الله في هذا الباب لأنه قلما نجد من هضم العلمين علم أصول الفقه وعلم البلاغة بهذه الصورة العالية المتقنة، فدخل أصول الفقه وقدم عطاء جديدًا بآلات البلاغة وأدواتها.. وجاء بالعلمين ومزجهما وأخرج لنا سبل الاستنباط من الكتاب والسنة، واخرج لنا دلالة الألفاظ عند الأصوليين، وأخرج لنا هذه المجلدات التي أقول عنها بلا مبالغة: لم يكتب مثلها في زماننا هذا، وهو ما اعترف به كثير من العلماء دون مبالغة في حقه، لأنه أكرمه الله ورحمه ورضي عنه كان نمطًا فريدًا من العلماء .

---

(١) من كلمة الدكتور سلامة داود رئيس جامعة الأزهر في تأبين الفقيد الراحل

لذلك كان الشيخ محمد أبو موسى رزقه الله العافية والصحة يقول: لو كان ما عند محمود توفيق سعد هو البلاغة فليس عندنا منها شيء ولو كان ما عندنا هو البلاغة فليس عنده منها شيء.. يقصد أعزه الله انه اختط لنفسه منهجا فريدًا وطريقًا قاصدًا وأنه لم يكرر غيره ويأبى أن يُكرر غيره رحمه الله.. وهذه الكلمة التي نطق بها شيخنا أبو موسى إنما اقتبسها من كلمة علماء النحو في الروماني حينما قالوا عنه: لو كان النحو هو ما عند الرماني فليس عند علماء النحو منه شيء، ولو كان النحو ما عند النحاة فليس عند الرماني منه شيء .

ولعل الله تعالى أن يخلف الأمة فيه خير خلف، وأن يعوضها فيه خيرا وأن يرزقنا نشر علمه وفكره وإقامة دراسات متميزة حول هذا العطاء السخي فقد قالوا: من ينشر فكر العالم يكون له فضله على العالم حتى ولو تتلمذ عليه، قالوا ذلك في البيهقي بقولهم: ما من أحد إلا وللشافعي عليه فضلا إلا البيهقي فإن له الفضل على الشافعي لنشره مذهبه.

خدم الراحل الجليل الأزهر الشريف جامعًا وجامعة، وكان علماؤنا يقول بعضهم في بعض: كان العالم حنانًا نأوي إليه، وهي كلمة جليلة استدعيتها من تراثنا الغابر العريق لأقول: إن شيخنا الجليل محمود توفيق سعد، كان حنانًا نأوي إليه، فلم يكن مجرد زميل، ولا مجرد أستاذ، ولا مجرد عضو بهيئة التدريس بجامعة الأزهر، بل كان مربيًا كريمًا، وكنت أجلس إليه وأجد نفسي بين يديه، لأنه كان من أشد المتواضعين مع رفعه مقامه، فقد كان عضوا بهيئة كبار العلماء التي اختارته بعنايه دقيقه، لأن عضوية هيئة كبار العلماء لا ينالها ألا الأثبات، فكنت

إذا جلسن إليه، فتجد نفسك تجلس الى رجل لا هو من كبار العلماء، ولا هو أستاذ بالجامعة، أنت تجلس إلى عالم فقط تأخذ العلم منه صافيا جليا واضحا، ومن العجب أن وسائل التواصل الاجتماعي قد بدأت تظهر كثيرا مما أخفاه الشيخ من حال حياته، فلم يكن رحمه الله في حياته ليسمح أن يذاع عنه أو يظهر له في وسائل الاعلام شيء على الاطلاق، وكان أبعد الناس رحمه الله عن الظهور في هذه الوسائل، وأبعد الناس عن وسائل التواصل الاجتماعي، وحينما كنت أجد اسمه في وسائل التواصل الاجتماعي حال حياته، فلا أجده إلا ليصحح خطأ، أو يرد على مشكلة، أو يكتب مقالة علمية جيدة، فكان ينشر علمًا نافعًا للناس، وكانت صفحته لا تجد فيها إلا هذا، ولم أكن أجد تسجيلا واحدًا للشيخ حال حياته، وهو أمر نادر جدًا، لأنه لم يكن يحب ذلك، وكان يتوارى ويستخفي، وقد علمنا علماؤنا بقولهم: (نعوذ بالله من الظهور، موجب للفقر وقاسم الظهور) فكان الشيخ محمود توفيق يتفرغ للعلم وينشغل بالعلم، لا تشغله أي وظيفة أو شاغل عن حب العلم والرغبة الصادقة في العلم، وكان كما يقول أسلافنا: (اللهم لا تمنعنا عن العلم بمانع ولا تشغلنا عنه بشاغل) وكان هذا بعض من دعاء قنوط الفجر عند بعضهم، وهكذا كان حال الشيخ محمود توفيق تمامًا.

زرته رحمه الله مره في أوائل التسعينات في بيته بالزيتون، وكنت مع زميله العزيز الدكتور إبراهيم علي داوود، فإذا بنا ونحن جلوس معه، ينظر إلى مكتبته الضخمة ويقول: أنا لا حاجة لي بهذه المكتبة، لأنني قرأتها كلها وأصبحت في ذهني، فانظر إلى عبقريه الرجل، أمام مكتبة فيها آلاف المجلدات يقول عنها: انا لم أعد بحاجه إليها لأنها في رأسي.

وأذكر أنه ما من مسألة بدأت أعمل واجتهد وانظر كلام العلماء فيها، إلا ووجدت عند الشيخ لمحة جديدة في أمرها ليست عند غيره.. فأجد عنده ما عند غيره، وأجد عنده ما ليس عند غيره، وهذه بصمه الشيخ محمود توفيق الذي يرفض أن يكرر غيره، ويرفض ان يكون مقلدًا، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: التقليد ذل، وهذا في الفقه فما بالنا في علوم البلاغة؟! وكان يقول: المقلد ذليل، ويقول كذلك الإمام الزمخشري: "المقلد كالعنزة الجرباء تحت المطر البليل" فرحمة الله عليه قد اختط لنفسه طريقا سار فيه وانفرد به، وأذكر أنني ما جئت إليه زائرًا الا أهداني كتابًا، فكانت حياته دائما في العلم وانشغاله بالعلم، والعالم حينما تراه منشغلا بالعلم وجعل حياته للعلم، وفرغ نفسه من شواغل الدنيا وطلقها ثلاثا بلا رجعة، فقد أصبحنا إذا أمام عالم رباني، ومن العلماء الذين يسعى ويُؤتى إليهم.

وحدثني شيخنا الهدهد يوما قائلا: حينما تقدم الدكتور محمود توفيق إلى الترقية لدرجة أستاذ مساعد قرأت نصف كتابه الذي قدمه للترقية، ولم أفهم منه شيئًا، وطالما كتب أحدهم ما لم أفهمه، فلابد من ترقيته والشيخ محمود توفيق، كما ذكرت: إذا جلست إليه وأغمض عينيه حصلت منه إذا على ما لم تحصل من غيره .

مضى رحمه الله ردحا طويلا من الزمن في كليه اللغة العربية في المنوفية، وكان يسافر من القاهرة إلى المنوفية، فأسس هناك مدرسة وسافر الى جامعة أم القرى، فأسس هناك مدرسة، وكل مكان كان يذهب إليه تجد له مريدين وتلامذة وأصحابا، وقديمًا كان علماؤنا يسمون التلميذ صاحبًا لطول فترة الملازمة،

وللحميمية التي بين الأستاذ وتلميذه، فنجد مثلا الربيع بن سليمان المرادي صاحب الإمام الشافعي، فصاحبه أي تلميذه، يعني تلميذ الشافعي، ونجد كذلك محمد بن الحسن الشيباني والقاضي أبو يوسف صاحبا أبي حنيفة أي تلميذيه، وفي اللغة العربية نجد أبو الفتح عثمان بن جني صاحب أبو علي الفارسي أي تلميذه، فكان العلم قديما بطول الملازمة، على عكس ما نجد هذه الأيام، وكانت طول الملازمة هي التي تنتج العلماء، وقد جاء نفر من الأعراب الى سيدنا مالك بن انس رضي الله عنه وقالوا له يا إمام المدينة، نحن نقيم في المدينة أربعين يومًا ونريد أن نأخذ عنك الموطأ فقال لهم: "كتاب ألفته في أربعين سنة تأخذونه في أربعين يومًا قلما تفقهون فيه".. فالعلم يحتاج إلى صبر وإلى رويه والى ممارسة .

وشيخنا فقد سد في الجامعة ثغرة كبيرة، وترك فيها سلمه كبيرة، وفراغا لا يُملأ، وكان علماؤنا يقولون: لابد للجيل الجديد أن يملأ فراغ الجيل السابق، حتى لا تكون هناك فراغات في جامعاتنا ومعاهدنا، فلابد للقادم أن يملأ فراغ من سبق، ولا تزال رحمات ربي تترًا عليه ما قرأ قارئ سطرًا من كتبه ولا باحث ولا مؤلف ولا عالم ولا مدرس .

فعلم الشيخ وأدبه باق فينا، وأخلاقه العالية باقيه فينا، ورحمه الله تعالى واسعة وتسع الجميع، ونحسبه قد ذهب إلى كريم وذهب في مطلع شهر كريم ومن قصد الكريم فلا يضام .

وأنا دائما ما أسمي الشيخ محمود رحمه الله تعالى أبو الفتوح، لأنه كثيرًا ما فتح أبوابًا لطلاب العلم والباحثين في ميدان البحث العلمي في البلاغة العربية،

وقلما تجد هذه النوعيات في جامعاتنا، وقلما تجد هذه النوعيات التي تفتح آفاقا جديدة في التخصص، ونحن نحتاج في كل تخصص إلى من يفتح آفاق المعرفة فيه .

وقد حضرت للشيخ محمود رحمه الله مناقشة رسالة جامعية في جامعة أم القرى فكان الشيخ محمود مشرفًا والدكتور أبو موسى مناقشا، والدكتور علي الصاوي مناقشا ثانيا، وحينما تكلم الشيخ أبو موسى التفت إلى الدكتور محمود وقال له: يا محمود أنا أعلم حينما أتكلم أنك ستعترض على أكثر من ثلثي كلامي، ولكن اتركني للباحث.. وهنا نجد أن الشيخ أبو موسى كان يقدر عقلية الدكتور محمود توفيق رحمه الله تقديرًا كبيرًا جدا، وكان يحترمه احترامًا كبيرًا جدًا، وكان الشيخ محمود توفيق من طلاب العلم والباحثين، الذين يهتم بهم الشيخ أبو موسى اهتماما شديدا، رحم الله الدكتور محمود رحمة واسعة فقد ترك رجالا وترك أحرارًا وأناسًا ينشرون علمه وأدبه وخلقه النبيل وتواضعه الجم، وألسنة الخلق أقلام الحق، وما شهد أحد لأحد بخير، إلا وقد أنطقه الله بذلك فأسال الله تعالى لشيخنا الرحمة والمغفرة، وأن يجعل قبره روضه من رياض الجنة، وأن يبلغه ويقرئه عنا السلام.

رجال في رحاب الأزهر

بقلم د: محمد إبراهيم شادي

تحقق هذا العنوان في حياتي بعد معرفتي بأخي محمود توفيق سعد، تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه، التقيت به أول مرة في جامعة أم القرى، في مكة المكرمة، تزاملنا فيها عشر سنوات كاملة، كان فيها نعم الأخ والصديق الوفي والناصح المؤتمن، كنت أطلعه على جوانب من حياتي الخاصة باطمئنان شديد، وكنت أستشيره في بعض الأمور فأسمع منه الرأي السديد والنصح المفيد، حتى الموضوعات العلمية التي كنت أنوي الكتابة فيها كنت استضئ برأيه وآنس بمشورته ثقة في عقله وأمانته، فأسمع ما يسدد و يهذب وقد غمرتنا روحانية المكان بجوار بيت الله الحرام الذي كنا نستمد منه البركة والأنس، ونلوذ به وبالطواف والسعي وطول النظر إلى الحبيبة الكعبة فيزول ما علق بالنفوس من ملمات الحياة ومشقات العمل.

وكان بيننا من التوافق والتآلف والتلازم ما غبطنا عليه الزملاء السعوديون حتى سألني أحدهم - وكانت بيني وبينه مودة. قال: ما سر ذلك التوافق العجيب بينك وبين الدكتور محمود توفيق؟ قلت: القلوب جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، قال: صحيح وأقول لك أكثر من هذا: كل منكما مفرط في الاعتزاز بنفسه عن حق، وفي كل منكما تواضع ممزوج

باحترام النفس، وكل منكما يحترم عقله ويتجنب الهزل والثرثرة المعتادة من الأخوة.. ثم خفض صوته وقال فيما يشبه الأسرار: وهذا ما جعل عميد الكلية أ.د صالح الزهراني يصدر أمراً تنفيذيا بنقلكما من قسم البلاغة والنقد إلى قسم الدراسات العليا، ومن هذا الوقت زاد التواصل والتلازم في المجيء وفي الذهاب، والجلوس سويا على المائدة ذات الشكل البيضاوي التي يلتف حولها أعضاء قسم الدراسات العليا عند الاجتماعات الدورية كل أسبوع ، لمناقشة أمور القسم وقراراته، ومناقشة خطط رسائل الماجستير والدكتوراه ، فكان أخي محمود توفيق يغلب صمته كلامه، وإذا تكلم أنصت له الجميع في إكبار وتقدير وتوقير، وسلموا له بالحكمة وفصل الخطاب. وكان يحسن الإصغاء عند الحوارات الساخنة بين الأعضاء، وقد تكون له بعض التحفظات والملحوظات، لكنه كان يؤثر الصمت، حتى إذا ذهبنا بعيدا عن المجلس همس لي بتحفظاته وملحوظاته كان وراء صمته حكمة، فأنت سالم ما سكت، فإذا تكلمت فلك أو عليك. ولا سيما في المسائل الجدلية، والأمور الخلافية.

وكان يملك فطنة وذكاء وقادا، فقد كنا ذات مرة في القسم مع بعض الزملاء نتجاذب أطراف الحديث، فذكرت بمناسبة تشديد بعض الناس على أنفسهم، أن رجلا يملك لحية عظيمة كثيفة راح يشكو لأحد الفقهاء من كثافة لحيته، وأن الماء لا ينفذ في لحيته، فقال له الفقيه: خلّلها بالماء بأصابعك، فقال الرجل: أخلّلها بالفعل، ولكن الماء لا يصل إلى منابت الشعر فقال الفقيه له: انقعها. وانتهت الحكاية، فقال أحد الأساتذة الزملاء، وكان نجما لامعا، ورب منتديات وندوات وحفلات، قال: كيف ينقعها؟ فابتسم أخي محمد توفيق

ابتسامة ذات مغزى وقال: إنما قصد الفقيه السخرية من تعنت هذا الرجل وتشدده.

كان أخي محمود توفيق متميزا بالعمق العلمي، والرصانة في صياغة الأفكار، بحيث لا يستطيع أن يتابع فكره من يقرأ له وهو مضطجع، بل لا بد لمن يريد أن يفيد منه ويتابع عصارة عقله من أن يكون في أقصى درجات اليقظة الذهنية، ولعل هذا كان من أثر منهجه الأصولي في تناول الفكر البلاغي، وقد يظن البعض أن هذا النهج يحكِّم العقل والمنطق على حساب الذوق الذي يتطلب قدرا من الحرية والانطلاق، ولا يحب القيود التي تحد من حريته عند الإحساس بالجمال أو القبح. لكن الحقيقة أن الشيخ توفيق ربط – من خلال كلام الأصوليين في آيات الأحكام – بين الخصوصيات البلاغية والأحكام الفقهية، وفي الخصوصيات البلاغية كان تركيزه على النظم بالمفهوم العام وهو هيئة المعنى وقالبه وأسلوبه ، وكل صور المعاني ، وظهر هذا واضحا في كتابه "دلالات الألفاظ على المعاني» وكان هدفه بالدرجة الأولى أن يكون فهم القرآن والسنة وتذوقها منضبطا بالأصول التي رسمها علماء أصول الفقه، وذلك خشية الانفلات في الفهم والتذوق على طريقة الفرق المذهبية وأصحاب الأهواء، وظهر هذا جليا في كتابه "طرق استنباط المعاني من القرآن والسنة" وهو الكتاب الذي أهداني إياه الشيخ ونحن سويا في جامعة أم القرى ولا شك أن ذاك النهج هو الأليق في التذوق المنضبط لمعاني البيان القرآني والبيان النبوي، لكنه لا يحسن تطبيقه على الشعر الذي لا يمكن استطعامه إلا بالتذوق الحر وبواسطة الذوق المثقف المدرب، وهو الذوق الذي لا يمكن أن يتفق عليه كل الناس مهما كان

مثقفا بأصول أدبية وبلاغية؛ لامتزاج الذاتية فيه بالموضوعية. ومع هذا فإن تذوق النص القرآني قد يتمرد على قيود الأصوليين، مكتفيا بانطلاقه من الدلالة اللغوية للألفاظ والدلالة السياقية بجناحيها المقامي والمقالي.

وأعود إلى صحبتي المباركة مع أخي وشيخي محمود توفيق في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، فقد أنهى الشيخ تعاقده مع هذه الجامعة قبلي بثلاث سنوات شعرت فيها بالوحدة والغربة كلما استعادت الذاكرة تلك الصحبة النقية، وكان يخفف من ذلك الإحساس التواصل معه بالهاتف من وقت لآخر، وكان الأخوة السعوديون الذين يعرفون أقدار العلماء يسألونني بين وقت وآخر عن الشيخ وعن أحواله ، ويثنون عليه بما يستحقه ، وقد أسعدهم انضمامه إلى هيئة كبار العلماء ، فكانوا يهنئونني لعلمهم بسعادتي وبهجتي بهذا الاختيار الذي كان شيخي توفيق جديرا به.. وبعد عودتي من جامعة أم القرى وعودتي إلى جامعة الأزهر التقيت به عدة مرات في القاهرة، وكان التواصل هاتفيا بينا لا ينقطع، وكان أكثر حوارنا علمياً وما أنجزه أحدنا من بحوث، وما يفكر في إنجازه، وقد أشار على أكثر من مرة أن أكتب في البيان النبوي، وصادف هذا تفكيري في هذا الأمر سوى أني كنت أؤجل حتى أنتهى من بحوث أخرى، وحتى أستقر على الزاوية البحثية التي تحتاج إلى خدمة وبحث وطول نظر، وكانت سيرة شيخنا محمد أبو موسى حاضرة دائما عند تواصلنا ابتداء بالسؤال عنه وانتهاء بالدعاء له.

وفي الفترة الأخيرة اتصلت بأخي محمود مرات متقاربة فكان هاتفه مغلقا، وساورني القلق عليه؛ لِما كنت أعلمه عنه من ظروف صحية غير مستقرة،

حتى بلغني نبأ وفاته في يوم الخميس الموافق ٢٩ من شعبان ١٤٤٦ الموافق ٢٧ / ٢ / ٢٠٢٥ م. وقد وقعت في حالة غريبة من الصدمة والذهول، والميل لعدم التصديق، فاتصلت بمن نشر ذلك النعي، وهو واحد من طلابنا فأكد لي الخبر مصحوبا بنعي هيئة كبار العلماء للشيخ. وكان أول من جرى بخاطري لأتصل به وأعزيه هو شيخي أبو موسى، لكني أشفقت عليه من إثارة الحزن لديه؛ لما أعلمه من مكانة أخي محمود توفيق عنده، فانتظرتُ يومين اثنين، ثم اتصلت بشيخي لأعزيه، فكان هو الذي عزاني، عندما قلت له: إن المصاب جلل ولا أدري ما أقول لك شيخي، فقال: قل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا كان الناس يقولون في المثل الدارج "من أنجب لا يموت" يقصدون من أنجب أولادا يحملون اسمه، فيمتد ذكره، فإني قياسا على هذا أقول: ومن باب أولى فإن من أنجب علما كعلم الشيخ محمود توفيق فإنه لم يمت، وستظل سيريه العطرة حاضرة في مجالس العلم على ألسنة المنصفين والأوفياء من طلاب العلم وأساتذته.. رحم الله الشيخ الجليل محمود توفيق وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة.

شيخي كما عرفتُه

بقلم د: صبحي إبراهيم المليجي

شعرت بأن ظهري قد خلا، ولم يعد يستند إلى شيء، بعد أن كان يأوي إلى ركن شديد، مرتين في حياتي، أولاهما- عندما فقدت والدي رحمه الله تعالى، وأجزل له المثوبة والعطاء، وأنا في السادسة والثلاثين، والأخرى- عندما فقدنا فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد، عليه من الله تعالى شآبيبُ الرحمة وواسعُ المغفرة.، وأنا في السادسة والخمسين، وقد تعمَّدت ذكر عمري في المرتين، لأدلل على جميل فضل الرجلين، وسعة عطائهما، ومدى حاجتي إليهما، فالأول أعطاني من كده وكدحه حبا ورعاية ومالا...، والثاني أعطاني من كده وكدحه رفقا وعلما ومنهجا.

وقد حاولت ذات مرة تقبيل يد شيخي المحمود جريا على عادة طلاب العلم فأبى بشدة، ثم قال: إن الأولى بتقبيل اليد هم الآباء لما يبذلون من مال، أما العلماء فإن كان ولا بد فهم أولى بتقبيل الراس لما يبذلون من علم .كلاهما يبذل، ومصدر البذل عند الأول غيره عند الثاني، فقبِّل يدَ الأول، وإذا أردت فقبِّل رأسَ الثاني.. لم أحظ بشرف الاستماع إلى شيخي والتعلّم منه في المرحلة الجامعية، حيث كان رحمه الله معارا إلى السعودية، ومن ثم كنت جاهلا باسمه وعلمه، إلى أن التحقت بالدراسات العليا بقسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالقاهرة، وجلست مع الجالسين إلى شيخ البلاغيين- أطال الله عمره- فضيلة العلامة د.

محمد أبي موسى، وكان من عادته أن يطلب منا تدوينَ ما ليس موجودا في الكتب مما لا بد من تدوينه، وإذا به يقول: اكتبوا عني هذه العبارة: (خذوا العلم عن هؤلاء- ويقصد بذلك علم البلاغة وما يتصل به- وذكر عددا من الأساتذة الأماجد، كان على رأسهم: أ.د/ محمود توفيق سعد، في كلية اللغة العربية بالمنوفية، وهنا انتابتني الدهشة، إذ كنت خريجَ هذه الكلية، ومع ذلك لم أقابله، ولم أسمع عنه!! ولكني تابعت حديث أبي موسى، فإذا به يقول: لقد ناقشتُه فقط، وأعدُّه أستاذي، مما حفزني إلى الهرولة إلى كلية اللغة العربية بالمنوفية لأتشرف بلقائه، فانتظرت في إحدى طرقاتها عساه يمرُّ من أمامي، وعند مروره استوقفته فأقبل عليَّ، وتحدث إلي غير ممتعض ولا سائل عمَّن وجهني إليه، ولا قائل: إنَّ وراءه شيئا خرج لأجله- كما هو واضح- بل أخذ يحدثني ويوضح لي كأنني أحد الطلاب الذين يعرفهم، وبينه وبينهم صلة قوية، وحوارات سابقة، وكان من عادته إذا حدث أحدا أن يُغمض عينيه، أو يتسارع طرفُها بطريقة لا تحدث من غيره، وكأنه يعيش معاني الكلمات التي تخرج من فيه، ويتذوق أثرها، أو لما يمتاز به من أدب وحياء، يمنعانه من التحديق، أو لسر آخر.. الله أعلم به، ومن ثمّ فإن كلماته- على قلتها- كانت قوانينَ ونظرياتٍ وحِكَمًا يأخذها عنه المتلقون، وتنزل من كل واحد فيهم منزلتها النافعة بأمر الله، وإذا سألت أحدهم قال: د. محمود قال لي كذا ....

ثم قدَّر اللهُ لي أن أُعين معيدًا في كلية اللغة العربية بالمنوفية، فعايشت شيخي عن قرب، واختلطت به اختلاط الابن بأبيه، والطالب بشيخه، فكان رحمه الله ذا تأثير كبير في القسم وفي الكلية، يهرع إليه الطلاب، والهيئة المعاونة في مختلف الأقسام، ويحرص أساتذة القسم على استشارته في المسائل العلمية، ويقدر رأيه

ويحترمه الآخرون داخل الكلية وخارجها، حضرت ذات مرة اجتماعا كان على رأسه العالم الفذ د. فتحي أبو عيسى.. عميد الكلية، والعلامة د. محمد أبو موسى، وفي كلمته أظهر عميد الكلية احترامه الشديد وتقديره الكبير للدكتور محمود توفيق، وقال: إنه خرج من عباءة قسم البلاغة والنقد، عندما كان الدكتور: أبو موسى مشرفا عليه في بداية الكلية ومهدها، ثم أحيلت الكلمة إلى الدكتور أبي موسى، فقال معقبا: الدكتور محمود توفيق لم يخرج من عباءة القسم، الدكتور محمود توفيق كان قسما مستقلا، ونسيجا منفردا.

لا أدري لماذا أشعر بأن الرجل ما زال حيًّا، كلما استمعت إلى معقد من معاقد كلامه، ودرة من درره التي تُعنى بنشرها في الناس منصةُ فصيح؟ ولا أفهم لماذا يهتف بي هاتفٌ أنني إذا اتصلت به سأسمع صوته يحادثني كما جرت العادة بيننا؟ وأزعم أن هذا الشعور لا يخالجني وحدي، بل يشاركني فيه- كما هو واضح مما كُتب عن شيخي- طيب الله ثراه- كثيرٌ من طلاب العلم وأهله، وهذا في ظني لا يناقض إيماننا بقضاء الله تعالى وقدره، ولا يغير الحقيقة التي نعلمها بأن الرجل قد فارقنا إلى جوار ربه، ولكن انتقاله إلى الرفيق الأعلى بغتة كان صدمة كبيرة تركت ظلالها على طلابه ومحبيه، تماما كما فعلت بأبنائه وأهل بيته، وأسأل الله تعالى أن يكون منعَّما في قبره، مرفوع الدرجة عند ربه.

منهج الشيخ في التعامل مع طلاب العلم: بعد أن اختلطتُ بشيخي اختلاطَ الولد بوالده والتلميذ الراغبِ في التعلم بشيخه، بدت لي بعضُ ملامح شخصيته في التعامل مع مَنْ حوله من الطلاب والباحثين والزملاء والعلماء..

حيث كان رحمه الله تعالى يرى أن العلاقة بين الطالب وأستاذه يجب أن تقوم على أساسين لا يستغني أحدُهما عن الآخر، ولا يُكتفى بأولهما عن الثاني، أحدهما: الرحمة، التي هي ثمرة من ثمار العلم وضرورة من ضروراته، وهي التي تدفع الأستاذ لأن يُعنى بطلابِه، ويجتهد في إيصال فكره إليهم، ولا يبخل عليهم بشيء مما أنعم الله تعالى به عليه، يقيل عثراتهم، ويأخذ بأيديهم ليحققوا ما لم يستطع تحقيقه، ويكملوا ما عجز عن القيام به، مهما كلفه ذلك من وقت وجهد.

يحكي الأستاذ الدكتور/ عبد الحافظ البقري أنه كان يذهب إلى كلية الدراسات العليا بالقاهرة، فيرى شيخي الدكتور/ محمود توفيق سعد- عضو هيئة كبار العلماء- يجلس على حصيرٍ ملتصقٍ بالأرض، من أجل طالب التبست عليه مسألةٌ علمية، أو أشكل عليه أمر من الأمور، وهو يحاول جاهدا أن يبسطها له، ولا يبالي بالوقت الذي يمكث فيه مع الطالب حتى ينصرف فاهما مرضيا.. هذه الرحمة كانت تدفع شيخي لأن يَعُدَّ هؤلاء الطلاب كأنهم أبناؤه، ويسعي في قضاء حوائجهم حتى ولو لم يكن مشرفا عليهم، وكانت رحمته- رضي الله عنه- لا تقتصر على رعايتهم علميا، بل كانت تتسع لتشمل رعايتهم ماليا واجتماعيا، وفي هذا السياق أذكر موقفين حصلا منه معي:

الأول- في عام ٢٠٠٤م عندما كنت أتهيأ لمناقشة رسالة الدكتوراه التي كان من حظي الطيب أن يُسند إلى فضيلته الإشراف عليها، وكنت في ذلك الوقت مشتت الذهن حائر التفكير في تكاليف الطباعة ومراسم يوم المناقشة، ولم أشأ أن أفاتح في ذلك أحدا من الأهل أو الأقارب، حتى إن زوجي لم تكن على علم به،

وكانت التكاليف تربو على الألف جنيه، وهو في ذلك الوقت مبلغ كبير، وقد أنعم الله تعالى علي بتلك الكلفة كاملة من طريقين: أولهما- أبي رحمه الله تعالى وأمي أطال الله عمرها، حيث أعطياني ٦٠٠ جنيه، هي ثمن محصول القطن لذلك العام، والآخر: من طريق شيخي وأستاذي ووالدي/ محمود توفيق سعد، الذي اعطاني هو الآخر ٦٠٠ جنيه، كما أعطاني والداي تماما بتمام، وقال لي حتى يرفع الحرج عني: هذه من القسم لك!!!

الموقف الآخر- حين ألمّت بأحد أبنائي ظروف صحية، لم أجد بدا من الفضفضة إليه بها، حيث شغلته هذه الظروف إلى أن لقي ربه، فكان دائمَ السؤال عنه، دائمَ الدعاء له، دائمَ الوصية به، ولا أنسى عبارته كلما هاتفته: ما أخبار ولدك؟ وكيف حاله؟ أرجو أن تفعل له كذا وكذا..

رحمات الله تترى عليك شيخي وأستاذي وأبي، وأجزل لك المثوبة والعطاء لقاء ما ساعدتنا وأعنتنا، وإلى مقال ثان بأمر الله تعالى، خشية الإطالة، وإبقاءً لذكرى شيخي رحمه الله، وتذكيرا بمآثره، وتعلُّما من محامده.

صُحبة محمودة مع عالم محمود

بقلم د: عبد الحافظ إبراهيم البقري

حظيت كلية اللغة العربية بالمنوفية بالأستاذ الدكتور- محمود توفيق محمد سعد، حيث كان في طليعة من عينوا بها معيدين منذ نشأتها، وقضى ما قدر الله له من حياته في رحاب الكلية متدرجًا فيها من مدرسٍ إلي أستاذٍ بأبحاثه التي كانت فخرًا لكل جامعيٍ أزهريٍ.

ومسيرة حياته في هذه الكلية لم تكن مجرد إلقاءٍ للمحاضرات وتأليفٍ للكتب، والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه، ولكن كان عالمًا متمكنًا محيطًا بعلوم العربية كلها، بل وما يتصل بهذه العلوم من العلوم الأخرى كأصول الفقه، والتفسير، والحديث، وكان حرصه شديدًا على أن يفيد كل من يطلب العلم، سواءٌ أكان ذلك من طلاب الكلية، أو الهيئة المعاونة، أو أعضاء هيئة التدريس، وكانت له جلسات علمية طويلة في القسم يناقش فيها الموضوعات المختلفة مع من يجلس معه.. كان رحمه الله مصدر إشعاعٍ، له آراؤه الحصيفة، وتوجيهاته النافعة لمن يجلس معه، أو يستمع إليه، وكل من عمل معه بالقسم سعد به أستاذًا وعالمًا وموجهًا، فقد كان واسع الأفق ذا عقلٍ بلاغي ليس له نظير.

كان ـ رحمه الله ـ محيطًا بالتراث البلاغي إحاطة تامة، وله في فهمه عمقٌ واتساعٌ، ومن يقرأ له أبحاثه يشهد له بذلك، وبسماته البارزة في نتاجه وسلوكه، فقد كان عالمًا ربانيًا ورعًا، أما ربانيته فرضا الله مبتغاه ومقصده، هكذا كان سلوكه مرتبطًا بغايته في رضا الله تعالى، وأما ورعه فقد اجتهد أن يكون رزقه من الحلال الطيب الذي يبذل فيه الجهد والعرق.. ولقد حدث أن قررت الجامعة صرف أجور للساعات الزائدة عن النصاب المقرر للمحاضرات، وكانت هذه الساعات تعتمد من رئيس القسم، وقد أعدت جميع الأقسام أوراقها، ووقع عليها رؤساء الأقسام في الكلية، وبقي قسم البلاغة لم توقع أوراقه؛ لأن رئيس القسم الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق ـ رحمه الله ـ لم يوقع عليها، وطلبت منه العمادة التوقيع، لكنه أصر على أن لا يوقع على تلك الساعات الزائدة، وظل أمرها موقوفًا لمدة شهور لموقف الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق من هذا الشأن، حتى اضطر رؤساء الأقسام أن يشرحوا له ذلك، وأن الجامعة فعلت ذلك لرفع الرواتب المعيشية، وأنك بهذا تبطل ما سعت إليه الجامعة، فاضطر إلي التوقيع، وإن كان لذلك كارهًا.

إن الرجل كان صورة عملية للعالم الرباني الذي يحدد حركاته ـ دائمًا ـ ابتغاء رضا الله، كما كان ورعًا إلي درجة شديدة لا يقبل معها أبدًا أن يصل إلي مصادر رزقه ما فيه شبهة، بله ما كان حرامًا..لقد أفاد منه أساتذة القسم أكثر مما أفاد منه الطلاب، ولا أبالغ في ذلك، بل أقولها لله ـ تعالى ـ، فقد عرفنا الكنوز الدفينة عن هذا التراث من الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق ـ رحمه الله ـ، وكم كان يسعده أن يطلب منه أي أستاذٍ هذه الكنوز من الكتب، وقد طلبتُ منه أن يسأل

لي عن كنز من هذه الكنوز، فسأل عنه، وأتي به من القاهرة إلى المنوفية على عاتقه، وهو في غاية السعادة؛ لأنه يريد النفع للجميع، ونشر العلم للجميع، جزاه الله خيرًا عن كل ما بذل من جهدٍ في خدمة العلم والدين.. وبكونه كان قدوة، ونموذجًا عمليًا للعالم الرباني الورع لم يكن لنفسه أبدًا حظ مما وصل إليه من علم ومكانة أدبية من حظوظ النفس، وما يلهث إليه الناس من شهرةٍ تقوم على ثناء الناس أو رضاهم، لقد كانت حياته كلها لله، وللدين، وللعلوم الإسلامية والعربية، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكيه على الله .

إن كلية اللغة العربية بالمنوفية بقدر ما سعدت بها العالم الجليل، ونعم الأساتذة به على ما يزيد على ربع قرنٍ من الزمان، وكان كل منهم يتحين اللقاء به؛ لينعم بالجديد من الأفكار التي يتوصل إليها دائمًا ذلك الأستاذ بقدر ما تأسى على فقده، وكلنا أمل بأن الله ـ تعالى ـ سيجزيه عن ذلك خير الجزاء، ونحسب أنه ـ بإذن الله ـ في جنة الخلد مع العلماء الربانيين، وسائر الشهداء والمجاهدين، والله ـ تعالى ـ أعلم به منا.

نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يأجرنا فيه، وأن يعوضنا عنه خيرًا، وصلى الله علي سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

نسيج وحده

بقلم د: رفعت علي السيد

يا لقسوة الموت حين يفجعنا بالأحبة، ويا لعجائبه حين ينتقي منا الجياد. لقد فجعنا اليوم بنبأ وفاة شيخنا العلامة محمود توفيق أبرز علماء الأزهر الشريف، وعضو هيئة كبار العلماء به.

كان الراحل الكريم نسيج وحده علما وفضلا، وإنك لتشعر أن للرجل ثغرا حُمّل حراسته فقام به وله قياما حسنا، بلا كلل ولا ملل، ولا صخب ولا جلب، بل كان يغلب صمتُه منطقَه، وهمسُه جهرَه، ولحظُه لفظَه، وعقلُه لسانه، وقلبُه جوارحَه بلا تعلل ولا التفات. وذاك همك من عالم!! وتلك همك من همة.

كان للراحل الكريم مصنفات، لكنها لم تكن كغيرها مما حبّر المداد وسُوِّدت به الصفحات دون دفع لمسارات العلم والثقافة، أو أثر بائن على القارئ والمتلقي.. ما إن تطالع كتابا للشيخ إلا وتجد بصمته ونقشه، فلم تكن مكتوباته من تلك التي تُقرأ - تسلية أو قضاء للوقت - بل إن القارئ لا بد أن يحتشد لها استجماع نفس، وفراغ بال، وحضور ذهن، وصفاء نفس، لعله أن يفتح له بعد ذلك باب الفهم والإفهام. ذاك أن الشيخ لم يكن يغمس قلمه في مداد، بل كان يغمسه في محبرة مدادها من رشح فؤاده، وعصارة فكره، وذوب نفسه، فإذا بالبيان قد برز وعليه أسلوبه الذي لا يخطئه بصر، ولا يلتبس مع سواه عند من له أدنى

بصيرة.. ولعل عدم ذيوع مؤلفات الشيخ راجع لشيء من هذا، فقد كانت كتبه تعوز إلى عقول قادرة على هضم الصخور الصم في زمن اعتدنا فيه على العجلة والاستهانة، وأحكمته مقولة: لِمَ تقول ما لا يفهم؟ بدلا من مقولة: ولِمَ لا تفهم ما يقال؟

وقد تجد لشيخنا عبارات مصكوكة خاصة به ما سمعناها من سواه، وهي مطربة معجبة، شائقة خالبة. ولقد سمعت من شيخه وشيخ شيوخنا أبي موسى قديما أنه قال عن تلميذه الأثير: قرأت له كذا من الصفحات فكَلَّ عقلي أن يتابعه، فلله دَرُّ المدرسة الأزهرية شيخا وتلميذا!!

كان شيخنا الراحل - مع علمه وفضله - شديد التواضع، عظيم الخفاء، خفيض الجناح، وإنك لتعجب لذلك مع سطوة قلمه، ونفوذ كلامه، وسَوْرة بيانه، وسبحان من جمع النقيضين في نفس. ويالله تلك النفس التي كانت محلا لذاك الفيض الربانيّ.. لقد شاركت شيخنا في مناقشات علمية بجامعة الأزهر بالقاهرة فكان أحيانا يتوجه إلينا بالسؤال - وهو العليم به - خفاء لنفسه، وتشجيعا لطلابه، وقد استجاب لطلبي مشاركته العيد الذهبي لكلية اللغة العربية بأسيوط- حين بُليت بمسئوليتها - ببحث يكتب بماء العيون (الأمن اللغوي مسئولية من ؟) وكل مكتوبه كذلك!! وقد صدّرنا به العدد الذي خصصناه لهذه المناسبة.

وفي مرة خرجت لصلاة الظهر في إحدى غرف الكلية بعد استراحة من المناقشة، فلما رآني اتبعني قاصدا، وصلى خلفي دون تنبه مني، فلما سلمت هالني

أن أكون إماما لشيخ الشيوخ، وأنا الذي أتحرج أن أصلي بنفسي، فقلت له مداعبا: ينبغي أن تعيد الصلاة وجوبا شيخنا!! قال: لِمَ؟ قلت له: على مذهب بلدياتنا في أقاصي الصعيد فقد حكى لي أحد شيوخنا - حفظه الله - أنه وجد شابا من العوام يريد أن يصلي، فقال له: أصلي معك، فلما أن أراد أن يقدم الشيخ، قال له: لا يصح على المذهب المالكي لأنني صليت، وصلاتي معك نافلة وصلاتك فريضة، وبينا يصلي الشاب بالشيخ دخل والد الشاب، فلما رآهما أخذ يفرك عينيه غير مصدق، فلما فرغا من الصلاة، قال الوالد في دهشة، هل ما أرى صحيح؟ فشرح الشيخ للوالد المسألة قائلا: لو صليت أنا بابنك تكون الصلاة باطلة، فقال الوالد في براءة النفوس الصافية وفطرتهم السوية: (وانت عايز تفهمني إن الصلا كدة مش باطلة!!). ذاك ما كان من عوامنا، فطرة سوية لم تلوث، وأدب مع علمائنا وتذلل.

لقد أرسل إلى رسالة منذ أيام عندما علم بشرحي لدلائل الإعجاز في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد قائلا: أعانك الله تعالى، وسدّد عملك، ورزقك الإخلاص وحسن الفهم عنه تعالى، وحسن الإفهام للآخرين: أرجو أن تسجّل هذه المحاضرات صوتا وصورة وتنشر في مواقع التواصل الاجتماعي أيها الشيخ الجليل، محبك في الله، محمود توفيق.. يا الله على تلك النفس الصافية، ويا لله على تلك الروح الراقية، وقد شاهدناه مرارا يجلس تلميذا في درس شيخه ممسكا بالقلم والأوراق مدونا ما في الدرس من لطائف وفوائد، وما سمعناه - تكلم يوما - في حضرة شيخه فكان إذا ازدحم الطلاب بعد درس الشيخ سائلين سار معهم الشيخ حتى وداع شيخه صامتا وكأنه في صلاة أو في مجلس ذكر، وكان

يقول لنا: برُّك لشيخك أن تحسن التلقي عنه وأن تستثمر ما تلقيت عنه وأن تنشره بين الناس وأن تدعو له، وكل ما سوى ذلك مسالك لا علاقة لها بالعلم.

أما عن كرم شيخنا فحدّث، إذ كانت محادثة الركبان تخبرني، حتى بلوت ذلك بنفسي حين زرته في بيته مرات مع شيخيّ الجليلين حفظهما الله، أ. د. محمود مخلوف، أ. د. على عيسى.. فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأي بصري، مما لا يصدر مثله إلا من فطر على سخاء حاتميّ، وخلق نبوي.

لقد بات واجبا علينا وقد رحل الشيخ أن نكتب كتابا عن ذاك الشيخ الجليل إبرازا لعلمه، ونشرا لأثره، ورفعا لذكره، وبرّا لفضله، فذاك بعض حقه علينا...

صاحب حال مع الله

بقلم د: محمد سعد قاسم

كانت بداية معرفتي بالراحل الكريم الدكتور محمود توفيق سعد عن طريق تلميذه الدكتور سعيد جمعة والذي كان دائما ما يحدثني عنه وإنه له حال خاص يختلف عن كثير من الأساتذة والعلماء، كان هذا الحديث المثير والشيق من التلميذ عن أستاذه قد دفعني أن أرى هذا الشيخ وأتعرف عليه، وهو ما عزمت عليه فذهبت إلى كلية اللغة العربية وفي جلسة سينمار قلت لأخي سعيد أريد أن أحضر وأستمع، وبالفعل حضرت وكانت لدي فكرة معينة تتعلق بالحديث النبوي، وكان وقتها يجلس جمع كبير من العلماء، فقلت لهم: في ذهني فكرة أريد تصوركم فيها، فقالوا: تفضل، فقلت لهم: إذا كان كلام الله عز وجل معجز يتحدى به، فإني أرى أن كلام النبي معجز أيضا.! ومن المجمع عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ العرب

فهل هذا التعبير صوابا؟

كان من سمت الدكتور رحمة الله عليه أنه يتأنى ولا يتعجل ولا يتسرع ولا يبادر بالجواب ولو كنا في محفل ألحظ عليه أنه يريد أن يسمع، ولما طرحت هذا السؤال انكره الجميع وبعضهم اقترح لفظا أخر غير كلمة تعبير معجز، وكان هدفي من كل هذا أن أسمع كلام الدكتور محمود توفيق، فلما جاء دوره للحديث

قال لي: أنا أوافقك تماما، ووقتها قال جملة مازلت أدرسها إلى هذه اللحظة لطلابي، وأذكرها في بدء أي عام دراسي للطلاب الجدد وهي أن هناك مبادئ وأصول خمسة على أي طالب علم أن يحفظها وعلى وجه الخصوص طالب العلم الشرعي وعلى وجه أخذ طالب الحديث ، وكان من هذه القواعد الخمسة جملة قالها الدكتور محمود وهي: أنا أوافقك لأن البيان على قدر المُبين، فإذا كان كلام الله على قدره والله تعالى ليس كمثله شيء، فإن بيان الله ليس كمثله بيان، والنبي صلى الله عليه وسلم له قدر، لا اله إلا الله بعدها مباشرة محمد رسول الله، إذن كما أن النبي هو الخاتم فبيانه على قدره ولا يوجد في بقية الخلق إنس ولا جن على قدر النبي صلى الله عليه وسلم، إذن فبيانه أيضا معجز لأنه ليس كمثله بيان، فوضع لي هذه القاعدة، وهو ما أقرره على طلابي في تدريسي لهم، ومنذ هذه اللحظة بدأ يسأل عني كما أسأل عنه، فسأل الدكتور سعيد وربما انه اشتم في رائحة كلامك أن لك شيء ما من التدبر في الكلام، وبعد ذلك توالت اللقاءات وأقرأ له وأتابعه، وحرصي الكبير كان على الجلوس معه، وأرى ردوده وقد كان مدرسة وحده، حيث كان يعطي لمن يجلس معه الصمت والانصات وكأنه يعلمك أن يلهمك الأفكار.. فقد تجلس معه وتتفرس في وجهه وتجد خاطرة فلا تدري هل هي رزق لأنك معه أم أنها مدد إلي يلمسه كل من جلس إليه، حتى أن أحدهم أقر لي بهذا فقال لي صدقت ووالله كنت أجلس معه فيقول كلمة واحدة فكأنه فتح ذهني لأفاق البحث والمعرفة وأمور لم تكن في خاطري.

ومما ما أذكره من المواقف التي رواها لي، الدكتور محمود أنه دعي مرة ليناقش رسالة في جامعة بالصعيد، ولما دلف إلى المنصة شعر وتبين له إصرار

المناقش الآخر على تضييع الباحث وإفشال رسالته وكان هذا المناقش صاحب سلطة ومنصب بالجامعة، وخضع له المشرف على الرسالة تزلفا له وخشية منه.

وقام المناقش بنقد الرسالة نقدا عنيفا وبيان قصورها وضعفها وهناتها، ووافقه المشرف، فلما جاء دور الدكتور محمود للمناقشة، قال انتصرت للطالب المسكين ممن ارادوا ذبحه والقضاء عليه، فعزمت على تفنيد والرد كل جزئية قالها المناقش ووا فقه عليها المشرف وبينت عوارها، فأرادوا أن يقاطعوني فقلت لهم: لو سمحتم حينما أنتهي ثم لما انتهيت أخذت أبرز كل ميزات الرسالة بما لم يتخيله أو يدركه الباحث نفسه او يأت في باله، فانقلبت القاعة وانكشف أمرهم أمام الناس.

ولما انتهت المناقشة وجاءت المداولة وجدت إصرارا من المناقشين على بخس الباحث حقه وإسقاطه تمسكت بموقف وقلت لهما: لن يحدث ولن يكون ابدا ما تريدان وإلا فاعتبراني منسحبا وسأخرج وأعلن الأمر للعلن ولن اسكت وستكون فضيحة.

خضع المناقشان للأمر أمام هذه الصلابة القوية في الحق، وأمام رجل يعشق الإنصاف والعدل ويرفض الظلم والطغيان.. ولعل هذا مما جعل الدكتور يعرض عن التعرض لمثل هذه الفتن كثيرا ويعزف عنها.

كان الدكتور محمود توفيق لو أردنا أن نصفه بكلمة مختصرة، فإني أقول: إن هذا الرجل كان من أولياء الله الأخفياء الأتقياء فهو الولي الخفي ولو كان هناك

ولي في هذا الزمان لكان هو الدكتور محمود سعد، أقول ذلك دون مبالغة، فقد شاء الله تعالى ان أعيش مع هذا الرجل مشكله خاصة به في حياته، والمشكلات تعترض كل الناس حتى لو كانوا أنبياء وأصفياء.

عايشته فيها ورأيت حجم ما وقع عليه من ظلم وايذاء وغبن، ويشهد الله أنني لم أجده فيها إلا جبلا من الثبات واليقين والاحتساب واللجوء الى الله سبحانه وتعالى، فقد كان في قمة ما لقيه من استفزاز، يشيب لهوله الولدان، ويذهب بحفيظة أولي النهي والألباب، لا يتورع إلا أن يقوم ويضع يده خلف ظهره ويروح ويجيء وهو يقول ويردد: أستغفر الله العظيم أستغفر الله العظيم.

كنت مشفقًا عليه ولكني في ذات الوقت كنت أتساءل كيف لمثله أن يتحمل كل هذا العناء الرهيب، انه لا يكون بهذا التحمل والصبر الجميل إلا رجلا متصلا بالله سبحانه.

كان رحمه الله قمة في التواضع والسماحة والتسامي، وكان يتمثل اخلاق الإسلام في كل موقف واذكر انه حينما ترقى لهيئة كبار العلماء، لم يدر في ذهني ان اكون حريصا او مسارعا الى تهنئته، ومباركته على ما ارتقاه من مكانه وموقع، وذلك ليس اهمالا مني في مجاملته، ولكن لعلمي بحقيقه شخصه ونفسه وخلقه، وان مثل هذه الأمور لا تعنيه ولا تهمه في شيء، ولو أنه تقلد اعلى من هذه الرتب، لما عناه ايضا في شيء لأنه كان يحقق معنى الزهد في كل خطواته وحركاته وكل مظاهر حياته.

بل دعني أقول وأخبر القراء أكثر من هذا، فإنني أتحدى أي أحد تعامل مع الدكتور محمود توفيق صغير كان ام كبير قويًا كان أم ضعيفاً، أتحدى أن يذكر أحد أنه حدَّ النظر في وجه متكلم معه، فقد كان دائما ينظر إلى الأرض، وإذا أراد أن يحدثك، يركز على المعلومة التي ينطق بها وعينه تكثر من الغمض والرمش اذا نظر لك، وقد حدثني بعض الثقات القريبين منه أنه كان يرى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام كل ليلة وأنا لا استبعد هذا على مثل هذا الرجل، فقد حدثني مره وقال لي بما يدلل على ذلك التقارب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لي: يا محمد هناك مخطوط أتمنى أن يظهر للنور، ولكن تاه مني وتعطلت عنه، فانظر أمره وابحث عنه واعقد عليه دراسة حديثية، وهو مخطوط عن أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وشرح لها، وذكر فيه مؤلفه المعاني الدلالية والبلاغية، وإنك إن عثرت علي هذا الكتاب وحققته سيكون شيئا جميلا.

وأنا أرى ان الاهتمام بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وما علمته من رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم كل ليلة، يثبت أنه كان صاحب حال مع الله.

كما أذكر أنني كنت أجلس معه في مكتبته كثيرا وكنت أتصفح كثيرا من كتبها ومجلداتها التي يقرأ فيها، وكنت أقلب بعض هذه المجلدات، فإذا بي أرى تعليقاته على حواشيها وهو يكتب بالقلم الرصاص يُنظر يُنظر، فقد كانت له رحمه الله منهجيه خاصه في القراءة والتأمل والفكر وما يقود الى الابداع والنظر.. إن مثل هذا الرجل كان فريدا ولا تجد كثيرا من البشر يشبهه فرحمه الله رحمة واسعة وغفر له.

المرابط على ثغور العلم

بقلم د: أحمد محمود الجبالي

إن أصعب ما يُطْلَبُ من الإنسان أن يكتب عن شيخ أثر فيه، وأستاذ تربى على يديه، فإن قلمه لن يكون ثابتا، وعقله لن يكون قادرا على أن يخط حرفا، أو ينظم جملا؛ خشية الوقوع في براثن التقصير، أو عدم إتمام الحق وإعطائه لأهله، فمن أنا حتى أتكلم عن جبل من جبال العلم، وفارس من فرسان البيان، بل مرابط على ثغور العلم؟!

إنه العالم المربي الناصح الأمين، والمربي المخلص، والمجاهد في سبيل الله بالكلمة الصادقة، والقول النافذ، فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق سعد "رحمه الله تعالى "

إذا كان لابد في حياة كل طالب من طلاب الدرس والعلم أن يوجد شخصيات تترك بصمتها في فكره وروحه، تصوغ له وعيه، وترشده إلى آفاق المعرفة بصدق وإخلاص. فإن شيخنا الدكتور محمود توفيق سعد – أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر – أحد هؤلاء الذين لم يكونوا مجرد أساتذة يؤدون واجبهم التدريسي مع الطلاب والباحثين، مع كثرة تعدادهم، واختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم، بل كان – رحمه الله - نجمًا يهدي النفوس إلى طريقها، ويرشد العقول إلى مبتغاها، ويأخذ بكلماته الموجزة، ونظراته الهادفة بتلابيب القلوب، فكان –

رحه الله – حديثه الماتع كالسراج الذي ينير السائر ويرشده إلى دروب العلم وحقول المعرفة، في صدق وإخلاص نية، وينصحه إلى صلاح الطوية.

وقد اخترت هذا العنوان" المرابط على ثغور العلم" حتى يكون عتبة لتلك الكلمات؛ لأنه طالما أوصاني مع كل لقاء يجمعني بفضيلته "رحمه الله"– حتى آخر لقاء جمعني به – في كلية العلوم الإسلامية للوافدين بجامعة الأزهر بالقاهرة إلا وقال لي: يا دكتور أحمد (تكرما وتواضعا من شيخنا) أنت على ثغر عظيم من ثغور الدين، فأوصيك وجميع زملائك أن تكونوا من المرابطين على هذا الثغر العظيم، وإياكم والتكاسل والتخاذل على أداء ما كلفتم به.

وكانت لديه – رحمه الله تعالى – نظرة خاصة في تفسير قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]

فكان يقول فضيلته – رحمه الله – إن التعبير بالنفر وهو موضوع في كتب اللغة والمعاجم العربية لمعنى الخروج للسفر بسرعة وعزيمة قوية غالبا ما يكون مصاحبا لحديث الجهاد وملاقاة الأعداء، إلا أنه سبحانه في هذه الآية استعمل (النفر) في طلب العلم، وتحصيله؛ {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا} حتى يضع في قلوبنا أهمية ما نقوم به من عمل، قد يراه بعض العاجزين عن الفهم الصحيح أنه أقل أهمية من حمل السلاح والجهاد في سبيل الله، ونسوا أو تناسوا أن سبل الجهاد والزود عن حياض الدين، وأراضي الأوطان ليس بالسلاح، أو القوة المادية فقط، بل بكل ما تحمله كلمة قوة

من معاني في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠]

ومما علمنا إياه – رحمة الله عليه – أن الجدال بالحجّة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف، وأنه يتطلب مع السلاح القاطع العلم النافع، والقول الصادق، والعقيدة الصافية عن الشوائب، ولن يكون ذلك إلا إذا أدى كل منا دوره المنوط به، والذي يسره الله له، ووضعه على ثغر من ثغور الدين الحنيف، وسوف يُسْأَلُ كل واحد عن مهمته .

كان شيخنا الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد – رحمه الله تعالى – مثالا يحتذى به للعالم الأزهري الذي علم قيمة ما أنعم الله عليه، ومقدار ما حباه الله به، فعمل على أن يجمع بين عمق العلم ورحابة التفكير، وبين الحزم في القول، والصدق في النصح. فلم تكن مجالسه العلمية التي كان يحضرها، سواء كان محاضرا، أم مشاركا فيها مقالات تلقى، أو كلمات تردد، بل كانت حدائق ذات بهجة، تتابع فيها الأفكار، وتتبارى فيها العقول، وتتسابق فيها الأقلام، وتنشر فيها الصحف صيدا لما يقوله، وقيدا لما ينعم الله عليه به من أبواب رزقه نصحا وارشادا.

وكان دائما – رحمه الله تعالى – يوصي الباحثين والمشتغلين بالدرس البلاغي بصفة خاصة ، والمشتغلين بالدرس العربي أو اللساني بصفة عامة، التحلي بصدق النية وإصلاح الطوية في التعامل مع هذا النوع من الجهاد، ودائما ما يردد

على اسماعنا في كل لقاء بيننا - حتى ولو كان على قارعة الطرق - أن الجدال بالحجّة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف، وأن سلاح العالم قلمه، كما أن سلاح المجاهد سيفه ورمحه، وكان رحمه الله دائما ما يغرس فينا قضية حب العلم، والحرص على تحصيله، تطبيقا لمقولته التي كان يرددها كثيرا أن العلم إن لم يزد نقص ولا ثالث لهما، تطبيقا للمنطوق والمفهوم من قول الله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه:١١٤].

وما أستطيع أن أقوله في حق أستاذنا -المغفور له بإذن الله تعالى- أن فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد لم يكن أستاذا معلما لقواعد العلم، ومطبقا شواهده ومثله على تلك القاعدة قصدا لفهم طلابه فحسب، وإنما كان مجاهدا أو كالقائد يعلم طلابه طريق الجهاد في سبيل الله بالكلمة الحق، والمحافظة على مكتسبات ما تعلموه، بالرباط على ثغور العلم والمعرفة حتى لا يؤتى الإسلام من ناحيته وأعظم تلك الثغور هو تربية الأبناء على حب العلم، والعمل به حسبة لله، وقربة له، وطلبا لمغفرته ورضوانه...هكذا دائما كان يعلمنا أستاذنا – رحمه الله تعالى - منذ أن عرفناه، ويوصينا بتلك الوصية منذ أن تعلمنا على يديه طلابا وباحثين في حقل اللغة العربية بصفة عامة، وحقل البلاغة العربية والنقد الأدبي بصفة خاصة.. وأحسب أن شيخنا العلامة الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق سعد "رحمه الله" ممن عناهم الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] على قول من فسر قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} [العنكبوت: ٦٩]، يَعْنِي: عَمِلُوا لَنَا، وأحسب أن أستاذنا رحمه الله

تعالى من هؤلاء الذين عناهم الإخبار بأن عناية الله وهدايته مع أهل الجهاد والإحسان

ومع رحيله – رحمات الله تتنزل عليه تترى- ما زالت وصاياه سارية، ونصائحه باقيه، وتوجيهاته ترشدنا إلى سبل الحق، ودروب المعرفة، فكان – رحمه الله بحق- أبا حانيا، ومعلما فاضلا، حسنت سيرته، وطابت سريرته، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله، فلست بالقاطع عنق حبه وأستاذه، (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) رحم الله أستاذنا رحمة واسعة، واسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وسقاه من حوض نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – شربة هنيئة لا يظمأ بعدها أبدا؛ جزاء وفاقا لما قدمه للعلم وطلابه في كل مكان وطأة فيها قدمه، أو وصل إليه علمه، آمين يا رب العالمين.

الطالع الميمون بتعريف ا لمحمود

بقلم د: شيماء عبد الرحيم توفيق

غابت شمس بأنوارها كانت تفجر ينابيع الهدى والكلمة النور، غاب إنسان نجمي حمل مع الدقة في العلم الإيمان مصبوغا بطبيعته النورانية التي أنشأت علم البلاغة العربي الإيماني النوراني ذلكم الثبت الخِنذيذ المغفور له سعادة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء الأسبق، والأستاذ المتفرغ في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة سابقا- جامعة الأزهر- رحمه الله تعالى ورضي عنه-، لا تسعف الكلمات أن ترثي أبا بعد أب، وعالما ربانيا أشرق على طلاب العلم، يقودهم في فلكه الأخلاقي، ويجذبهم إلى الكمال إيمانا وخلقا وهديا، تربية وعلما .

الصمت شيمته، والوقار مسحته، غضيض الطرف، خفيض الصوت، ثابت الجنان، تتبرج مخارج أصواته كاشفة عن أداء صوتي منتظم، ونفس مطمئنة قارّة، ونبرة مفعمة بالتواضع المكين، والرحمة الحانية، والعلم الغزير الماتع، وكان من عادته أن يسكّن الاسم الثلاثي آداء صوتيا فريدا يستسيغه سامعه، ويستعذبه جليسه، حتى يحسبه غير متقن اللغة أنه ليس مصريا.

تصدت له الدنيا فرغب عنها، وتكشفت له فأبى، حفظ على نفسه دينه، وطلق دنياه، فلم يطلب ما عند الله - تعالى- من غير الله، وكانت هذه وصاته لنا

دائما، وكان يعلمنا الزهد، فيذكر أن حذاءه يمكث معه خمس سنين لا يغيره، ويقول إن السيارات الفارهة تربي العُجب والغرور في نفس راكبها، وهذا قد يُظَن به البخل ولكنه كان جوادا، فإذا حضر مناقشة علمية أطعم المناقش الخارجي على نفقته الخاصة، وامتنع عن أخذ أي مستحقات له من الكتاب الجامعي، وذات مرة ألح عليه القسم فأخذ النقود واشترى بها كتبا للقسم، ومرة أخرى تركها دعما لطالبات الدراسات العليا الوافدات، كما أن إحدى العضوات كانت تجمع صكوكا للحوم الأضاحي دفع مبلغا كبيرا دون علم مسبق، وكان إذا استشارته إحدى الباحثات في موضوع بحث يوصيها بأسماء كتب، ويأتي المحاضرة التالية بالكتب مهما زاد وزنها أو ارتفع ثمنها، وكان يقوم صباحا فيراجع وسائل التواصل (الواتس، الماسنجر) قائلا: لعل طالب علم يريد شيئا، وبلغ كرمه مبلغا عظيما إذ أوصانا إذا أقلتنا أي وسيلة نقل أن ندعو لجميع الراكبين بظهر الغيب، وكان ينفذ وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكتم علما عن سائل أو مريد، ويرى أن أي موضوع صالح للبحث، فإذا جاءت طالبة بعنوان هزيل بدّل وغيّر وقوّم وأضاف حتى يستوي العنوان بناء سامقًا، وإذا حضرت طالبة معها ابنها محاضرة الدراسات العليا وبكى لم يأمرها بالانصراف حرصا على مصلحتها بل يطلب منها أن تسير به عله يهدأ.

إن مظاهر كرمه وجوده يضيق عنها الحصر، أذكر أنني اشتركت معه في الإشراف على بحث دكتوراه، وقدمت الباحثة أوراقا قليلة ثم غابت وانقطعت فترة ليست باليسيرة، فهممت أن أتنازل عن الإشراف فأحرجت عندما قال: (هي تتابع معي) رغم انقطاعها فترة طويلة وعدم تواصلها، قوله هذا أشعرني

بالضعف والضآلة، وأنبأني عن كرم نفسه وسماحتها ولين جانبه للضعيف رحمك ربي شيخي وأجزل ثوابك.

كان يهون علينا مشاق البحث العلمي في زمن قل فيه العناية بالعلم والعلماء، ويوصينا أن نحتسب نصبنا لوجه الله تعالى حماية لنا من الفتن التي يموج بها المجتمع كقطع الليل المظلم، وكان ينبه العزائم بقوله: أنتن مرابطات على ثغر من ثغور الإسلام، وإن الله – تعالى – يحببكن لأنكن طالبات علم وأستاذات في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، وإن تخصصكن في البلاغة والنقد اصطفاء من الله – تعالى – لكن، والمسؤولية على كاهلكن عظيمة، وكان يعلمنا الأدب مع الله تعالى، فيأمرنا أن نحمد الله عز وجل على كوننا نساء، فلسنا مكلفين بما يكلف به الرجال من مشاق وفرائض، وكان يقول: إذا صحت صلاتكن وأمسكتن ألسنتكن عن اللغو سلمتن (خيطوا شفاهكن)، وأوصانا بحفظ أوقاتنا وعدم هدرها في الأسواق والمحال التجارية، وإعداد الأطعمة التي تستنزف الوقت، أذكر أنه قال لي ذات مرة: (دكتورة شيماء لا تصنعي محشي)، وهي وصية أغلى من الذهب بالنسبة لي، أتذكرها دائما.

لم يسمح له شباب عزمه أن يحمل له أحد حقيبة، أو يناوله كوبا، كان في مهنة أهله إذ يذكر أنه كان يعد كوب الشاي لنفسه وزوجه إكراما ورحمة، وإذا ضاقت بنا المجلس العلمي في غرفة القسم كنا ننتقل معه إلى غرفة أوسع، وكان يعلم حرص الجميع على خدمته، وذات مرة توعدني هادئا إذا حملت كوبي فلن أشربه؛ فيأسنا جميعا أن نخدمه، وأذكر ذات مرة أنه صلى الظهر وكنا جلوسا وبعد

انتهاء صلاته باغتته فأحضرت حذاءه بجانبه فنهرني وجلس خمسة دقائق مستكينا خاشعا، وأمر بألا نعين شيوخنا على ظلم أنفسهم فنشعرهم بالغرور والكبر الذي قد يتسرب إليهم خلسة، وعندها قلت له: (حضرتك مثل والدي وقرنه سنا، فقر نفسا بذلك؛ لأنه كان حييا لا يرفع طرفه في وجه إحدانا بل كان يغمض عينيه كثيرا أثناء حديثه معنا زكاة لنفسه وحفظا لها، وكان يقول: كلية البنات يجب أن تكون جدران أقسامها زجاجية تنزها وشفافية وورعا.

المحمود كان طرازا فريدا في التواضع لرؤسائه في العمل رغم كونهم أصغر منه سنا وعلما، فإذا جاءت العميدة قام تحية لها دون مصافحة، وكان يعلل لذلك؛ ليعلمنا أدب الطاعة للرئيس، وإذا استدعى تسجيل الباحثة شأنا إداريا أو أراد شيئا ما لم يدل برأيه بل أحال الأمر إلى رئيس القسم وهو على يقين أنها تلبي ما يريد، ويوم أن توليت رئاسة القسم أوصاني وصاة تكتب بماء العيون حيث قال: "بسم الله الرحمن الرحيم: "ابنتي النبيلة: مبارك لقسم البلاغة تكليفك بولاية أمره ورعاية أحواله، تكليف أنت المقتدرة بعون الله - تعالى- على أن يستحيل على يديك تشريفا لك ولكل منسوبي القسم وأنا فيهم.

أنت بحمد الله تعالى خير خلف لخير سلف أعلم أن أستاذتك الفريدة تتعب من يأتي بعدها في كل موقع تقوم فيه ولكنك تلميذتها وربيبتها وأنت المقتدرة على أن تعلي كل خير أرسلته رضي الله عنها.

ابنتي النبيلة إن ولاية أمر لأى ثلة تقوم على ست: العدل والرحمة والحلم والحكمة والحزم ثم التسامح الجميل.

أحسب أنك المقتدرة إن شاء الله تعالى على أن تستجمعي ذلك، وهذا باب من أبواب الجنة قد فتح لك فسارعي إلى مغفرة من ربك وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، والمغفرة هنا ليست مقتصرة على مغفرة الذنوب بل تشمل الستر العميم المقيم في جميع الأمر. دمت في ستر الله ورضوانه

محمود توفيق محمد سعد".

رحمك الله شيخي ورضي عنك وألحقنا بك كرام نفس وقرة أعين.

كان رحمه الله تعالى يأنف أن تُلتقط له الصور، وكان يعلل لذلك بأنه سيسأل عنها فبم يجيب؟ ولذلك يبدو غير راض في معظم صوره، ومن لا يعرف ذلك يظن أنه لا يتبسم، كان يوصينا ألا نعلق على منشورات وسائل التواصل، وإذا لم نجد ما نكتب من علم على صفحات التواصل فلنكتب حديثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان المحمود محمدي الخلق، عف اللسان عن خنا القول وسقطه، لا يتكلم إلا في العلم، كنيف ملئ علما وفقها، بلغ سيدنا – رحمه الله – في العلم مبلغا يعرفه القاصي والداني ومع ذلك كان لا يستنكف أن يقول: "لا أعرف."

تتلمذت على يديه سبع سنين خضر وفي كل مجلس علمي كان يتحفنا بجديد، فكنا نعد ذلك مددا من الله – تعالى- وعونا، ورزقا ساقه إلينا، وكان يقول: ادعوا لشيوخكم أن يرزقهم الله الفهم لأجلكم .

لقد عم الجميع برحمته وكرمه فذكر أنه تعمد أن يقطن حي الزيتون بجوار إخوتنا الأقباط؛ ليعلمهم سماحة الإسلام سلوكا وتعاملا، ولم يذكر أنه دعا أحدا منهم إلى الإسلام، وذات مرة نشر على صفحته إعلانا عن حاجته إلى شقة للإيجار بالحسين، وقد سألته ذات مرة: ألا تمتلك شقة بوسط القاهرة؟ فأخبرني أنه يملك شقة قريبة من وسط القاهرة ولكنه كراها لأسرة ربها مريض (مصاب بالشلل) وأنه يستنكف أن يخرجهم منها أو أن يرفع أجرتها - رحمه الله - تعالى- ورضي عنه، وأنزله منازل الأبرار، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وأورثه جنة النعيم...آمين

حياة الأخفياء

بقلم د: هاني عبد الله الصاعدي

سألَنا في قاعة الدرس عن قضية ما، فاستفتح زميلي الأوّل إجابته بقوله: أعتقد، فأوقفه قائلاً: إنه يجب أن يكون ما تقوله من قبيل الاعتقادات لديك، فتوقّف زميلنا عن الإجابة وتريّث، وأبدى رأياً ليس بالاعتقاد، ثم تبسّم وأدرك تساهلنا في ألفاظنا، فانتقل بالسؤال إلى زميلنا الآخر، فبدأ إجابته بقوله:

أتصوّر، فأوقفه قائلاً: لا بدّ أنك تصوّرت رأيك وأحكمته، فتبسمنا جميعاً، وأدركنا أننا أمام أستاذ محرِّر مدقّق، يَعنيه أكثر ما يعينه أن نُحكم ألفاظنا في التعبير عن مكنون أفكارنا، فلمّا امتدّت بنا صحبته في سنّة كاملة، مع محاضرات لم نعهد مثلها، أدركنا أننا أمام عالم عالي المكانة، ضبطاً لأصول العلم، وتحريراً لمسائله، ووعياً بمقاصده، مع سمت خاشع، وتواضع جمّ، وحزم رحيم، ومرةً أخرى كنّا نرى أنفسنا أمام شيخ يقدّر ما يقول، ويدقّق في إطلاقاته ومصطلحاته، ويتدفّق في تحليلاته وتأملاته، ثم لا ترى شيئاً يخرج عن منظومة أحكمها وميّزها من المصطلحات والإطلاقات: سياق مقالي وسياق مقالي، والسباق والسياق واللحاق، وسياق تكليفي وسياق تثقيفي، وسياق ترتيلي وسياق تنزيلي، وبيان الوحي كتاباً وسنة، وبيان العرب شعراً ونثراً، والبيان العالي شعراً ونثراً، والبيان العلي قرآناً وسنةً، ثم لما قرأناه في مؤلفاته رأيناه يتمثّل منهجية متفردة في مقاربة

مسائل علم البلاغة، لا يشبهه أحد في ذلك ولا يشبه أحداً، فحين يقول كثير من البلاغيين: علم البلاغة العربية، يتفرّد هو باصطلاح: علم البلاغة العربي، كاشفاً عن أصالة هذا العلم، بجعل العربي نعتاً للعلم، قاطعاً الطريق على مَن يرى غير ذلك، وحين يقول الجميع: حازم القرطاجني، يقول هو: حازم الأنصاريّ، للتنبيه بسلالة حازم النسبيّة على سلالته العلمية وأنه من زمرة علمائنا الأبرار، لا كما يزعم الآخرون بأنه بنى علمه على علم اليونان.

فلما بدأنا نعدّ موضوعاتنا في الماجستير تسابقنا نحوه في الإشراف، ثقة بعلمه وإعجاباً بنهجه وحزمه، فاختار منّا اثنين، شرُفت بأن أكون أحدهما، ونهلت من علمه خمس سنين دأباً، وكانت ملاحظاته أعمق مما أتصوّر، وإني أستحضرها الآن فأجدني أحوج إليها اليوم، وأنّها كانت تتوجه إليّ بصفتي باحثاً أكثر من علاقتها بموضوع رسالتي آنذاك!

وبالرغم من أن الشيخ يبتعد عن الأضواء، ويحبذ حياة الأخفياء، فإن واجبنا نحوه هي دعوة طلاب العلم للنّهل من معين علمه في مؤلفاته جليلة القدر، وهي دعوة شيخنا أبو موسى فقد كان يدعونا مراراً إلى علم الشيخ، ويقول: عليكم بعلم التقيّ الخفيّ الشيخ محمود توفيق!

ما أكبر ميزات بحث شيخنا محمود توفيق -رحمه الله تعالى- مما يصح أن يكون مفتاح شخصيته العلمية؟ في تصوري أن ذلك يكمن في تعليق الفروع بالأصول، أو ردّ الجزئيات إلى الكليات، وهو منحى أصولي فلسفي تزكوي، تراه في كل ما يكتب شيخنا، في ترجيحاته واستنباطاته ولمحاته وتربوياته وفقهه لكلام

العلماء، الشيخ مهموم دوماً بإيصال المسائل بالمقاصد، سواء المقاصد النظرية أو المقاصد العملية، وذلك ما حداه أحياناً إلى مقاربة الاتجاه الإشاري في لمح الدلالات العملية من الألفاظ والتراكيب والصور والعبارات، مع التزامه بالظاهر النصي والمقام السياقي، وعدم جريه وراء مبالغات الاتجاه الصوفي في الربط والاستنتاج، والشواهد زاخرة بها كتب الشيخ، أصطفي منها شاهداً يدل على غيره، وهو تحليله لوصية أبي حنيفة -رحمه الله- لأصحابه، الذين قال فيهم: "ما منكم أحد إلا وهو يصلح للقضاء"، عند قوله: "وليصلّ الخمس في مسجده"، ينصح أصحابه بأنه إذا بُلي أحدهم بالقضاء فعليه بجملة من الأمور، منها هذا الأمر، ينظر الشيخ إلى هذا الجزء من الوصية نظرة متصلة بمهمة القضاء، وبمقصده الأساسي العدل، فيقول: "وفي حرص القاضي على إقامة الفرائض الخمس في بيت الله تعالى والصلوات النوافل في بيته إعلان منه للعامة أنه يقيم العدل بين بيت الله تعالى وبيته"!

أرأيت كيف نظر الشيخ هذه النظرة المغايرة غير الظاهرة من النص، وذلك حين ربط بين هذا العمل ومقصده في الوصية، وسياقه الوظيفي بالنسبة لمتلقي الوصية؟! وكيف أن العدل في النفس صورة للعدل بين الخلق، "حقُّ بيت الله تعالى إقامة الفرائض فيه جماعة، وحقُّ بيت المسلم إقامة النوافل في بيته، فلا يظلم أحدهما بأن يصلي في بيته الفرائض، أو يصلي في المسجد كل النوافل، ولا يجعل لبيته من صلاته نصيباً، فإن فعل فقد ظلم، ومن يظلم بيت الله تعالى، أو بيته فهو على ظلم غيرهما أقوى"!

انتشرت صورة شيخنا الدكتور محمود توفيق وهو يجلس في درس شيخه وشيخنا شيخ البلاغيين محمد أبو موسى، وقيل ما قيل مما يستحق أن يقال ويُتعظ به ويقتفى على أثره، لكن بقي أمرٌ لا بد منه، وهو أنه برغم الحبّ والعلم والأدب الذي بين الشيخ أبو موسى وتلميذه النجيب محمود، والذي وصل إلى حدّ أن يقول شيخنا أبو موسى: "محمود علمتُه صغيراً وأصبح يعلمني كبيراً"، ويقول محمود: "أنا ربيبُ فكرك وبيانك ووليد حزمك الرؤوف وغرس يمينك المبارك الدافق بجليل عطائك"، برغم ذلك تجد بين الشيخ وتلميذه الفارقَ المختلف بقدر الرصيد المشترك، تفكيراً وأسلوباً ومساراً واهتماماً، فلكل منهما منزعه التفكيري، وأسلوبه التأليفي، واهتمامه البحثي، وصدقاً من قرأ مؤلفات الشيخ محمود توفيق - وهي غاية في النفاسة والتحرير والإبداع- يصعب أن يجد فيها نَفَس أبو موسى وطريقته وتساؤلاته، وإن تبدى له فيها أصالة المنهج وصفاؤه الذي ربى أبو موسى عليه طلابه !

لقد اختطّ الشيخ محمود طريقاً أليق بقدراته، وأقرب لنفسه، وأوفر لها بالتجديد والإبداع، ولم تبعد لو قلت: إن ما تفتقده عند شيخ البلاغيين أبو موسى تجده عند فقيه البلاغيين محمود توفيق، ولو خضع لتقليد شيخه كما فعل آخرون كُثُر من طلاب الشيخ، لما كان شيئاً يذكر !

من المواقف المؤثرة لي مع شيخنا محمود توفيق رحمه الله تعالى، أني خرجتُ يوماً بسيارتي من مواقف الكلية، فرمقته واقفاً على الرصيف هو وأستاذ مصريّ لا أعرفه؛ فلما أوقفت سيارتي بإزائه أبصرني متفحصاً بنظره كأنه يقلّب

عينيه في مسألة محتدمة بين التفتازاني والسيد الشريف، فأرخيت زجاج سيارتي وسمعته يقول لصاحبه: هذا معيد من قسمنا وليس طالباً، لو كان طالباً ما ركبت!

تعجبت من هذا الموقف، وأصبحت حذراً في تعاملي مع الشيخ، حتى إنه مرة رأى في يدي جزءاً من تفسير الزمخشري، وبحاشيته أربعة كتب، من نشر دار الكتب العلمية، فتناوله مني، ثم نظر إليه، وأعاده فوراً، فعلمت أن الطبعة استهوته، ولكني استحييت أو خفت من عرضها عليه، ليستفيد منها!

ومرةً أخرى عرضتُ عليه إقامة درس أسبوعي للدلائل في الكلية، فرفض، ثم مع إلحاحي استجاب ولكنه اشترط ألا يتوقف الدرس عليه، وأن يستكمل بعد رحيله من الكلية، وذلك بشكل رسمي من العميد! وكان كلما اقترحتُ عليه لقاءً أحالني إلى شيخنا الدكتور محمد شادي -حفظه الله-، وقال: هو أعلم مني، والشيخ شادي يحيلني عليه، فوقعت بينهما أستفيد من هذا وأستفيد من هذا، كما وقعت "هي الشمس" بين الاستعارة والتشبيه، تأخذ من التشبيه البليغ حقيقته، وتأخذ من الاستعارة رائحتها! وبما أن موضوعي كان في الطاهر ابن عاشور كان يحيلني على الباحثين الذين سبقوني في بحث الطاهر، ومنهم الدكتور إبراهيم الجعيد الذي أشرف عليه شيخنا العلامة محمد أبو موسى، اتصلتُ على الدكتور إبراهيم، فكان أول سؤاله عن مشرفي، قلت: محمود توفيق، فلامني، وقال: لن تنتهي، قلت: هو عالم، قال: لأجل ذلك قلت ما قلت، هؤلاء كبار لا يستحسن بالطالب الصغير أن يضع رأسه تحتهم، وذكر لي معاناته

مع تدقيق الشيخ أبو موسى، فأصابني بإحباط، لكنه صنع عندي التحدي، وأشعرني بالفخر!

ثم لمّا سلمته أول مبحث كتبته، أمهلني أسبوعاً، ثم أعطانيه مسوّداً وهو كظيم، فتذكرتُ كلمات الدكتور إبراهيم الجعيد، ولكني استشعرتُ أني في مرحلة بناء، ويجب أن أتقبّل كل شيء، مهما ثقل على النفس، فما إن انتهيت من البحث إلا وقد تكونت لديّ جمهرة من القواعد المنهجية والنصائح البحثية والمواقف التربوية!

وقد جئته مرةً في مسجد بجانب بيته القاطن بحي العزيزية، أجرّ معي همّاً كالجبل، من بحث المبتكرات، وكيف أن كل مبتكر يقول به الطاهر، يتطلب استقراءً واسعاً في دواوين شعراء الجاهليين والإسلاميين، وهذا بحدّ ذاته مرهق جداً، فوضع يده على كتفي وقال: نصبر ونحتسب، نحن عندنا تقصير في العبادات الأخرى، نعوّض بطلب العلم!

ورحل عنا شيخنا

بقلم د: عزيزة الصيفي

شاءت الاقدار أن تمنحنا هدية عظيمة مباركة، ألا وهى فرصة انضمام اد محمود توفيق رحمه الله قسمنا، وان يصبح نبعا يغترف منه الأعضاء والباحثون العلم والمعرفة ، حيث داوم على عقد مجلسه الأسبوعي ولم ينقطع عنه إلا لظرف طارئ، وظللنا نلتقى على موعد مع ذلك المفكر العالم الجليل الأصولي المتأدب، ومنذ البداية رسخ في الأذهان فكرة أن اللغة العربية لا تضيق على مراد متكلم بها عن أن تكون عونا على إفهام ما يعتلج في الفؤاد إفهاما صادقا أمينا، فكنت أقول له: إنك يا شيخنا تذكرني بقول حافظ ابراهيم عن اللغة العربية تحدث نفسها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آي به وعظات

فكان يقول: هؤلاء الشعراء أدركوا قيمة اللغة العربية، والساحة الآن بها القليل ممن يقدر عظمة اللغة وقوتها، ولكن يملؤها فارغوا العقول الذين يضرون بها حينما يبتعدون عن أصولها ومعاجمها.

كان مهموما بقضايا الفكر واللغة، وموروثنا الثقافي والديني، وكان شديد التواضع غير متطلع لشهرة أوصيت ، كذلك لم يكن يحب التباهي بعلمه او الشعور بزهو المكانة التي خصها به طلابه، ولم يسع لمدح أو ثناء عليه، وأعظم عبارة كنت أسمعها منه حين يوجهها لطلابه ومريديه : "لا تكونوا حربا على شيوخكم، بتقبيل أيديهم "، حيث صادفت هذه المقولة هوى في نفسى، فيوضح قائلا : "إن تقبيل يد شيخك أو رأسه أو حمل حقيبته، أمور قد لا تؤجر عليها، بل ربما تحاسب عليها، لأن من يفعل ذلك قد يفسد على الشيخ نفسه، والأولى من ذلك إذا أردت أن تبر شيخك أن تحسن التلقي عنه وأن يجد شيخك أثر ذلك فيك ، إذ تستثمر ما تلقيت وتنشره في الناس ، وتدعو له بحسن الخاتمة "

كان لا يرجو سوى النفع من علمه، وحسن الختام وقد نالها، وترك أثرا وعلما ينتفع، وكان يعجبني منه رحمه الله أن يكرر دائما قوله: "البلاغة علم نيئ لم ينضج بعد "، وكنت أقول له: أصبت يا دكتور، فالبلاغة تحتاج لمن ينضجها، كما كانت تعجبني جرأته في قول الحق، لا يخشى فيه لومة لائم، وكانت مقومات وجوده في الحياة أنه أزهري صعيدي، له منهاج لا يتعصب له، حنفي المذهب الفقهي، له منهاجه أن التعلم والتعليم والتفكر والتعبير، آخذ في معتقده بما كان عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الأمور التي أخذت بيننا باعا طويلا من النقاش أنه لا يقول بتأويل صفات الله وأفعاله، ولا يجسم ولا يشبه، ولا ينفى ما أثبته الله تعالى ورسوله لنفسه، ويقول: أنا مُنزه لله تعالى من كل نقص وشعاره قوله تعالى: "

ليس كمثله شيء وهو السميع العليم "، فهو يرى أنه لا داعي لتأويل الغيبيات، فما ذكره الله تعالى من غيبيات لا يجب تأويلها بل نتلقاها كما هي، فكنت أناقشه في ذلك وأقول له: إن ذلك يعنى أن نلغي ما قاله البلاغيون من تأويلات لبعض المعاني في القرآن الكريم، ثم نتوقف في مفترق الطرق.

أما عن منهج التدبر فحديثه فيه يطول، ففي كتابه (المعنى القرآني، معالم الطريق إلى فقهه، في سياق السورة، رؤية منهجية، ومقاربة تأويلية) نلاحظ هنا طول عناوين كتبه، وكأنه يرسم خريطة في طريق الإفهام -نتلمس من خلال استقراء ما نهجه في ذلك الكتاب غزارة علمه، ورجاحة عقله، وفطنته، في تدبر الآيات، فالتدبر من خلال رؤيته البلاغية ساهم في الوصول إلى المعنى، فقد كان دائما يؤكد أن علم البلاغة له دور أساس في تدبر القرآن، من حيث معرفة المعنى المقصود من المفردة والآية والسورة، فكان من سمات الشيخ رحمه الله السير على منهج التدبر، وإن كنا على يقين تماما، أن منهج التدبر فى القرآن الكريم مهمة قد أمرنا الله بإنجازها، وأكد في كثير من مواضع في السور على ضرورة التدبر، فإن شيخنا يرى أنه ليس التدبر لفهم المعاني في الآيات فقط، إنما لفهم ماهية الكون والخلق والخالق، وكان يصف بيان من يتدبر القرآن بالبيان العالي وأهم هؤلاء عبد القاهر الجرجاني.

لم يكن د محمود يكتفي بالحرص على التدبر بل كان حريصًا على ان يجعل المتلقي يدرك عظمة التدبر، في معانى القرآن، وأن يدله على الطريق القويم، في سبيل الغوص للمعنى القرآني، كان كلما رافقته في مجلس أو سيمنار وجدته

قامة وقيمة علمية سامقة، تفنن في إبراز عظمة اللغة العربية وقدرتها التعبيرية، ينبش في التراث الثقافي وفى المعاجم ويستخرج درر الألفاظ ومشتقاتها والعبارات نادرة التداول عند المعاصرين، بتلاعب بالعبارات الثرية لينسج نسيجًا قويًا رصينا من تراكيب اللغة، تشعر أنك أمام عالم من عصور الحضارة الاسلامية النهضوية التنويرية، من علماء المسلمين الذين سطروا أعظم حضارة فكرية علمية في تاريخ الإنسانية ، وقد تميز في إبانة منهجه برجاحة العقل وطيب الحديث ، وهدوء المتأدب الواثق، راسخ العلم في قضايا النقد الأدبي والبلاغي ، واسع الباع في معرفة فنون القول.

ترك د محمود ثروة فكرية يظل طالب العلم ينهل منها، فقد أفرغ وقته كله للعلم ، وكان دقيقا في عباراته ، مدققا في كل رؤية فكرية من القديم والحديث على حد سواء، دائما يشير الى أهمية إعمال العقل الذى تتفاوت فيه قدرات الدارسين على الفهم الصحيح، تراه يتفانى في بيان وتوضيح رسالته، وقد سار على مبدأ لا يحيد عنه، لا يبتغى في إتمام رسالته إلا وجه الله ورضاه ،كان ديدنه التواضع الجم، يخالفك الرأي، ولكن دون تعصب، أو تجهم، أو إزعاج، يرد مدافعًا عن وجهة نظره بتأدب وحسن إفهام، وبهدوء الواثق، أفاض على القسم من علمه وخلقه، وسماحته، وتواضعه، عرفته كلما تحدث أحد يصمت ويستمع وينصت بكل اهتمام، لا يعترض بحدة، بل يرد مدافعا عن وجهة نظره التي يعرضها بهدوء ودون جرح للمشاعر، كنت أقدر فيه ثقته الكبيرة فيما يعرضه من رؤيته الشخصية لكثير من القضايا المثارة، وإن كنت أختلف معه أحيانا ، فلا يقلل من شأن ما أقول ولا ينفر، لذلك كنت أشعر أنني أمام عالم حكيم، لا يتلفظ إلا

بما يستوجبه الرد الهادئ، كنا دائما نردد: إن العلم رحم بين أهله ، وكان رحمه الله بحرا من العلم عارفا بأفانين اللغة، متحكما في لجام قلمه، ممسك بتلابيب كلماته يوجهها حيثما أراد، قاموسه اللغوي والمعرفي لا حدود له، يكتب فتتمثله عالما تلقفناه من عصور النهضة في القرون الأولى .

أذكر أننى منذ بداية هذا العام الدراسي ٢٠٢٥ قد اتفقنا على أن يبدأ دورته العلمية في القسم ثم تليها دورتي العلمية بعنوان قراءة في كتاب قديم ، كنت آتى مبكرة -كلما استطعت لاستمع إليه -وكان هو ينتظر أحيانا ليستمع إلي، فأقول له: يا شيخنا أنا لا أطاولك علما ومعرفة، فيقول بتواضع العلماء: أنا أعلم أنى سأستفيد وكذلك بناتك وزميلاتك، فلديك منهجا وفكرا، فأقول له: يعجبني في فضيلتكم هذا التواضع الجم، وحسن انصاتك، وأشعر حين أجلس بجوارك أني في محراب العلم والبيان العالي، واعتذر عن اختلافي معه أحيانا في بعض المسائل، فيقول: أنا أعلم أننى قد أكون متشددا لكن هكذا أنا صعيدي، مازلت أحمل معي موروث القرية التي خرجت منها، وإن كنت أنت محقة لكن ويقول مبتسما أنا بتركيبتى البيئية هذه صعب أن أغير جلدي، أما في المجالس الأخيرة وقد اشتد عليه المرض واعتذر عن الحضور أكثر من مرة، وكانت تنتابنا جميعا مشاعر خوف من ان نفقده ، وكنا كثيرو السؤال عنه وعن حالته الصحية، رأيناه وقد ازداد هدوءا، وكلامه قليل ، وأصبح وكأنه مطمئن مسلم أمره لله، ودودا ، مرتاحا، يتحدث بحساب، وكأنه يحصى كلماته، ربما لأنه لم يعد قادرا على الدخول في نقاش وحوار ، كنت يومها استغربه في نفسى، وكلما سئل يقول:

أستاذتكم موجودة هي أعرف منى في هذا، فكنت أقول: هذا منتهى التواضع استاذنا الجليل، فيقول :لا أنا أقولها بصدق .

وقبيل وفاته، استيقظت من نومى ذات يوم وقد رأيت رؤية لشيخنا حيث كان الجو يمطر وهو يقف على ناصية، والانوار الكثير الشديدة الصادرة من المحلات خلفه، كأنها أضواء أقمار تسطع موجهة نحوه -فقط -وقد جعلت الليل نهارا، وأنا أقف أمامه على الناصية المقابلة، رأيته مفعما بالحيوية نشيطا يتحرك ذهابا وإيابا، فقلت: ما شاء الله يبدو أنك شفيت والحمد لله، فلماذا أنت واقف عندك، وطلبت منه أن يحاول قطع الطريق ويأتي فكلنا في انتظاره، فقال لي: الطريق غارق بمياه المطر، ولا أستطيع عبور الشارع، كان صوته واضحا جليا، ففكرت أن أضع له حجارة يتنقل عليها فلم أجد، فقلت له: حاول يا دكتور ، لكنه أشار إلى بيده وكأنه يودعني، ووجدته يلتفت الى الخلف ويسير ويتوارى ثم يختفى، فظننت أنه سيأتي من خلف المبنى، فظللت انتظره حتى استيقظت على آذان الفجر، وفى آخر مجلس التقيناه فيه، حكيت له الرؤية وبشرته بالشفاء العاجل فما كان رده إلا قوله: (لعله خير، بس ادعيلى) فقال كل من بالمجلس: نحن ندعو لك يا استاذنا دائما، وقلت له: انت ادع لنا فدعاؤك مستجاب إن شاء الله ، فدعا لي وللجميع بتيسير الحال والستر والبركة فى الصحة والعلم، دعا لنا جميعا وكأنه يودعنا، وكان في ذلك المجلس أكثر هدوءا مما سبق، رايته وادعا مطمئنا، وكأنه اكتفى من الدنيا وضجيجها، تاركا فينا أثرا لا يمحى .

حاولت الاتصال به بعد عدة أيام للاطمئنان، فلم يرد فأرسلت له رساله، فرد في نفس اليوم برسالة صوتية أذكر بعضا منها، إذ يقول :استاذتنا العزيزة عزيزة، أنا والحمد لله في تحسن، كل يوم أحسن من أمسه، وهذا بفضل دعائكم لنا، وظل يمتدحني، ثم دعا لي ، قائلا: أعانك الله على كل خير تقصدين إليه وتسعين إليه، دمت أستاذة كريمة، أحسن الله إليك حيث كنت، دعا لى ولأعضاء القسم وكأنه يودعنا، فأرسلت إليه قائلة: أتم الله شفاءكم، والحمد والشكر لله، وأجر وعافية، وكانت الرسالة الأخيرة، وقد شعرت من نبرات صوته وكأنه يبذل جهدا لكى يخرج الكلمات، ويوم وفاته وفجأة في الصباح خطرت صورة أستاذنا أمامي ووجدتني أقول: ما الذى بينك وبين ربك لتظل متمثلا أمامي هكذا ، حتى فوجئت بخبر وفاته، الذى أفجعنا جميعا ، حزن القسم، وحزن كل من يعرفه، وشعرنا أن ركنا ركينا قد فقد ولكن عزاءنا الوحيد انه بإذن الله سيكون في مكان أفضل، وقد ثقلت موازينه، بعطائه وعلمه الذى أفنى فيه حياته مصداقا لقوله تعالى: "فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية"، هكذا رحل العالم الجليل وبقى أثره في خدمة الاسلام والمسلمين .

البليغ المؤدب

بقلم: د صبري أبو حسين

قليل هم العلماء العاملون المؤثرون في حياتنا، مَن وجودهم نور، ولسانهم نور، وقلمهم نور، ومحياهم نور، علماء مؤمنون مسلمون: قلبا وقالبا وعقلا ولسانا، وسلوكا، يجذبك جذبا، ويأسرك أسرا، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا خير معلنين عن الشرع الحنيف، وموقعين خير توقيع عن أحكام الشريعة في أدق القضايا وأخطرها، فلم يكتموا ما أنزل الله تعالى، ولم تأخذهم في الله لومة لائم، مهما كان منصبه أو جاهه! علماء مجاهدون يعلنون عن عقيدتهم ومذهبهم بشكل صريح محدد، لا مواربة فيه، ولا مداراة! ولا خلابة! ولم يشتروا بكتاب الله وعلمهم ثمنا قليلا، ومنهم أستاذي الدكتور (محمود توفيق سعد)، أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة، وعضو هيئة كبار العلماء، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحدا. وقد رحل عنا وفارقنا أستاذنا ووالدنا فجأة، في زمن كنا نعده ظرعنا وملاذنا ولساننا، وسراحنا، وكنت-شخصيا- أنتظر التمتع برؤيته وزمالته في لجنة شعبة اللغة العربية للدراسات العليا بكلية العلوم الإسلامية والعربية للوافدين، وكنت أنتظر تعليقه على بحث لي وعدني بقراءته، رحل أستاذي الدكتور محمود توفيق سعد يوم الخميس٢٧فبراير ٢٠٢٥م، الموافق٢٨من شهر شعبان سنة ١٤٤٦هـ كتب الله له أن يموت في وقت فاصل، بين شهر رفع الأعمال، وشهر بداية أعمال جديدة، وقد توفاه الله عن عمر بلغ أربعة وسبعين

عاما، نحسبها كلها كفاحا وجهادا في سبيل الحق وأهله، وقد أظهر رحيله هذا أن له من اسمه كل نصيب؛ فقد كان(محمودًا) عند جميع طلاب العربية والشريعة في أقطار المعمورة، كما كان ذا (توفيق)،في كل كتاباته وخطاباته، ونرجو له أن يكون من الذين (سعدوا) في الآخرة، وأن يسعد ذريته ويبارك فيخا؛ كما (أسعدنا) في الدنيا الفاتنة بآثاره العلمية ومواقفه الحازمة، رضي الله عنه وأرضاه! وكان يكني نفسه بكنية خاصة هي (أبو محمد الإسناوي)، نسبة إلى ابنه الأكبر، (محمد)، وإلى مكان ميلاده(إسنا).

وقد رزقني الله-تعالى- التتلمذ على يديه في الفرقة الرابعة من العام الجامعي الثاني والتسعين والثالث والتسعين من القرن المنصرم، في كلية اللغة العربية بالمنوفية، وأشهد أنه ما تخلف عن محاضرة، ولا قصر في محاضرة، ولا خرج إلى ذاتياته وذكرياته كما كان يحدث عند بعض رفاقه، وما خرج عن متطلبات المحاضرة. كنا نجلس أمامه مجلس المنصت المنبهر الشغوف المتمتع، ما كان أحد فينا ينشغل أو ينصرف عنه، كنا نكتب عنه ما يقوله عن شرح الدلائل لفظة لفظة، وتعبيرا تعبيرا، ونصا نصا، وبابا بابا، وكأني به طبق نظرية النظم على أسلوب عبد القاهر ذاته، وإن قلت: إننا كتبنا عنه كشكولا كاملا أو يزيد، وكل منا كتب كل ما فهمه أو يظن أنه قد فهمه، وما استطعنا أن نسجل كل خواطره! وكنا ننبهر بطريقته في التحليل، إنه لتحليل عميق، قائم على منهج التذوق، ذلك المنهج الشاكري العتيق، تحليل يبدأ من القراءة المعجمية واللغوية ثم التذوق اللغوي، والتدبر التعبيري، ثم البياني، ثم البديعي، ثم الإيقاعي العجيب، وهو تربوي في شرحه، ينتقل بنا من درجة أولى في التحليل إلى درجة ثانية، ثم إلى درجة

عالية، من سطح، إلى سقف أعلى، ثم إلى مكان علوي خاص! وأنت في كل درجة معجب مندهش، تكاد تتابعه بصعوبة، لأنك أمام بحر علم هادر، ومحيط فكر ذاخر، يغمرك غمرا. ثم كان أن رزقت رؤيته ومجالسته في رحاب كلية الدراسات العليا، وكلية العلوم الإسلامية للوافدين، ومؤتمر كلية اللغة العربية بأسيوط، فكان يفخر بي وزملائي أمام رفاقه، ويعلي من شأننا، كان يتعامل معنا معاملة الوالد، يسأل عن حالنا وآخر كتابتنا، وكان يسأل بقية تلامذته ممن نعرفهم، ويسألني عن ابنه (سعيد جمعة، الأستاذ والداعية والعميد المعروف) وعن أخباره، ويوصيني بحسن الجندية له، ويطلب مني أن أبلغه عن رغبته في الاطلاع على آخر ما كتبه. وكان يذكرني بخير في كل مكان علمي، وكم رشحني لأعمال علمية لظنه الطيب في شخصي، فكم من خير علمي أتاني عن طريق تزكيته وحسن ذكره لشخصي. ومن ثم أوجز كلمتي عنه بأنه كان خيرا، وعاش خيرا، لم يكن أستاذا فقط، بل أستاذ ووالد، فضلا عن أنه المؤدب المربي الصانع للأجيال، رباني وربى أساتذتي، وربى زملاءه، وكتب الله في سنيه الأخيرة أن تصل تربيته إلى قطاع كبير، من الأمة، وإن قلت: إنني فقدت برحيله والدي لا أكون مبالغا، ولعل ما فيَّ من رعاية للأجيال التالية راجع إلى نصحه إياي بذلك.

وإن تعجب فعجب أن نرى هذا الرجل السبعيني متطورا كل تطور، لا يترك مجالا يوصل كلمته إلا أتقنه ووظفه خير توظيف، فقد عرفت منه أجاد الحاسوب، واتقن التعامل معه، فكان يكتب أبحاثه وينسق كتبه بنفسه، وكان ينشر بعض مؤلفاته على المواقع المختلفة مثل المكتبة الشاملة، وكان يحاور، الشباب على موقع أهل الحديث، وأهل التفسير، ومن يبحث عن اسمه أو كنيته

يجد ما يدل على ذلك، ولعل صفحاته على ذلك الفضاء الرقمي الأزرق، والمسماة باسمه مجردا من كل لقب، خير دليل على ذلك، ففيها خلاصة مقالاته وأبحاثه وفيديوهاته، وليس فيها ما عند غيره من تفاخر بصورة أو تباه بحضور! إنها صفحة ملأى بمناشير الخير والعلم فقط! كما كان أستاذنا منذ ظهرت مواقع التواصل حاضرا فيها متابعا شؤون أمته، منضما إلى كل جماعة فيها خير وفيها فاعلية، ولا يستنكف أن يعلق على مناشير طلابه مدحا حينا وتوجيها حينا، وقد رأيت ذلك في منشورات لي، وفي منشورات للدكتور أ.د عصام فاروق، والدكتور هاني الصاعدي، وغيرهما.

وأختم مقالتي التأبينية الرثائية هذه بدعاء شعري تضرع به أحد طلاب شيخنا المحمود، وهو الشاعر الأزهري الكبير الزميل الأستاذ محمد فتحي نصار، حيث قال على صفحته الفيسية:

يا رب عبدك هذا كان يدعونا

إلى دروبك فاستقبله ميمونا

واقبله يا ربنا بمن رضيت لهم

فردوس جنتك الفيحاء موضونا

محمودُ توفيقُ سعدٌ، أنت تسعده

وأنت تجزيه بالإحسان مضمونا

وأنت تجزيه أوفى ما جزيت به

من عاش باسمك يا حنان مسكونا

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجعل عمل طلابه في ميزان حسناته.

الزاهد الذي عاش يوم مات

بقلم د: عادل السيد الفقي

بدأت معرفتي بفضيلته وأنا في الفرقة الأولى في كلية اللغة العربية بالمنوفية عام ٢٠٠٣م يوم أن وضع لنا امتحان القرآن الكريم، وقد كان فضيلته حازما حاسما في الامتحانات بقدر رقته ورحمته في قاعة الدرس والتعليم، وإن أنس لا أنسى تلك الجملة التي صدَّر بها أسئلة امتحان القرآن الكريم في ذلك العام لجميع فرق الكلية، حيث قال بالنص" أجب عن الأسئلة الآتية مع الضبط بالشكل، واعلم أن الخطأ في ضبط أي كلمة ستُحسَم به درجة وإذا تكرر الخطأ سيتكرر الحسم"، وتخيل وأنت طالب في الفرقة الأولى تقرأ هذا الحزم والحسم في مطلع أول ورقة أسئلة تقع بين يديك في هذه الكلية، وقد كان لهذا أثره في نتيجة امتحان القرآن الكريم لجميع الشعب بجميع الفرق هذا العام، حيث لم تتعدَ نتيجة الامتحان ٥٪، وكنت بفضل الله ممن حصل على ممتاز في هذا الامتحان، وقد كان هذا من طبع أستاذنا في الامتحانات (الحزم والحسم والشدة) وكان عندما يمر بلجنة الامتحان كان يوصي المراقبين قائلا: (شدوا عليهم الوثاق ولا يلتفت منهم أحد، ولا يكلم أحد أحدا، وقد كانت هذه سمة من سماته في أي اختبارات أو امتحانات.

وعلى قدر هذا الحزم والحسم والشدة في مجال الامتحانات كان رحيما رفيقا هينا لينا مع طلاب العلم في مجال التعليم خادما لطلاب العلم الصادقين محبا لهم، خافضا جناحه لكل من يلتمس فيه رائحة العلم، وقد سأله بعض الزملاء يوما عن كتاب ما، فلم يكن الكتاب عند الشيخ ولكنه أخذ رقم هاتف هذا الباحث وبحث بنفسه عن هذا الكتاب وقام بطباعته وتواصل مع الباحث هاتفيا وأخبره أن الكتاب موجود الآن بين يديه وأعطاه له راضيا مرضيا، ناهيك عن تذليل كل العقبات العلمية والإدارية لجميع طلاب العلم، ويحكي عنه الأستاذ سلطان وهبة صاحب مكتبة وهبة التي اختصت بطباعة كتب الشيخ، أنه ذهب إليه قبل أن يُسلم روحه لمولاه بشهر ونصف ليعطيه حقه في أرباح مؤلفاته التي تم بيعها من خلال مكتبة وهبة فرفض الشيخ أن يأخذ جنيها واحدا وقال له بالنص: (أنا لا آكل بعلمي) هذه المبالغ أعِد بها طباعة الكتب ووزِّعها على طلاب العلم، وهو القائل: "من طلب الدنيا بالعلم كان أحمق ممن يطلبها بمزمار، ومن طلب الدنيا بمزمار إنما طلب حقيرا بحقير، فكان المطلوب (الدنيا) والمطلوب به (المزمار) سواء، ومن طلب الدنيا بالعلم فقد طلب حقيرا بعظيم، ولا يفعلها إلا مأفون" فأي نموذج من العلماء هذا؟!

وقد كان كريما جدا مع طلاب الذين يقصدونه سواء في قسمه أو في بيته لدرجة تجعلك تضعه فوق حاتم الطائي في الجود والكرم، ويصدق عليه قول الشاعر: فما جازه جود ولا حل دونه*ولكن يسير الجود حيث يسير، وكان مربيا قبل أن يكون معلما، يتعلم منه طلاب العلم من لحظه قبل لفظه، ومن صمته قبل

نطقه، لصمته دلالات وللفظه إشارات وهكذا أهل العلم الصادقين الذين يرددون دائما (اللهم علمنا ما ينفعا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما).

وكان مصدرا للطاقة والتحفيز لطلابه يناديهم بأحب الأسماء ويدعو لهم ويشد على أيديهم، ومن خائصه مع طلابه ومحبيه أنه كان ينادي الواحد منهم واصفا إياه بصفة من جنس اسمه، فمثلا صالح يقول له أيها الصالح....وعصام يناديه بالعصام، ومما يذكر في هذا محادثة على الواتس بيني وبين فضيلته، كنت قد أرسلت بيان حالة لسيادته من كليتنا فرد عليَّ قائلا: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته سيدنا العادل رضي الله عنك، أحسن الله تعالى إليك وإلى من حولك من الأهل والأصحاب وكل من رأت عينك من المسلمين، دمت جوادا بالحسنى واللهَ أسأل أن يجزيك عني جزاء حسنا. محمود توفيق محمد سعد) ومثل هذه الرسائل والكلمات تدل على مدى تواضعه وأدبه وكرمه وإحسانه إلى طلابه وهو من هو (عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف)

وقد كنت في غاية السعادة عندما علمت من المسؤولين في منصة فصيح الإلكترونية المعنية بنشر التراث العربي التي كان الشيخ يشرح فيها كتاب المطول لسعد الدين التفتازانى أنه رشحني لشرح كتاب (شرح عقود الجمان للسيوطي) لأن الشهادة من مثل أستاذنا لشخصي الضعيف تعلو على كل الشهادات والأوسمة والتقديرات، وقد أعانني الله تعالى على أداء المهمة ببركة الشيخ ودفعه وتشجيعه لي كطالب من طلابه، وقد كان هذا شأنه مع جميع طلاب العلم.

وكان من وصاياه أيضا لطلاب العلم أن طالب العلم عليه أن يقرأ أي كتاب وهو ماسك بقلمه يعلق عليه ويصنع عليه الحواشي، ثم يحول هذه التعليقات والحواشي إلى كتاب حول الكتاب المقروء، وإذا قرأ طالب العلم ولم يفعل هذا تبخر ما يقرأه ولم يعد له أثر، وقد طبق أستاذنا هذا في بعض مؤلفاته، من ذلك ما فعله وهو يقرأ كتاب (شرح أحاديث من صحيح مسلم دراسة في سمت الكلام الأول) لشيخه د. محمد أبو موسى حيث ألف حوله كتابا سماه: (الكلمة نور: محاورات منهجية في كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم لشيخنا محمد أبي موسى)، وصنع مثل هذا أيضا في كتاب: (علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى)

وقد كان ذا منهج فريد في التأليف ويكفيه في هذا ما صنعه في الدراسات البينية التي جمع فيها بين علم البلاغة وأصول الفقه، ويكفي فيه شهادة شيخه أبي موسى الذي قال لي أنا شخصيا لما سألته عنه (هو أنجب تلامذتي وهو أفضل مني ويكتب كتابات لا أستطيع كتابتها)

كل هذا العطاء الهادر وهذا الخلق النادر كان مخفيا عن كثير من الناس وعن كثير من طلاب العلم، وما ذلك إلا لأنه كاللؤلؤ المكنون الذي يفضل أن يختبئ في قاع البحار ولا يقع عليه إلا الغواصون الماهرون، في الوقت الذي يظهر فيه على السطح كل ناعق ولاعق، وما إن نعاه الناعي في يوم الثامن والعشرين من شهر شعبان ١٤٤٦هـالموافق ٢٧/ ٢/ ٢٠٢٥م حتى ذاع صيته وضجت كل وسائل الإعلام وصفحات التواصل الاجتماعي بخبر وفاته، ويكفيه نعي الإمام

الطيب له حيث قال عقب وفاته: (كان نقيَ الضمير، عف اللسان، لا يقول إلا خيرا، وقد تميز بهمة الشباب، وحكمة الشيوخ، ولم يطلب أمرا من أمور الدنيا، فقد عاش منكبا على طلب العلم ونشره) فرحمة الله ورضوانه على هذه الروح الزكية التي فضلت العيش بعيدا عن الأضواء، لكن شاءت إرادة الله أن يحيا ذكره عقب وفاته ليعيش بالذكر الحسن والسيرة العطرة يوم نعاه الناعون، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه وطلابه خير الجزاء وجعل علمه وعمله وإخلاصه في موازين حسناته يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا.

كان فريدًا في كل شيء

بقلم د: سعيد جمعة

إن كل أستاذ يعلمنا تكون وسيلة تعليمه هي الكلام لكن الشيخ محمود توفيق لم يكن هكذا فيكفي أن تنظر إليه لتتعلم فهو أستاذ حين يمشي أستاذ حين ينظر أستاذ حين ينصت إليك أستاذ حين يبتسم أستاذ حين يغضب كان الشيخ في كل أحواله أستاذا كان كثير الصمت ونظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى ما حوله ولقد قلت يوما لطلابي: إني أعتقد أن الشيخ محمود توفيق – رحمه الله – واحدٌ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن الله تعالى تفضل على طلاب العلم في هذا الزمان وجاء به في زماننا لننظر إلى أخلاق الصحابة الكرام متجسدة شاخصة .

ومنذ أيام كنت على اتصال بشيخنا الكريم رحمه الله أدعوه لحضور مؤتمر كلية الدراسات بمدينة السادات والتمست منه مع حضوره كتابة مشاركة في هذا المؤتمر فوعدني بواحدة وهي الحضور، وشرط فيها شرطا قال فيه: إن كنت على قيد الحياة سأحضر ثم قال: أما الثانية وهي المشاركة ببحث فلا أعدك بهذا وكان قضاء الله نافذا فلحق أستاذنا بالرفيق الأعلى في ليلة غراء وهي ليلة الجمعة وفي بداية شهر أغر وهو شهر رمضان المبارك.

لم يكن محمود توفيق مثل كل الأساتذة بل كان فريدا في كل شيء كان في إخلاصه فريدا وفي حبه لطلابه فريدا وفي مساعداته لهم فريدا وفي قناعاته التي لا يتنازل عنها فريد .ودعوني أذكر لكم موقفًا واحدا مع الشيخ الجليل.

حين التحقت بكلية اللغة العربية عام ألف وتسعمائة وثلاثةٍ وثمانين كانت تملأني الأفكار الحماسية وظننت أنني حين أدخل قاعات الدرس سأسمع من يتحدث عن القدس وعن المسجد الأقصى وعن مجد أمتنا وتاريخها ولكني فوجئت بمن يشرحون النحو والصرف والأدب والبلاغة، فقلت: أين هذا من تحرير القدس؟ واتخذت قرارا بالتحويل من هذه الكلية إلى كلية أخرى وبدأت أسأل عن كيفية التحويل إلى كلية أخرى مثل كلية أصول الدين أو كلية الشريعة لعلي أجد فيها ما يسد حاجتي ويروي ظمئي وكنت أذهب إلى الكلية وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى وفي يوم دخلت قاعة المحاضرات وأنا لا أريد أن أستمع إلى أحد وبعد قليل من الوقت دخل علينا هذا الشاب الرائع (محمود توفيق) وكان وقتها مدرسا مساعدا دخل بديلا عن المحاضر الاخر الذي غاب يومها ووقف على السبورة ووضع حقيبته جانبا وبدأ بالحمد والثناء وأحسست أن أنفاسه مختلفة وكلماته مختلفة ونظراته مختلفة مع أنه يتحدث أيضا في اللغة العربية؛ لكن الكلام مشبع بحرارة الحب للدين والولاء للوطن؛ كلام مملوء بالرغبة في عزة الأمة ونصرتها وتحولت حواس جميع الطلاب إلى هذا النموذج الذي لم نر مثله ولم نسمع شبيها له وصارت عبارته تخترق قلوبنا وتستقر في نفوسنا فبدأنا جميعا نلتفت إلى هذا الشاب وننصت له جيدا وراح هو يرسل رسائله ويصب في قلوبنا معاشر الطلاب من معاني الدين أعلاها ومن لآلئ اللغة العربية أزكاها حتى

أذهل القلوب وأذكر من بين مقاصده التي أتحفنا بها في أول لقاء أنه تحدث عن وجوب تحويل النية فلا يجوز لمن يتعلم لغة القرآن أن تكون نيته الدنيا لأن الدنيا حقيرة وهذا العلم شريف ولا يجوز أن تطلب حقيرا بشريف كما أنه لا بد أن تستحضر نية الجهاد وأنت تتعلم اللغة العربية فالأعداء ينفذون من خلالها إلى القرآن الكريم والحديث الشريف لقد علمنا الشيخ أن الدفاع عن الدين يبدأ من ميدان اللغة وظل الشيخ – رحمه الله – يتحدث لمدة ساعتين لا يتوقف ونحن مبهورون بما يقول فأحيا فينا شعورا جديدا شعورا مفاده: أن الحفاظ على اللغة العربية حفاظ على الوطن وحفاظ على الأمة وباب من أعظم أبواب الجهاد. وهكذا ربط الرجل قلوبنا به وستظل مرتبطة بتراثه الذي تركه للأجيال القادمة.

لقد عشت معه من وقت أن كنت طالبا في السنة الجامعية الأولى ولم يغب عن خاطري ولم انقطع عن الحديث معه منذ ذلك الوقت، فلم أجد إلا النفس الراضية، واللسان الطاهر، والقلب النقي الذي لا يحمل الا الخير، والهدوء والسكينة، والعلم الغزير، وفوق كل هذا تقوى الله عز وجل، فاللهم ارفع درجاته في عليين واجعله مع خاتم النبيين وبلغه دعاءنا وحبنا وشوقنا إليه حتى نلقاه في جنتك يا أرحم الراحمين.

رحم الله الشيخ الجليل وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وطلابه الصبر والسلوان .

كان يعلمنا الإحسان

بقلم د: أبو المنذر عمر محمد البيومي صادق

كنا يومَ كنا في الدراسات العليا ونحن نرى على أساتذتنا أبهة العلم، وجلال المنصب، نتعلم منهم ونجلّهم=، وهذا حقهم، وهم أهل حق مخلصون، ونحسبهم على خير ولا نزكيهم على الله =ولكن هذا شيء والذي رأيناه في سيدنا وشيخنا الأستاذ محمود توفيق سعد شيء آخر...

لقد رأيته أولَ ما رأيته فداخَلَ نفسي معنى الإحسان والإخبات والخشوع لله -تعالى- رأيت رجلًا قد فارقت روحه دنيانا فسكنت عالمًا آخر، كان روحًا تأخذك إلى عالم الروح، تسبح بك في أفق يرفعك إلى سماء الرضا.. ومما لا يخفى أن مقام الإحسان هو مقام المراقبة والمعرفة، وهو شيء يتكامل للمرء بعد اليقين والمعرفة، فهو ناتج عن تسليم للحكمة ويقين بها، ثم يأتي الإحسان ليتوّج هذا بمراقبة المحسن لأعماله في كل ما يفعل؛ والعلَمُ فيه قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث جوابًا عن سؤال جبريل -عليه السلام-: مَا الإِحْسَانُ؟، قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [متفق عليه]

وهكذا كان شيخنا -رحمه الله- يعلمنا هذا المقام مقام المراقبة والإحسان في كل شيء فقد كان يعلمنا الإحسان في أمور لم نكن ندري كيف نحسن فيها،

وقد كان الشيخ يحب الإحسان في كل شيء، وهذا بعض ما علمناه الشيخ أذكره لك:

*علمنا الشيخ الإحسان إلى العلم كله: كان –أحسن الله إليه– لا يحدثنا عن التعلُّم الذي نعرفه، ولا عن المذاكرة التي نعرفها: أن نحفظ المسألة أو ندقق فيها، أو نتغلغل في فهمها، بل كان يقول لنا: أحسنوا إلى ما بين أيديكم من العلم.

والإحسان إلى العلم عند الشيخ :أن تراقب فعله في نفسك، أن تتعلم المسألة من العلم فتسكنها قلبك وروحك وعملك، لا أن تسكنها عقلك فتعرفها وتطبقها على ما تدرسه فيها ثم تكون حياتك في واد، وعلمك في واد.

كان يعلمنا البلاغة التي تكون بها بليغًا في حياتك، وكيف تحسن إلى علم البلاغة في نفسك.. ولن أحرمك أيها القارئ من وصيته في هذا، فقد كان يعلمنا هذا، ويقول لنا: لابد أن تكون بليغًا في أفعالك وثيابك وطريقتك، فتعمل في نفسك على مطابقة مقتضى الحال لما تعيشه؛ فلا يكون فعلك وثوبك مخالفًا لمقتضى حالك، فانظر حال نفسك وموضعك، وتجنب زي الشهرة، وتجنب جلوسك فيما لا يقتضي أن تكون فيه."

*علمنا الإحسان إلى دراستنا الجامعية: على عادة الطلاب في زماننا المحموم بالصراع والتنافس على الدرجات والتفوق الفارغ، الذي قد تجد الطالب فيه يهمه ويشغله أن يحصل على الدرجة النهائية في المادة دون أن يتعلم منها شيئًا، وقد ينساها بعد خروجه من الامتحان، كان –رحمه الله–يقول لنا: تعلّم هذا العلم

الذي بين يديك، وابتغ به وجه الله -عز وجل- ولا تشغل بالك بالامتحان؛ فنتيجة الامتحان رزق من الله، وأنت مطالب بالاجتهاد في المذاكرة، ولست مطالبًا بالرزق، فاجتهد فيما طلب منك، ولا تنشغل عنه بالمكتوب لك. كأنه كان يتمثل لنا بقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم: " اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك."

ولست أبالغ إن قلت إنني منذ سمعت هذه الكلمة أصبحت لا أبالي بعدها بالنتيجة كيف ستكون، بل صار كل همي أن أتعلم المواد المقررة عليَّ؛ للعلم الذي فيها، وأن أحاول الإخلاص جهدي وعلى قدر نيتي.. ولا أقول لك إن النتيجة كانت سيئة بل نلت بها الحسنيين -بنعمة الله ثم بتوجيه الشيخ- فخرجت من المواد بالعلم الذي لا أنساه، وقد ثبت في صدري وروحي، وبالنتيجة المرجوة، ولا أقول هذا إلا لعلمي أنك ربما تتعجب من كلام الشيخ وتقول: كيف لا تهمني النتيجة؟ والله يرزقني وإياك الإخلاص ويمنع عني وعنك الرياء والنفاق.

*كان يعلمنا الإحسان في التعامل مع الخلق من مسائل اللغة: أذكر مرة في إحدى محاضراته-رحمه الله- في كلية الدراسات العليا أنه كان يشرح باب الإنشاء من كتاب المطول فحدثنا عن المعنى الوضعي للحرف والمعنى المستتبع له: مثل: ليت للتمني وضعًا وللترجي استتباعًا وتعاقب المعاني على الحرف؛ فقال لنا: إنكم ترون الآن أن الحرف الواحد قد يأتي لمعنيين أو أكثر غير معناه الوضعي الأصلي في اللغة، ولكنه لا يترك دلالته الأصلية بالكلية، ولا ينخلع عنها انخلاعًا، بل يبقى يدل على شيء منها رغم دلالته على غيرها، وهذا بسبب

السياق. هذا الحرف أحسن إلى جيرانه في الجملة فترك لهم شيئًا من دلالته الوضعية وتزحزح لهم عنها، وبقي مخلصًا إلى الوضع فلم ينخلع منه، وهذا يعلمنا أننا لابد أن نتعامل مع الخلق على هذه الشاكلة، لا ننخلع لهم من مبادئنا بالكلية فنذوب فيهم، وننافقهم، أو ننبهر بهم، ونستذل لهم، ولا أن نتصلب عند موروثنا أو شخصيتنا فلا نلين معهم، نحن نتعامل مع الخلق نعطيهم شيئًا تحسن به المعيشة معهم، ولا ننخلع من جذورنا لهم، وتطبق ذلك على حالك في العمل، ومع زوجك، ومع أهلك، وحين سفرك، وفي شأنك كله.

❋علمنا الإحسان إلى من يستمع إلينا: قال –رحمه الله– في مقالة له: "وما متلقي بيانك إلا بمثابة ضيفك؛ فحقه أن تقريه [تكرم ضيافته] من شريف ما أنعم الله –سبحانه وبحمده– به عليك؛ فحق عليك ألَّا تطعمه من بيانك ما يفسد قلبه، كمثل ألّا تطعمه من زادك ما يفسد جسده، هما سواء: طعام القلوب، وطعام القوالب"

أحب أن أتركك وحدك أيها القارئ تستمتع بهذه الفقرة المضيئة من كلام الشيخ؛ لتفتح لها أبوابٌ في قلبك وعقلك وروحك، ولتطبقها على نفسك وعلى بيانك في كل جملة تريد أن تقولها، أينما كنت، وكيفما كان عملك، كنت أستاذًا جامعيًّا، كنت إمامًا، كنت معلمًا، كنت صديقًا، كنت زميلًا، كنت زوجًا، تلمس الإحسان في بيانك لمستمعك، وادع للشيخ –رحمه الله–اللهم اجز سيدنا عن الإحسان إحسانًا وزد في إحسانه يا محب المحسنين.

منارة لا تنطفئ!

بقلم د: زينب عبد اللطيف كردي

بعض الأرواح تأبى الغياب، وإن فارقت الأجساد! تظل أصداؤها تتردد في العقول، وإشراقاتها تتو هج في صفحا ت العلم؛ فالفكر الخالد يظل منارة لا تنطفئ، تسطع في سجل الخالدين، شاهدة على مسيرة عطاء لم يعرف الانقطاع.

لم يكن خبر الرحيل المؤلم ليلة الجمعة ٢٩ / ٨ / ١٤٤٦ هـ الذي تسامع به طلبة العلّامة الجليل محمود توفيق محمد سعد مجرد نبأ عابر، بل كان فقدًا مزلزلاً محزنًا لكل من عرفه، كيف لا وقد كان علمه فسيحًا، وفكره متقدًا وأخلاقه نبيلة؟ صعدت روحه العلية إلى بارئها تاركة أثرًا لا يمحى في عقول طلّبته ومحبيه، وبين دفات الكتب التي أضاءتها رؤاه! وكأنما أبت شمسه أن تغرب، فاستودعت شعاعها منارة خالدة تكون شاهدة في ذاكرة الزمن على أثر لا يزول، ومعين لا ينضب، ونور لا يخبو.

تعمق شيخنا الجليل -رحمه الله - ف البلاغة وأصول الفقه بعقل نفاذ، سبر أغوار المعنى، ونثر درره في رياض الفكر؛ فلم يكن مجرد فرد في مسيرة العلم، بل فصلًا خالدًا في بنائه. وفي هذه السطور، قبسات من سيرته، علها تبقى منارة هدًى شاهدة على رجل عاش للحق والعلم، ورحل وأثره في التراث العلمي خالد.. تبحر في بلاغة القرآن، موقنًا أن أصالة البلاغة تكمن في أنها ليست زينة

لفظية، أو ترفًا أسلوبيًّا، بل روحًا للنص، ومفتاحًا لفهم المقاصد، وجسرًا يصل النظم بدرر البيان وكنوز المعاني. فلم تشغله الأشكال الخطابية السطحية عن الجوهر العميق، بل توغل في أعماق المعاني، مستخرجًا مكنونها، صائغًا رؤاه العميقة بلغة عذبة دقيقة. برز منهجه في كتب لم تكن مجرد تحليلا أكاديميا، بل مشاعل تضيء درب الباحثين عن الح قيقة، مثل المعنى القرآني: معالم تأويلية" و "في نقد العقل البلاغي"، جامعًا في كتبه بين مرونة الدرس البلاغي ورصانة الفكر الأصولي، مطوِّفًا بحور البيان، مقتنصًا كرائم المعاني وجواهر الإعجاز، كغواص ماهر، لا تغريه القشور، بل ينشد الدرر الثمينة المخبوءة في الصدف.

امتاز في علم أصول الفقه والاستنباط بعقلية نفذة، تدرك أن الأحكام لا تُستقى إلا بفهم عميق للغة، وأن الاستنباط ليس مجرد استظهار للنصوص، بل رحلة إلى أعماقها، وتفكُّرًا في روحه أو مقاصدها. فلم يقتصر في كتابه "سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة" على جمع الأدلة، بل صاغ منهجًا رائدًا يربط التحليل البلاغي بالنظر الأصولي، ليصل اللفظ بالمعنى فرؤية متكاملة، تستنبط الأحكام بروح متجددة، لا يطالها الجمود.

امتلك شيخنا المحمود -رحمه الله - علاوةً على علمه إنصافًا يدفعه لإظهار الحق، لا تأخذه في ذلك لومة لائم. تجلى هذا في تصدِّيه للرد على من نسب إلى الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- تكفير الأزهر، مفندًا ذلك الادعاء، موضحًا أن كلام الشيخ مقيد بالضوابط الشرعية، وليس حكمًا عامًّا على الأزهر وعلمائه. فقد دافع عن الحقيقة، لا عن الأشخاص، ووقف سدًّا منيعًا أمام تحريف الكلام وبتره، مبينًا أن العلم أمانة، وأن الإنصاف شيمة أهل الفضل. لم يكن هذا الموقف

استثناءً، بل نهجًا راسخًا في قراءته للنصوص، مؤمِّنًا أن النزاهة العلمية تقتضي فهم السياقات، لا اجتزاء العبارات واستغلالها خارج مواضعها.

أما على ا لمستوى ا لإنساني، فتجسدت روح المعلم المتواضع والعالم السخي، حاضرة في أجمل تفاصيل المسيرة العلمية لكاتبة هذه السطور، يوم وقف أمامي في مناقشة الدكتوراه، لا ممتحنًا متحفِّظًا، بل موجهًا نصحًا، يضيء الدرب بنور بصيرته، ويفتح آفاق الفكر بأسئلته العميقة. ولم تقتصر نصائحه على كلمات عابرة، بل تنضدت في قبسات من نور، لا تزال محفوظة حية، شاهدة على سخاء، ورحابة صدر. أذكر كيف كان يصغي إلي حين أراجعه في مسائل الرسالة، لا يستعجل الجواب، بل يمنح من وقته ما يكفي لرؤية الأمور بوضوح. حديثه مدرسة، وصمته وقار، ونصحه مشكاة تستضيء به العقول.. ولن أنسى تلك القصاصات التي أهداني إياها بعد المناقشة لتضيء الطريق الذي سلكه في حواره العميق، فقد كان يهمه أن يفهم الباحث بعد ذلك المجلس العلمي ما كان يرمي إليه. ولم تكن تلك الملاحظ مجرد أوراق، بل دروسًا موقعة بحبر الحكمة، جاءت في خمسين صفحة مطبوعة، تتجلى فيها لمسات المراجعة بالقلم، شاهدة على الإخلاص في العطاء، مذكِّرة من يراها ويقرؤها بأن العلم أمانة، وأن العالم الحق من يترك أثره في قلوب طلابه قبل أن يخطه في كتبه.

رحمك الله أيها المحمود، وجعل لك من معاني الحمد والتوفيق والسعادة التي حملها اسمك أوفر الحظ والنصيب في دار الخلود!

وإن غاب جسدك -شيخنا الجليل- عن الدنيا، فأثرك باق، في كتب سطرتها، وعقول أنرتها، وأفكار نقشتها في سجل العلم الخال.. ومن الوفاء أن نحفظ علمك، ونسير على خطاك، ونعرِّف الأجيال القادمة بسيرة متألقة عطرة سنية، لم تكن مجرد اسم في تاريخ العلم، بل منارةً أضاءت، وما تزال تمتد، مبدِّدة حلكة الجهل، وهاديةً السائرين في دروب المعرفة

اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله، وأسكنه الفردوس الأعلى!

ليس كلُّ الفقدِ واحدًا

بقلم د: عصام فاروق

نعلم جميعًا أننا سنفقد أحباءنا، وأهلنا، وأصدقائنا، وأساتذتنا، ومن نعرف ومن لا نعرف، أو أنهم سيفقدوننا لا محالة؛ لأنها سنة الله في خلقه، فقد كَتَبَ سبحانه الفناءَ على جميع خلقه، وكَتَبَ البقاءَ لنفسه، مصداقًا لقوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن ٢٦، ٢٧]

لكن ليس كلُّ الفَقْدِ واحدًا، فتشتد وطأتُه حينما يكون لعاملٍ من عوامل الطمأنينة في الأمة، وصمامٍ من صمامات أمانها، حينما يكون لعالمٍ من علمائها العالمين العاملين الذين نلجأُ إليهم في الملامات، ونهرع إليهم في المُشكَلات، وكان سيدُّنا الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق- رضي الله عنه- من هؤلاء؛ فقد كنتُ- على المستوى الشخصي- أفزع إليه حينما أقع في أمورٍ مشتبهاتٍ لا يستبين لي أبيضُها من أسودِها، ولا حسُنها من سيِّئِها؛ فتنتهي المكالمةُ بيننا وقد استراح قلبي لما وجهني إليه وأَظْهَرَ أمامي صوابَه من خطئِه، وهو في حديثه كله متسلحٌ مُتشبعٌ بما قاله اللهُ – تعالى- في كتابه وما بيَّنه رسولُه صلى الله عليه وسلم، فتخرجُ من حديثه متشبعًا بجرعةٍ دينيَّةٍ، روحيَّةٍ، عقليَّةٍ، نفسيَّةٍ، حياتيَّةٍ لا مثيل لها، وتتعجب عجبًا شديدًا من استشهاداته بآيات كأنك تتعرف عليها للمرة الأولى، وتقول: إيهٍ، لله درك كيف فهمت منها هذا المعنى، وكيف توظفها في ما نحن بصدده هذا التوظيف.

وإن أردتُ أن أتحدث عن شيخنا- عليه سحائب الرحمة والرضوان- بما يناسب المقام والمقال فإنني سأحاول أتمثل بقوله تعالى: (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا) [يوسف ٨١]، وما شهدتُه منه غير قليل.

بداية معرفتي بشيخنا بدأتْ في الكليةِ المباركةِ كليةِ العلوم الإسلامية والعربية للطلاب الوافدين بجامعة الأزهر- وقتئذ كنتُ وكيلًا لها للدراسات العليا والبحوث- وقد انتُدب شيخنُا لتدريس مادة: (دراسات معاصرة في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية) فوجدتني أمام عالمٍ عاملٍ لا يُشق له غبار، فقد كان يحضر قبل موعده لا يتخلف، وإن حَدَثَ يبعثُ برسالةٍ تفوح منها لغة الأدب والرُّقي أكثر من لغة الاعتذار عن الحضور، فتيقنتُ أنني أمام أستاذٍ يحمل كل المعاني الحقيقية لكلمة الأستاذية؛ التزامًا، وعلمًا، وفكرًا، ونتاجا، وأدبًا، وتواضعًا.

كان حينما يشرفني في مكتبي يأبي أن يشرب شيئًا، فكنت أمازحُه: ((يا شيخنا، والله فلوسي حلال)) فيبتسم ويأبى أحيانًا، ويبتسم ويرضى حينًا، وكنت أعلم أنه في هذا الحين حينما يرضي يكون جبرًا لخاطري لا أقل ولا أكثر.

وكنتُ أقول للطلاب الذين يدِّرس لهم- في القاعة- والله لولا أعبائي الإدارية لما ترددتُ في الحضور والاستماع إليه والإفادة مما يقول، وما كنتُ أستنكف أبدًا من هذا، لهاجسٍ كان بداخلي أني سأندم على عدم فِعلِ ذلك يومًا- وقد حدث الآن بالفعل فوقع ما كنت أخشاه بلقاء الشيخِ وجه ربه الكريم- وما

كنت أجامل الشيخَ في قولي هذا، ولا أقول كلامًا مفرغًا من مضمونه، وسامَحَ اللهُ الإداريات على تضييع هذه الفرصة العظيمة التي لم أفد منها حق الإفادة .

كنت حينما أحدثه أحس بأنني أمام رجل نَسيجَ وحدِه، لا يشبه كثيرًا ممن تكلمنا أو نتكلم معه، لا في طريقة تفكيره، ولا في طريقة صمته، فكنت أحس في صمته بلاغةً تظهر بعض آثارها على لغة جسده، كأن تلقى منه نظرة اعتراضية أو تقريرية أو استنكارية، ولعل شيمة الصمت البليغ هذه لم نعهدها كثيرًا في عصرٍ كَثُر فيه المتكلمون، وزاد على حدهم فيه الثرثارون الذين يهرفون بما لا يعرفون.

كما كان يتمتع شيخُنا بطريقة فريدة في الإنصات، حتى وإن كانت الأفكار لا تحمل العمق الذي يمتاز به، أو الأهمية التي كان يوليها أحاديثه، فتنطلق في الحديث وتسترسل وإذا به يوقفك سائلا أو مستوضحا، فتعلم أنه لم يفته في حديثك كلمة ولا كان يعطيك أذنه دون عقله، وهذا شمية الكبار الذين تسعنا قلوبهم قبل آذانهم .

أما عن ورع الشيخ وتقواه فحدث ولا حرج- نحسبه كذلك والله حسيبه- فأنت أمام رجل فَهِمَ الدنيا، وعَرَفَ حدودَها، وخَبَرَ كنهَها، وأعتقد أن واحدا من أسباب هذا التكوين الفريد عنايته الشديدة بالمعنى القرآني الذي أدركه، وتمثله، واتخذه منهج حياة قبل أن يكون موضوعا لكتاب أو عنوانا له، فبتلك العناية فهم المعنى الحقيقي لوصف الدنيا بمتاع الغُرُور، في قوله تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [آل عمران ١٨٥]، كما تجده يُقدِّرُ الدلالة الحقيقية لكلمة الحيوان وصفًا للدار الآخرة، (وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

[العنكبوت ٦٤]، ومن مشاهد الورع التي رأيتها وأشهد عليها أنه ما كان يبيح لنفسه أن يستغل أو يستعمل شيئا خاصًّا بالمال العام، كتصوير أوراق المحاضرات التي كان يكتبها بعناية ويعدها إعداد من لم يدرسها من قبل، أو استعمال أقلام الكلية أو غيرها مما يراه البعض حِلًّا حَلالًا بل كلأً مباحًا، نسأل المولى العفو والعافية.

ومن مظاهر هذا الورع كذلك عدم الحرص على الظهور في وسائل الإعلام، ولا أعلم كيف ذهلت وسائل الإعلام المتعددة - تليفزيون وإذاعة وقنوات فضائية- عن هذا الشيخ صاحب العلم الوسيع، في الوقت الذي تتيح فيه الفرصَ لأبعاض العلماء وأنصاف الدعاة؛ ليطلوا على الناس بكلام مكرور سمج .

وأكثر ما يثير تعجبي الآن، كيف كان يستمع شيخُنا إلى ما يقوله أمثال هؤلاء؟ وكيف كان يُقيِّمه في ميزان العلم والعقل؟ أم تراه كان لا يلقي بالًا لمثل هذا الذي يقال، وإن كنت لا أعتقد ذلك، فقد كان – عليه رحمات الله- مستمعًا جيدًا ومنصتًا منتبهًا غاية الانتباه لما يقال، صغيرًا كان أو كبيرًا، وقد كان يعطي لأمثالي وأنا في منزلة تلاميذه سمعَه، ولا يُقاطع- إلا محفزا أو مستفسرًا- حتى تخرج فكرتي كاملةً غير منقوصة، ثم يأتيك منه الرد العجيب!

ففي مثل هذه المواقف دائمًا ما يحاول مُستمعك أن يزايد عليك بأن الفكرة غير جديدةٍ، أو أنه فكَّر في مثلها في شرخ شبابه، أو يضيف إليها ما يعكر عليك صفوَ سبق الفكرة، ويشهد اللهُ أنَّ الشيخ لم يكن يفعل، بل كان يستفهم عن

الأفكار وكأنَّ الكلام لم يدر بخلده، أو كان يضيف إلى الأفكار ما يصقلها ويحفز صاحبها لا أن يقتلها أو يبهتها ويعكر صفوها على قائلها.

وأتذكر يوم أن حدثته عن أنه لا يوجد إلى يوم الناس هذا شرحًا مكتوبًا للخصائص، فتعجب وكأن المعلومة يسمعها للمرة الأولى- وهو بها عليم- وسأل: لا قديمًا ولا حديثًا؟ فأخبرته: أنْ لا، إلا شرحًا كان موجودا ثم فُقِدَ بحسب ما ذكرت بعض التراجم، فشد على يدي لإخراج الشرح، ودائما ما كان يشير إليّ وغيري إلى أننا على ثغر من العلم عظيم لابد أن نصبر فيه ونحتسب لأن طريقَه صعبٌ وعرٌ، وكيف لا؟ وهو طريق الجنة المحفوف بالمكارة، في حين أن الطرق الأخرى مفروشة بالورود والرياحين، لكن شتان ما بينهما !

لقد كان يمثل الشيخ التواضع الفطري، وآخر رسالة كانت من فضيلته لي يوم ٢٢ من فبراير ٢٠٢٥ أي قبل وفاته بخمسة أيام - عبر الواتس- تحوي كلماتها عبق هذا التواضع الجم، وكل كلامه كان كذلك والله- جاء نصها هكذا :

(سيدنا العصام)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هل لك أن تتكرم بإرسال المحاضرة التي ألقيتها في الجامعة الماليزية مسموعة ومكتوبة ولك الشكران؟ وهل لك أن تنشرها على صفحتك؟ ((

فدعوت الله له وأن يجعلني عند حسن ظنه، وأن يديمه لي داعما ومشجعا ونبراسا، ووعدته بذلك.. لكن الله قدَّر أن يستأثر به قبل وفائي بهذا الوعد.

أعتقد أننا في حاجةٍ ماسَّة إلى دراسة جوانب حياة هذا الشيخ الكريم المُكرَّم - طفولةً وشبابًا وشيبةً- حتى نقف على عناصر تكوين هذه الشخصية الفريدة في عصرنا هذا، وأن نحرص على التمثل بتلك العناصر في أنفسها وأبنائنا، فهي شخصية تشبعت بالمعاني القرآنية والأخلاق النبوية، فهذا رجلٌ رأيناه وخبرنا ما عنده، رجل عاش في عصرنا، رجل تأثر بكل ما نتأثر به من عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية، لكنه كان غريبا كسائر الغرباء، فطوبى له وطيب الله ثراه الطاهر.

عرفته أستاذا قديرًا

بقلم د: علي إبراهيم محمد

عرفت أستاذنا الحبيب الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر عضو هيئة كبار العلماء عرفته أستاذًا قديرًا متمكنًا لا يقف عند تخصصه الدقيق البلاغة والنقد بل تعمق في كثير من العلوم وعلى رأس هذه العلوم علوم المقاصد وفي ذروتها علم أصول الفقه، وحسبك من تمكنه في الأصول أن تقرأ كتابه دلالة الألفاظ عند الأصوليين، فأنت حينئذ تقرأ لأستاذ الأساتيذ في أصول اللغة، وأستاذ الأساتيذ في أصول الفقه، وأستاذهم في البلاغة والنقد.

اقتربت من الرجل في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجلست معه أكثر من مرة في قسم الدراسات العليا في كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة أم القرى، وأفاض عليَّ من علمه وخُلقه وتواضعه، عرفته صمته فكر، ومنطقه حكمة، متواضع معتز بذاته يمتلك ناصية البيان نطقًا وكتابة، تشغله أمور أمته أكثر من أمور نفسه.

التقيته في القاهرة مرتين: الأولى في محاضرة ة في كلية أصول الدين بالقاهرة حول واقع البحث العلمي وسبل النهوض به، التي كانت في يوم الاثنين السادس عشر من شهر ديسمبر عام ٢٠٢٤م، والمرة الأخرى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر ديسمبر عام ٢٠٢٤م في قسم البلاغة والنقد في كلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات في القاهرة بحضور رئيسة القسم الدكتورة شيماء توفيق وبعض عضوات هيئة التدريس وإحدى الباحثات التي يشرف عليها في رسالتها للدكتوراه بالاشتراك مع الدكتور سلامة داود.

كنت أتابع صفحته على الفيسبوك بعناية، وأقرأ كل ما يخطه بنانه الشريف، وتواصلت معه عبر هاتفه النقال غير مرة فوجدته مهمومًا بالحال الذي صار إليه البحث العلمي، وكان يتابع صفحتي، ويقرأ كل ما أكتبه وكان يعلق أحيانًا غير قليلة على منشوراتي، وكنت عندما احتد على الفسدة والفساد أراه مشفقًا عليَّ أيما إشفاق فكان يُهدئ من روعي ويوصيني بتركهم لله رب العالمين.

في لقائي الأخير معه حاورته حول مسيرته العلمية، وبعض الأمور المتعلقة بواقع البحث العلمي المتصدع في قطاع العلوم العربية والإسلامية، وكان الرجل – رحمه الله – مهمومًا همًّا شديدًا لهذا الواقع المرير، وكان قد بث جزءًا من هذا الهم الثقيل في المحاضرة سالفة الذكر لدرجة أن بعض وجوه المنتفعين من نشر هذا الضعف بكرسي ظهر عليها الوجوم، بل لم يكتفوا بنطق الحال فنطق اللسان بذلك.

كما بث الشيخ هموم هذا الواقع أثناء حواراتي معه في المكالمات التليفونية أو اللقاء الأخير هذا. أخبرني الشيخ أنه من تسعينيات القرن الماضي وهو في عزلة عن محيط الفساد العلمي، فلم يشترك في مناقشات سوى التي يشرف عليها، ولم يحكم بحوثًا، واكتفى بنشاطه البحثي والتدريسي والإشراف على من يُسند إليه من الطلاب.

أشهد أن أستاذنا لقي ربه بعد أفرغ كل ما في جعبته من أجل النهوض بالأزهر الشريف وجامعته، وبذل كل ما وسعه من نصح، وقدَّم عصارة فكره للنهوض بالبحث العلمي في الأزهر، وأبرأ ذمته مما يحاك لإضعاف أبناء المسلمين من إضعاف مستواهم العلمي والنخر في عقولهم بأدوات من بين أنفسهم.

كيف رأيته ؟

بقلم د: عبد الرحمن فودة

رأيت الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله وقد كان إلى أواخر أيامه يجلس بين يدي الدكتور أبو موسى في مجالسه العلمية بالأزهر الشريف. وكان يستمع لتلاميذه وينصت. وكان يحضر الرسائل العلمية مستمعا ومباركا لطلابه.

وفي كتاباته ترى نفس الرعيل الأول وتحس الإخلاص يخالط المعلومة التي يسوقها للقارئ.. وكان محبا للسلف متأثرا بأخلاقهم يغوص في أعماق سيرتهم العطرة ويقف على جزئيات دقيقة في وصفهم لا تدرك إلا بفتح من الله وسمته وصوته سمت العلماء الربانيين.. كان حريصا على أن يبث في طلابه العلم والأدب، ويحرص أن يكون تأثر طالب العلم بشيخه لا في مظهره ولا في الانحناء بتقبيل يده وإنما أعظم ما يقدمه الطالب لشيخه هو حمل علمه ونشره في الآفاق ولما كان في هيئة كبار العلماء ما رأى شيئا يحتاج إلى توضيح وبيان إلا سارع ببثه بين الناس على الملأ، ووقفته الأخيرة أمام كلام وزير الأوقاف خير شاهد ودليل على الصدع بالحق وبيان خطأ الوزير دون مواربة.. لم تأخذه في الله لومة لائم هكذا العالم الرباني لا يدع المواقف تمر هكذا ولا يؤخر البيان عن وقت الحاجة شأن شيخنا رحمه الله، هو شأن أستاذنا أستاذ الأستاذين الدكتور محمد أبو موسى.. إذ تعلمنا من فضيلته مع الدقة العلمية التواضع العالي والصدع بالحق

ومقدمات كتبه حفظه الله شاهد ودليل على هذا.. واقرأ إن شئت مقدمات الحواميم.. مكن أن تلتقي بشخص لقاء أو اثنين، دون أن تخالطه كثيرا فيكون له أعظم الأثر في عقلك وقلبك، هكذا كانت لقاءاتي القليلة بالعالم الجليل والفقيه البلاغي المميز فضيلة العلامة الراحل محمود توفيق سعد رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.. أما لقاءاتي مع كتبه فهي كثيرة وفيرة، كان آخر ما كنت أقرؤه قبل وفاته رحمه الله كتاب الرجال قوامون على النساء، مدارسات إيمانية أخلاقية في ضوء علم البلاغة العربي.. وكان محورا رئيسا في دروسي الرمضانية هذا العام وسائر كتبه رحمه الله كانت نبراسا أخلاقيا وعلميا وزادا ثقافيا دسما.

أفدت في مرحلة الدكتوراه كثيرا من كتابيه (صور الأمر والنهي في القرآن الكريم) و(مسالك العطف بين الإنشاء والخبر). ومن الأدلة على عمق نظراته البلاغية أن تقف على كتابه (أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب) بل ونظرته الإصلاحية للمجتمع وصدعه بالحق حيث ختم كتابه هذا بفاصلة بعنوان رسالة إلى أحفاد أبي لهب وإلى أعدائه.. تحدث في آخرها عن صور الرضا بالمنكر.

لا ينفك العالم أو ينفصل عن قضايا أمته أيا كان تخصصه.. فالعالم يقدم علما للأمة.. ويقدم قدوة لطلابه وأسوة ثم يقف مواقف الحق إزاء قضايا أمته عقيدة وعبادات وأخلاقا وآدابا، هكذا كان الشيخ الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله وأجزل له المثوبة وأنزله منازل الأبرار.

مهمة العالِم في الحياة

بقلم د: محمود سيد حسين فاوي

إن الحديث عن فضيلة الدكتور محمود توفيق سعد لا يُمْكِنُ استهلالُه بمَعْزِلٍ عن شيخ البلاغيين والأزهرِ الشريفِ، وكيف ذلك وهو غرسُ الأزهر الشريفِ، ثم هو غرسُ شيخِنا فضيلة الدكتور محمد أبي موسى؟ عرفت فضيلة الدكتور محمود توفيق رحمه الله في الجامع الأزهر الشريف، في درس شيخنا العلامة الدكتور محمد أبي موسى، كان ذلك منذ عامين، يوم علمت أنه يُلقي درسًا في شرح دلائل الإعجاز بالرواق العباسي، يوم الأحد من كل أسبوع بعد صلاة الظهر.

فعزمت منذ ذلك الحين على السفر صباح كل أحد من الفيوم إلى الأزهر لأجلس، لا أقول مستمعًا وحسب، بل أجلسُ مشدوهًا أتحسسُّ كلامه حرفا بحرف مما كان ينزل من بيانه في صدري كالماء البارد على الظمأ، وكأنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها أستاذًا لجلال وروعة ما رأيت في شيخنا أبي موسى من سمت العلماء وهيبتهم، ولأنني سمعت به كثيرا قبل أن أحضر أول درس بين يديه، وعرفت أيضا أنه كان ذا منزلة وشأن كبير عند شيخ العربية الأستاذ محمود محمد شاكر، كل ذلك جعل مني السمعَ والبصرَ في شغل عظيم يوم أن جلست للمرة الأولى، إذ أستمع فأجد في كلماته بيانا وحُجة، وبجانب ذلك أجدُني أُحَمْلِقُ

في تقاسيم وجه وأراقب كل حركة وإشارة تصدر عنه وأنا بين الجلوس، حتى إذا أدار بصره فينا أخفضْتُ رأسي أو انحرفت مختبئًا خلف الجالس أمامي، حتى لا يراني على تلك الهيئة فيظن بي بلاهة أو شيئا من هذا فأُطرد من المجلس! ولِمَ لا؟ وفي داخلي ألف صوت يهمس: نعم هو، حقا نعم هو، هذا شيخ البلاغيين محمد أبو موسى، وأنا لستُ في حُلم، وإنما أنا في الجامع الأزهر أجلس في درس شيخ البلاغيين، أسمعه وأراه. !

وفي أحد مجالس الشيخ وجدتُ أننا جلوسٌ مع رجل شارف السبعين يستمع ونستمع معه لشيخنا أبي موسى، فلفتني تواضعه أول الأمر لسنِّه فحسب، لم أكن أعرف من يكون، حتى إذا انتهى الدرس مِلتُ إلى أقرب الجلوس مني وهمستُ له: من يكون؟ فأدهشني ما سمعته: هذا فضيلة الدكتور محمود توفيق سعد، أستاذ النقد والبلاغة بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء، وزادت دهشتي بل زاد إكباري وإجلالي وإعزازي لهذا الرجل العظيم، الذي علمني للوهلة الأولى بلسان حاله ومَقامه كيف يكون التواضع في مشهد لم أسمع به ولم أره إلا في مجلس علم يضم قمتَّيْن من القمم، وركنين مكِينَيْنِ من أركان الأزهر الشريف.

وقد زاد تعلقي بدرس شيخنا أبي موسى، فقد صرت أؤمل نفسي بأنني سأرى الدكتور محمود توفيق، وربما أدنو منه فأتحدث إليه طالبا نصحه ووصاته لي، لكنني كنت شديد الحذر من ذلك خوفا أن يُضايقه سلوكي ذلك أثناء سيره بجوار شيخنا أبي موسى، ومنذ ذلك الحين زاد تعلقي بالشيخين

الجليلين أكثر، وصار الحديث عنهما وفيهما من أمتع الأحاديث وأنفعها وأحبها إليَّ، وعلى أثر هذا التعلُّق زدتُ من تكاليف سفري أن أمرَّ على مكتبة وهبة في عابدين قبل صلاة الظهر بنحو ساعة، لأبحث عن كتب هذين الشيخين الجليلين فأتخيَّر منها على قدر ما أدَّخره لموعدي مع المكتبة الذي صار محطة رئيسة يوم الأحد في طريقي إلى مجلس شيخ البلاغيين، ثم أستأنف المسير إلى الأزهر وأنا أشعر أنني أحمل قطعة من الشيخين الجليلين، فكانت سعادة بالغة لا يعدلها امتلاك شيء آخر الدنيا، ولم يمر عام حتى أتم الله عليَّ نعمة جليلة، وهي اقتنائي كل ما وجدته من كتب الشيخين في مكتبة وهبة، فزادت قراءتي، وزاد تعلقي بهما وبالأزهر، خاصة بعد أن انتهيت من مناقشتي دكتوراه الدراسات الأدبية في دار العلوم، التي عزمت من حينها بمشيئة الله وتوفيقه ألا يحول بيني وبين مجلس الشيخ حائل، حتى صار حرصي على ذلك كأنه حرصٌ على الحياة نفسها، وعلى أثر ذلك أذكر أنَّ أحد هذه الأيام وهو يوم الأحد (٨ شعبان ١٤٤٥ هـ/ ١٨ فبراير ٢٠٢٤ م) الذي وافق موعد درس الشيخ أبي موسى، كنت في المستشفى أستقبل مولودتي (بيان) والتي لم أُشغل بها في ذلك الظرف قدرَ شغلي بالشيخ ودرسه الذي سَتُفوِّته عليَّ بيان بعد أن كنت قد قطعت عهدا بألا أتخلف عنه أبدا إلا أن أموت! وقد سمَّيتُها (بيان) تيمنًّا بعِلْمِ شيخنا الذي عليه يدور مجلسه، بل وكل كتبه التي تنطلق كلها من التأسيس لفهم البيان الأسمى (القرآن الكريم) ثم البيان النبوي الشريف، فالبيان الأدنى من كلام العرب منظوما ومنثورا.

ولم أزل أطمح إلى الحديث إلى فضيلة الدكتور محمود توفيق، وقد كان لي ذلك من توفيق الله، بعد أحد مجالس الشيخ أبي موسى، فقد كان من عادة أكثر

الطلاب أن يقوموا للسير بجوار الشيخ متحلِّقين من موضع كرسيِّه بالمجلس في الرواق العباسي حتى خروجه من الجامع، فحال هذا الزحام بين فضيلة الدكتور محمود توفيق وبين السير بجانب الشيخ متأبطًا يُمناه، وما إن رأيت ذلك حتى دنوت منه مسلما عليه وأنا أمد يدي لأصافحه، فتوقف يُصافحني ويرد عليَّ التحيَّة بأحسن منها بِشْرًا وحفاوة واحتفاءً بي احتفاءَه بأحد أخص طلابه، مما ضاعفَ من خجلي، فاشتدَّ عليَّ الموقف أمام هذا الذوق والخلق الكريم، خاصة بعد ما عرفته عنه، وما قرأته له في بعض كتبه فرأيته أستاذ كبيرا وعالما جليلا، أو لعله لاحظ مني اضطرابا من الوهلة الأولى فأراد رحمه الله أو يُطمعني في الإقبال عليه لأقول ما في نفسي، فبادرته بعدما استأنف السير بخطوات متئدة لمنحي فرصة للحديث، فقلت معرفا بنفسي: محمود فاوي، طالب دكتوراه بدار العلوم جامعة الفيوم، فرحب بي داعيا بالتوفيق والسداد، فبادرته بسؤال عن إشكالية في أطروحتي للدكتوراه عن المتنبي، فرد عليَّ بتوجيهي إلى قراءة مظان هذه المسألة في مصادر عن دراسة المتنبي سرد لي بعضها، وقد نصح لي بألا أدع القلم من يدي أبدا، وأن تكون القراءة دائما مصحوبة بالقلم للتعليق وحفظ الشوارد والأفكار وتدوين كل ثمرات هذه القراءة في وقتها لحين الرجوع إليها، لعل فكرة مما دوَّنته تستوي كتابا أو علما نافعا فيكون صدقة جارية بعد ذلك، ثم سكتَ، فلم أزِدْ على ذلك خشية أن أرهقه، إضافة إلى أننا كنا قطعنا هذه المسافة من الرواق إلى خارج الأزهر حيث تقف السيارة التي تحمل شيخنا الدكتور محمد أبو موسى، وقد كانت هذه هي المرة اليتيمة التي تحدثت فيها إليه رحمه الله، وسمعت منه، بعد أن رأيته أكثر من مرة في مجلس شيخنا، وكنت آمل أنني سأنعم بالجلوس بين يديه في مجلس له أيضا ضمن برنامج شرح كتب التراث الذي يُعنى به الجامع الأزهر.

أما عن أثره في نفسي، لا سميا هذا الحديث الذي مر في لحظات عابرة، فهو أثر كبير، ولا عجب، فقد عرَّفني الطريق، وكيف أسلكه، وذلك من أنفع ما يبلغه طالب علم من أستاذه، وهو أن يضعه على الطريق، وقد قرأت في ذلك عن الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله قوله: "إنَّ الطريق إلى الله طويل، وليس المهم أن نبلُغَ آخرهُ، ولكن المهم أن نموت ونحن على الطريق" وحسبي منه رحمه الله أنه دلني على الطريق، وعرفني كيف أسلكه، وأن لا سبيل إلى ذلك إلا من طريق اللغة العربية، التي نزل بها القرآن الكريم، الذي نزل ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكل ما ورد في القرآن يدور في فلك هذه العبارة الجامعة (ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور)، والدكتور محمود توفيق خيرُ من تمثّل هذا الرسالة وعمل بها وعاش لها بلسان حاله ومقامه قبل لسان منطقه، وكذلك في كل ما كتب، فلم يكن العلم عنده مجرد معلومات يُلقنها الأستاذُ طلابَه، وإنما العلم عنده رحمه الله كان سلوكا فاعلا في عقول الطلاب فعلَ النور في الظلام، ليتبيَّن طالب العلم ذلك الطريق إلى الله، طريق النور الذي جاء القرآنُ والأنبياء والعلماء الذين هم ورثه الأنبياء من أجل إخراج الناس من الظلمات العديدة إلى هذا الطريق الواحد المستقيم طريق النور، وكل أستاذ مهما علا شأنه وسمت به درجته لا يسلك مع طلابه هذا السلوك، أي لا يُخرجهم إلى النور فليس من العلم في شيء، إنما هو شيء آخر، قد يكون دجَّالا، أو مُحتالا، أو غير ذلك، لكن العالم الحقيقي الذي عرفته من فضيلة الدكتور محمود توفيق ورأيته متمثِّلا إياه هو فقط من يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، الذي هو عمل الأنبياء ورسالة ورثتهم من بعدهم، وقد سمعت في مجلس شيخنا أبي موسى قوله أن الأستاذ الذي يَخْرُجُ طلابُه من درسه بمثل الحال التي دخلوا بها فالأكرَمْ له أن يجلس في بيته.

وأذكر موقفا قرأته في هذا المعنى تمثَّله الدكتور محمود توفيق رحمه الله مترْجِمًا عن تأصُّل ورسوخ هذه الرسالة في نفسه، وهو مما قرأته للأستاذ الكريم حاتم سلامة نقلًا عن الأستاذ الدكتور محمد سعد قاسم أستاذ الحديث الشريف وعلومه بجامعة الأزهر، وهو أن الدكتور محمود توفيق قد دُعي لمناقشة رسالة، "ولما دلف للمنصة شعر وتبيّن له إصرار المناقش الآخر على تضييع الباحث وإفشال رسالته، وكان هذا المناقش صاحب سلطة ومنصب بالجامعة وخضع له المشرف على الرسالة تزلُّفًا له وخشية منه..." فلما جاء دور الدكتور محمود انتصر للطالب وأخذ يرد على نقد المناقش الآخر ويفنِّده ويبين عواره حتى انقلبتْ القاعة، ثم أخذ يُبيِّن مميزات الرسالة بما لم يُدركه الباحث نفسه، ولما جاءت المداولة وجد إصرارا آخر من المناقشين على بخس الطالب حقه وإسقاطه، فقال "لن يحدث، ولن يكون أبدا ما تُريدان، وإلا فاعتبراني منسحبا، وسأخرج وأعلن الأمر للعلن، ولن أسكت وستكون فضيحة.. فرضخ المناقشان أمام هذه الصلابة القوية في الحق من رجل يعشق الإنصاف والعدل."

فأيّ رحمة هذه بطالب علم! وأيُّ زادٍ لطالب العلم فوق هذا؟! وأي انتصار هذا للمساكين أمام من لديهم سلطان الأستاذيّة والمنصب الأكاديمي وسطوتهم على من لا حول لهم ولا قوة، من طلابهم؟! إنما هي الرحمة بطالب علم في حاجة إلى النور، خاصة طالب الدراسات العليا الذي جاء ليتعلم البحث والدراسة والنظر ليَخْرُجَ من الظلمات إلى النور، فإِنْ هو وجد الظلمات فيمن يقومون على تعليمه؛ ظلمات التسلُّط والتعنُّت والكبرياء والسلطان، فأيُّ نورٌ يخرج إليه بعد ذلك؟ وقد عُلّقتْ له مشانق النقد والتجريح (وأحيانا والله السّب

المقذع كما رأيت بعيني في مناقشة) إن وجد طالب العلم كل ذلك فجدير بشهادة الماجستير والدكتوراه أن تكون شهادة وفاة ووأدْ للباحث الذي حاول هذا الطالب أن يكُونَه، ولَيكُونَنّ آخر عهده بالدراسة هو تلك المناقشة التي نُسِف فيها نسفا.

والدكتور محمود توفيق سعد رحمات ربي تغشاه كان يعلم ذلك، فهو مُربٍّ جليلٌ فضلًا عن كونه أستاذًا جليلًا، وهو قمة من قمم صناعة العقول الباحثة التي يلتمس بها تقويم هذه الأمة وبعثها من جديد وإخراجها من الظلمات إلى النور، وكان لديه من بُعد النظر ما يتجاوز به مجرد رسالة قد لا ترى النور مرة أخرى، كما هو حاصل حقيقة في جامعاتنا! لكن صاحبها قد يكون نورًا إذا أحيا فيه أستاذه شيئًا يشحذ به همته لما في قابل أيامه، وهذه هي مهمة العالم في الحياة.

إنَّ هذا الموقف الجليل الذي قرأته عنه في شأن طالب علم جعلني أستدعي من القرآن الكريم ما أنزله ربُّنا عز وجل عتابا في النبي صلى الله عليه من أجل (طالب علم!) لَمَّا أنزل تبارك وتعالى (عبس وتولى) في عبد الله بن أم مكتوم الذي ذهب يلتمس علما يُحدّثُه به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فانشغل عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم أثناء دعوته صناديد قريش، والموقف جدٌّ شديد وخطير، وكأن هذا الذي جاء يطلب من علم النبي صلى الله عليه وسلم، ويبحث عن الحق ويتحرّى النورَ كان عند الله تعالى في كَفَّةٍ (بهذا الموقف) تطيشُ بمن صُمّتْ آذانهم عن دعوة النبي صلى الله عليه حتى أنزل فيه قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة. فأيّ رحمة

هذه يا سيّدي بطالب علم كنت بها مثالًا حيا، وإنما هي ما عشت به من إرث النبوَّة (لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور).

فاللهَ أسأل لشيخنا الجليل فضيلة الدكتور محمود توفيق سعد أن يقسم له من رحمته بقدر رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويجزل له الأجر العظيم من جنس خلقه ورحمته بطلابه، وأن يرضى عنه ويرفع في الفردوس الأعلى درجته... آمين.

من أعلام النبلاء

بقلم: رضا راشد علي

لقد أفضى شيخنا دكتور محمود توفيق سعد إلى ربه، وفرغ مما نحن فيه، وأصبح الذي نحن فيه لا يشغله في قليل ولا كثير، ولا في قبيل ولا دبير، ولهذا فلسنا نكتب عنه ما نكتب لنزيده شيئا هو ليس في حاجة إليه. فلئن كان رحمه الله مستغنيا عن الثناء والإطراء في حياته (بزهده في دنيانا وهو يعيشها بيننا)، فلهو الآن الأشدُّ استغناءً عن الثناء بما له إن شاء الله عند ربه. وإنما نكتب عنه ما نكتب اقتباسا من أنوار قلبه (خلقا) وعقله(علما).

لقد أفضى الرجل إلى ربه على غير توقع، فكانت الفاجعة بفقده شديدة، وكان المصاب به جللا، ولكنها الدنيا بخداعها وغدرها، وعزاؤنا فيه أنه عاش ما عاش حاملا للأمانة المنوطة بعنقه بحقها، غير مفرط ولا مقصر فترك بموته ثغره لا يستطيع الوقوف عليها غيره، ولا يسد أحد مسده فيها.

لقد عاش الرجل أعوامه التي تربو على الخمسة والسبعين عاما (هجريا كما كان يحب رحمه الله). عاش مكبا بعين عقله وبصيرته على أسفار العلم، يكشف عنها غطاءها ويغوص في أعماقها، ويسبر أغوارها ليري طلاب العلم مكنون جمالها ونفيس دررها مستعينا على ذلك بقلمه الذي ما تركه من يده قط، فكان له ميدانه الذي عبده غير مسبوق فيه بغيره، وكانت له أفكاره التي استولدها من

عقله وفكره غير ناقل لها عن أحد، وكان له أسلوبه المنادي عليه باسمه حتى أنك لو قرأت كلامه من دون أن يكون ممهورا باسمه لعرفت أنه هو هو.

ولقد بدا لي أن أقص على إخواني قصة معرفتي بهذا الرجل؛ فلربما كان فيها من المنافع والفوائد ما يشفع لنشرها حيث ضمني به رحمه الله أربعة لقاءات كان في كل لقاء منها ما يغذو العقل علما والقلب خلقا.

اللقاء الأول: لم نكن نعرف عنه شيئا قبل هذا اللقاء، وما كان يضيره رحمه الله أنَّا لم نكن نعرفه؛ فإنما هذا بجهلنا لا لقلة شأنه ولا لخفوت نجمه.. ويرجع تاريخ هذا اللقاء إلى السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٩٦ في مناقشة رسالة للدكتوراه بعنوان (الصورة البيانية في نثر أبي العلاء المعري) للباحث الدكتور الأريب الرفاعي عبد الحافظ حافظ عبده.. كانت الرسالة بعنوانها وصاحبها ومناقشيها مما يجذب طلاب العلم لحضورها انجذاب ذرات الحديد للمغناطيس؛ فقد كان مناقشاها هما: (١) الصقر الجريء، الذائد الحامي الذمار، المدافع عن الأحساب؛ أحساب الإسلام، الأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم الخولي رحمه الله. (٢) الثاني كان الدكتورَ محمود توفيق سعد رحمه الله.

أما أولهما فهو غني عن التعريف؛ إذ كان وقتها وما يزال نجما يلمع في سماء البلاغة العربية، ويتوهج فكرا يقظا وبيانا عذبا تتفتح له العقول وتستضيء به الأذهان، وكان وجوده في المناقشة هو ما حثنا على شد الرحال إليها لحضورها على ما كان في ذلك من مشقة.

وأما ثانيهما فهو فضيلة الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله فلم نكن نعرفه وقتها، وفي المناقشات العلمية لرسائل الماجستير والدكتوراه يقع على كاهل المناقش الثاني عبء ثقيل؛ إذ هو المطالبُ بأن يجدد نشاط الباحث والحضور من بعد أن اعتراه الملل والسأم من المناقشة الأولى، ثم هو المطالب أيضا بألا يكرر ما قاله سلفه المناقش الأول، فما لم يكن المناقش الثاني متضلعا بالعلم قارئا جيدا للرسالة فإنه سرعان ما ينكشف للجميع مستواه.

هذا إذا كان المناقش الأول أستاذا عاديا فكيف لو كان هو الدكتور الخولى؟! تالله إنها لمغامرة كبرى؛ أن يشارك أستاذٌ فضيلةَ الدكتور الخولي في مناقشة؛ فالرجل (أي الدكتور الخولي) – لعلو سنه ورسوخ علمه ورفعة شأنه – سيتحدث أولا وسيأخذ وقته كاملا غير منقوص، دون أن يجرؤ أحد على مطالبته بالاختصار، كما هي عادة المناقشات إذا طالت مناقشة أحد الأساتذة للطالب ولكن من ذا الذي يجرؤ على التفوه بهذا مع الخولى؟! إنه – كما قيل عنه – ذلك الذي يخوف الله به عباده هههه. وفي ضوء هذا لا ينتظر، بل لا يتوقع من المناقش الثاني أن يضيف شيئا!!! وأنى له أن يضيف وقد سبقه الأسد الهصور؛ الدكتور الخولي رحمه الله.

وبدأت المناقشة في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٩٦ م وكما توقعنا: كان الدكتور الخولى في المناقشة يمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل (والوجي: هو الذي يشتكي حافره فيكون بطيئا في مشيه، فإذا مشي بحافره المجروح في الوحل كان

أشد بطئا). طالت مناقشة الدكتور الخولي جدا: ساعة، تلو ساعة، تلو أخرى حتى أربت (أي زادت) المناقشة على ست ساعات مرت كلمح البصر، حيث كانت المناقشات ساخنة، وزاد من سخونتها ثبات الباحث وردوده وعدم استسلامه. ومع انشغالنا بتدوين ما تيسر لنا تدوينه من المناقشات فإن الذي لاحظناه أن المناقش الثاني (الدكتور محمود توفيق رحمه الله) لم يضق ذرعا بطول مناقشة الخولى رحمه الله، ولم تظهر على وجهه علامات الضيق أو الامتعاض، بل كان هو الهادئَ الوقورَ الذي يستمع للمناقشات بكل تركيز، وبعد ست ساعات أو ربما أكثر انتهت مناقشة الدكتور الخولى، وقد استقصى فيها كل شاردة وواردة - كما بدا لنا وقتها - حتى إننا أشفقنا عليه: هل أبقى له الخولي شيئا ليتكلم فيه؟

وماذا عساه يضيف؟ ليتحول الميكروفون بعدها للدكتور الهادئ الرزين محمود توفيق سعد رحمه الله، وبدأ الرجل حديثه هادئا كعادته وسمته دائما - كما عرفناه عنه فيما بعد - فأثنى على الباحث وعلى الدكتور الخولي وذكر أنه مزق أوراقه، في تعبير مجازي عن أن الشيخ قد أتى على كل ما في الرسالة من ملحوظات ولم يُبق له شيئا، فقلنا نحن: إذن صدق حدسنا، وسيكون كلام الرجل روتينيا كما هي عادة كثير من المناقشين الذين لا يقرأون ؛ يتكلم ساعة أو أكثر قليلا كلاما أكثره ثرثرة فارغة (كما كان يسميها شيخنا الشيخ شاكر رحمه الله) لا ترى فيها من فائدة، ثم ينهي المناقشة وكأنه لم يبدأها، وظننا أنه بهذا التصريح يقدم لنفسه العذر في عدم الإتيان بجديد، ولكنه ما إن بدأت المناقشة حتى أبدى ملحوظة حُبِستْ لها أنفاسُ الجميع، ووقف منها الحضور - قبل الباحث - على أطراف أصابعهم توجسا وخوفا: أفبعد كل هذه الساعات الطوال تضيع المناقشة سدى ؟! فقد ذكر أن هناك رسالة (أظنه قال في كلية دار العلوم) تتشابه مع موضوع الرسالة لم يشر

إليها الباحث؛ وخشى الجميع أن يكون هناك اتهام بالسرقة (وتلك مصيبة)؛ مما حدا بالدكتور الخولي إلى أن يتدخل ليقول: إن صح هذا نقضنا ما قلناه بأثر رجعي. ولكن الشيخ محمود توفيق رحمه الله ذكر أن التشابه في الموضوع فقط، ولكن منهج التناول مختلف؛ فإن جهد الباحث في هذه الرسالة (التي هي محل المناقشة) يفوق جهد عشرة من أقرانه، لتأتي هذه العبارة منه رحمه الله بردا وسلاما على القلوب من بعد أن كادت تلتهب خوفا وتبلغ الحناجر هلعا..ثم مضت المناقشة التي فوجئنا منها أن قول الشيخ محمود إن الشيخ الخولى مزق أوراقه لم يكن إلا على سبيل التواضع أو باعتبار أن الشيخ الخولى قد أتى على معظم ملحوظاته لا عليها كلها ومن ملحوظة إلى أخرى يزداد يقيننا أننا أمام أستاذ مكين وينحل معها عزمنا على الانصراف لحوقا بقطار يقلنا من القاهرة حتى عقدنا العزم على الانتظار للنهار غير مبالين بما يترتب على ذلك من عواقب اقلها أن نعود لبيوتنا منتصف ليل الشتاء، وبعد ساعتين تنتهي مناقشة الدكتور محمود الماتعة والتي اختلفت عن مناقشة الدكتور الخولى في انحصارها في الجانب البلاغي وعدم تشعبها إلى قضايا أخرى.

والحق أقول إنني ما استمتعت قط بمناقشة كمثل هذه المناقشة، ويمنح الباحث درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.. بعدها حرصنا على التعرف على الرجل، فاهتبلنا لحظات كان فيها واقفا منفردا في مدخل الكلية أمام مدرج المناقشة ليقترب منه زميل لنا كان لديه به بعض معرفة من قبلُ ليسأله عن كتاب: (فقه تغيير المنكر)، فأجاب أنه كتبه للعامة، فلما سأله عن كتاب سبل الاستنباط لمن كتبه؟ فلكأن الرجل استحيا أن يقول: للخاصة، فقال كتبته للترقية، فكان حوابه منبهة لنا أن الرجل لا يحصر نفسه في نطاق واحد بل هو المتنوع: فبحث

للعامة دعوة وبحث للخاصة تعليما. وهكذا.. بعدها صار لاسم الرجل في نفوسنا مكانة، وصار الرجل في الحقل البلاغي اسما مشهورا وعلما مذكورا، مما حدا بنا إلى الحرص على اقتناء كتبه وأن نحاول جاهدين أن نقرأ كتبه، ولتجاربنا مع كتبه حديث آخر، إن شاء الله تعالى.

اللقاء الثاني: نمط صعب. ونمط مخيف. كان هذا اللقاء مختلفا عن اللقاء الأول في طبيعته، حيث كان لقاء بين العقول لا بين الأجساد، فلقد انتهى اللقاء الأول بانتهاء المناقشة، وعاد كل منا إلى بيته (أنا وأخي د محمد أبو شهبة) ولكن ما زال أثر هذا اللقاء منسربا في نفوسنا، ونحن في بداية عهدنا بالطلب (وما زلنا). وأهم ما بقي في نفوسنا منسربا من آثار هذا اللقاء أنه نبهنا إلى أن ثَمَّ نجمًا صاعدًا واعدًا يلمع في سماء البحث البلاغي هو الدكتور محمود توفيق سعد، هذا الجبل الأشم الذي يخفي علمه في طيَّات هدوئه وحسن خلقه وتواضعه.

لقد عدنا من اللقاء الأول وملء إهابنا إصرار على أن نتعرف على الرجل أكثر، وأن نقترب من عالمه أكثر وأكثر، وإذ لم يكن من سبيل للجلوس بين يديه ومشافهته والأخذ عنه مباشرة - ؛إذ كان هو أستاذا في كلية اللغة العربية بالمنوفية ونحن طلاب في القاهرة - فليس أمامنا إلا كتب الرجل وبحوثه سبيلا للتعرف عليه والإفادة منه .ولقد زاد من إصرارنا على اقتناء كتبه ومدارستها ما كان يتواتر على أسماعنا يومئذ بالسند المتصل من مقولات لشيخ البلاغيين الدكتور محمد أبو موسى حفظه الله يحث فيها طلابه على الأخذ من الشيخ محمود توفيق سعد.

وهذا مسلك تربوي أخذ به الشيخ أبو موسى نفسه به؛ أعني إغراء طلاب العلم بأساتذتهم والجلوس إليهم، فلقد روينا أنه حفظه الله كان يقول لطلابه - ما معناه -:

(*) إذا يممتم وجوهكم شطر كلية اللغة العربية بإيتاي البارود فعليكم بصباح دراز (رحمه الله)؛ فلقد أبى قلم صباح أن يكون إلا الأول.

(*) وإذا يممتم وجوهكم شطر كلية اللغة العربية بالمنصورة فعليكم بمحمد إبراهيم شادي.

(*) وإذا يممتم وجوهكم شطر كلية اللغة العربية بالمنوفية فعليكم بمحمود توفيق سعد (رحمه الله).

وإذا يممتم وجوهكم شطر كلية اللغة العربية بالزقازيق فعليكم بعبد الجواد طبق وعبد الحميد العيسوي (رحمهما الله).

هكذا كان حظ هؤلاء الأساتذة من كلام شيخ البلاغيين حفظه الله، ولكن الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله كان صاحب النصيب الأوفر والحظ الأكبر من ثناء شيخ البلاغيين عليه كلما عنَّتْ مناسبة، فلقد حدثنى أحد الإخوة الكبار (هو الآن أستاذ للبلاغة في إحدى كليات الجامعة) أنه عندما تقدم برسالته للماجستير للمناقشة شكل القسم له لجنة لمناقشته مكونة من الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد (عضوا خارجيا) والأستاذ الدكتور محمد الامين الخضري

(عضوا داخليا) ثم كأن الدكتور محمد أبو موسى حفظه الله قد نسي الأمر، فكان أن التقى الباحث في طرقة الكلية، فسأله: من شكلت لك لمناقشتك؟ فلما أخبره بهما، قال: الويل لك منهما، ولكن انتفع بمناقشتهما؛ فإن الكلية لم تنجب غيرهما، هكذا أخبرني الرجل، فلما كان بعد حين والتقيت شيخنا أبا موسى في بيته، وأعدت هذه المقولة على مسامعه، قال لا بل أنجبت غيرهما الكثير، ففسرت الأمر على أن هذا الكلام من شيخنا أبي موسى كان قد خرج مخرج القصر الادعائي؛ مبالغة منه - حفظه الله ورعاه - في تقدير مكانة الأستاذين الفاضلين (الخضري ومحمود توفيق) رحمهما الله، ولم يتوقف كلام شيخ البلاغيين عن تلميذه محمود توفيق عند هذا الحد، بل كثر الكلام من الشيخ في حق طالبه الأثير. حتى كان القول الفصل الذي لا يحوج إلى قول غيره، وهو قوله رضي الله عنه: "إذا كانت البلاغة ما عندنا فليس عند محمود توفيق شيء منها، وإذا كانت البلاغة ما عند محمود توفيق فليس عندنا شيء منها ".

كلمة عجيبة تدل على ما تدل عليه من مكانة الشيخ محمود توفيق رحمه الله، فأن يقول شيخ البلاغيين حفظه الله في تلميذه هذه المقولة - وهو أدرى الناس بمعنى ما يقول - فإن هذا معناه أن الشيخ محمود توفيق قد خط لنفسه مسلكا في البحث البلاغي لم يُعَبَّدْ من قبل، وأنه قد وطئ بقلمه ميادين بكرا لم تمس من قبله، فهو فيها فريد عصره ونسيج وحده، وأنه بهذا المسلك قد صار ندا لأساتذة البلاغة من قبله وفي عصره، فهم في جانب وهو وحده في جانب، ولست في هذا

القول مبالغا، فلقد ذكر الشيخ أبو موسى ذلك عنهم أنه ند له(في اللقاء الرابع الذي سأقص خبره لاحقا) .

وهذا الذي ذكره الدكتور أبو موسى في حق تلميذه محمود توفيق سعد رحمه الله لم يجئ عفو الخاطر، بل كان أمرا مقصودا من الشيخ محمود توفيق سعد رحمه الله وهو أن يكون له فكره الخاص به، فلقد وصانا في زيارتنا له (اللقاء الخامس) بأن على طالب العلم أن يقف على ثغرة لم يقف عليه أحد من قبله. ولكأن أخذ الرجل بذلك نفسه قبل أن يوصي به طلابه، فكان أن وقف على ثغرة في البحث البلاغيين صار بها ندا لأساتذته، بمن فيهم شيخ البلاغيين حفظه الله، وهذا أمر هو من الصعوبة بمكان مكين.. ذلك أنه إذا كان من حظ هذا الجيل أنه عاصر شيخ البلاغيين فنهل من علمه وارتوى من فيض فكره، فإن لشيخ البلاغيين تأثيراً آخر على من حوله، حين شغل الأسماع والأبصار والعقل بنفسه عن غيره، فكان كالشمس إذا سطعت أخفت ضوء النجوم فلم يعد يلتفت إليه أحد، وكذلك كان أبو موسى كما قال الشاعر:

فإنك شمس والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فعلى مدى أكثر من خمسة عقود ارتبطت البلاغة في أذهان الطلاب بأبي موسى وارتبط هو نفسه بها، فإذا ذكرت البلاغة ذكر أبو موسى وإذا ذكر أبو موسى ذكرت البلاغة، فأن يستطيع الدكتور محمود توفيق رحمه الله بجهده وكده

وتعبه أن يشغل الأذهان به، وأن يكون له نمطه الخاص به في ميدان البحث البلاغي فهذا دليل على علو شأنه ورسوخ قدمه، وأنه لم ينل ذلك من فراغ.. كان كل ذلك مما أغرانا بكتب الشيخ رحمه الله، فسعينا إلى اقتناء بعضها ثم حاولنا قراءتها ولكن يا هول ما رأينا، رأينا أسلوبا عاليا، ومعاني دقيقة، وأفكارا عميقة لا يوصل إليها بالهوينى، بل لا بد من قراءة الصفحة من كتابه مرات ومرات قبل أن نأمل أن تبوح لنا بشيء من مكنونها، بل لقد هممنا بتركها يأسا من فهمها واتهاما لعقولنا بالقصور وقلة الإدراك حتى بلغنا عن الشيخ أبي موسى حفظه الله قوله: "لما قرأت بحوث الدكتور محمود توفيق سعد التي تقدم بها للترقية أخذت أقرؤها ولا أفهمها، وبلأيٍ مَّا، فهمت له منها مائة ورقة رقيته بها".

فكان هذا مما صبرنا على قراءة كتب الشيخ، وإن كنا مع هذا الصبر لنعترف ونقر بأننا ما زلنا لم نفهمها، فما زال كتاباه: (دلالة الألفاظ عند الأصوليين) و (سبل الاستنباط من الكتاب والسنة) بحاجة إلى معونة من الله وصبر على الطلب وجهد جهيد وزمن طويل للوقوف عليهما واستخراج كنوزهما والله المستعان.. ولست في هذا الرأي (ادعاء وعورة مسلك الشيخ في كتبه) منفردا، فيكون نظرة شخصية تحتمل الصواب والخطأ، بل إنه ليكاد يكون إجماعا من أهل العلم.. وحسبنا ما قاله فضيلة الدكتور رفعت السيد أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية اللغة العربية بأسيوط سابقا في شأنها حيث قال: "كان للراحل الكريم مصنفات، لكنها لم تكن كغيرها مما حبّر المداد وسُوِّدت به الصفحات دون دفع لمسارات العلم والثقافة، أو أثر بائن على القارئ والمتلقي.

ما إن تطالع كتابا للشيخ إلا وتجد بصمته ونقشه، فلم تكن مكتوباته من تلك التي تُقرأ - تسلية أو قضاء للوقت - بل إن القارئ لا بد أن يحتشد لها استجماع نفس، وفراغ بال، وحضور ذهن، وصفاء نفس، لعله أن يفتح له بعد ذلك باب الفهم والإفهام. ذاك أن الشيخ لم يكن يغمس قلمه في مداد، بل كان عدد في محبرة مدادها من رشح فؤاده، وعصارة فكره، وذوب نفسه، فإذا بالبيان قد برز وعليه أسلوبه الذي لا يخطئه بصر، ولا يلتبس مع سواه عند من له أدنى بصيرة.. ولعل عدم ذيوع مؤلفات الشيخ راجع لشيء من هذا، فقد كانت كتبه تعوز إلى عقول قادرة على هضم الصخور الصم في زمن اعتدنا فيه على العجلة والاستهانة، وأحكمته مقولة: لِمَ تقول ما لا يفهم؟ بدلا من مقولة: ولِمَ لا تفهم ما يقال؟ وقد تجد لشيخنا عبارات مصكوكة خاصة به ما سمعناها من سواه، وهي مطربة معجبة، شائقة خالبة. ولقد سمعت من شيخه وشيخ شيوخنا أبي موسى قديما أنه قال عن تلميذه الأثير: قرأت له كذا من الصفحات فكَلَّ عقلي أن يتابعه، فلله دَرُّ المدرسة الأزهرية شيخا وتلميذا!!)

المُرِيدُ المُوَفَّقُ

بقلم د: مصطفى السواحلي

لا أعرفُ أحدًا تحقَّقتْ فيه معاني اسمِه كاملًا كَما تحقَّقتْ في العلَّامةِ الجليلِ محمود توفيق سعد، فقد كانَ الحمدُ ملءَ ثيابِه، والتَّوفيقُ واقفًا على بابِه، والسَّعدُ سَائرًا في ركابِه، ممَّا يجعلُنا نردِّدُ قولَ الأوَّلِ:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ *** إِلَّا وَمَعْنَاهُ، إِنْ فَكَّرْتَ، فِي لَقَبِهْ

لقد كان قِبلةً لِطلَّابِ العلمِ الذينَ يلتمسونَ التَّوفيق، دُونَ تَعريجٍ على بُنيَّاتِ الطَّريق، فتراهمْ لا يحجُّونَ سِبَّ الزِّبرقانِ المُزَعْفَرا، وإنَّما يؤمُّونَ عالمـًا بالتواضع مُتدثِّرًا، ويَروْنَ في مَوْسوعيَّته تصديقَ قولِ أبي الطيِّبِ:

وَلَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ، كَأَنَّمَا *** رَدَّ الإِلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالأَعْصُرَا

وقدْ قَضَى الراحلُ عُمُرَهُ -الذي أرْبى على السَّبعين عامًا- زاهدًا في تلك الأضواءِ الزَّائفةِ، التي طالما سُلِّطَتْ على فئامٍ من المتعالمينَ الفارغينَ، حتَّى غرَّتْهم أنفُسُهم الغاويةُ وعقولُهم الخاويةُ، فَحَسِبوا أنَّهم على شيءٍ، وطاولتْ أرضُهم السَّماءَ السَّابعة، وفاخرتْ جنادِلُهم الشُّهُبَ اللَّامعةَ، فألقى تلك الدُّنيا بِزُيُوفِها وراءَه ظهريًّا، وأعرضَ ونَأَى بجانِبِه عن أضواءٍ إعلاميَّةٍ لا تخلُو من زُور، ولا

تبرأُ من فجورٍ، واعتكفَ في محرابِ عَلْمِه تأليفًا مُبْتكرًا باذخًا، وتدريسًا مُؤسِّسًا راسخًا، وطبَّقَ الزُّهدَ العَمَلِيَّ على نفسِهِ، دَيْدَنَ السَّلَفِ الصَّالحِ، الَّذي يُذكِّرُكَ سَمْتُهُ وصِدْقُ لَهْجَتِه بهمْ، فتراهُ يرتدِي ملابسَ مُتواضعةً، ويركبُ المواصلاتِ العامَّةَ في ذهابِه وإيابِه من مسكنِهِ بمدينة الشروقِ، ولو شاءَ لوفَّرتْ له هيئةُ كبارِ العلماءِ -التي هو أحدُ أعضائِها- سيَّارةً تحمِلُهُ حيثُ يشاءُ، ولكنَّه تركَ للناسِ دُنياهم؛ ليسلمَ له دينُهُ، مُؤكِّدًا أنَّ الزُّهدَ الصَّادقَ سلوكٌ وممارسةٌ عمليَّة، لا مراوغةٌ وشقشقةٌ بيانيَّةٌ، ومُدلِّلًا على أنَّ عَمَلَ رَجُلٌ فِي أَلْفِ رَجُلٍ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِ أَلْفِ رَجُلٍ فِي رَجُلٍ، ولذا تراهُ مُؤثرًا الصَّمتَ، وهو الذي يملكُ فصلَ الخطابِ، فربَّما كانَ في صَمْتِهِ أبلغُ جوابٍ، لكنَّه عندما يرى الصَّمتَ كتمانًا للشَّهادةِ، وفِرارًا من الزَّحْفِ كانَ يُبرِقُ ويُرعِدُ، ويُرغِي ويُزبِدُ، ويقولُ كلمةَ الحقِّ، لا يخشى في الله لومةَ لائم، كما رأينا في ردِّه المؤيَّدِ المسدَّدِ على وزير الأوقافِ، عندما اجترأ على الشيخ ابن عثيمين، وادَّعى عليه وعلى عموم الأزهريين ما لا يليقُ، فَحالَفَهُ التَّلفِيقُ، وخَالَفَهُ التَّوفيقُ.

ومن فقهِ الشَّيخِ الجليلِ أنَّه كانَ يَفصِلُ بين التَّواضُعِ بمعناه الصَّحيح الذي أخذ نفسَه به، وعزَّةِ النَّفسِ التي ينبغِي أنْ تكونَ شِعارَ المسلمِ وَدثارَه، عَمَلًا بقوله تعالى: (وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ)، فقدْ سمعتُهُ غيرَ مرَّةٍ يُنكِرُ على طُلَّابِ جنوبِ شرقِ آسيا أنَّهم ينحنونَ في تواضُعٍ واستكانةٍ وهم يقبِّلونَ أياديَ شُيوخِهم، والحقُّ أنَّ تلك عادةٌ توارثُوها مع كلِّ مَنْ يَكبُرُهمْ، وقدْ عِشْتُ بين ظَهرانِيهم أعوامًا، حتَّى رأيتُ طالبةً تُقبِّل يدَ زَميلتها التي تَسْبِقُها بعام دراسيٍّ واحدٍ، لكنَّ الشيخَ يرسمُ معالمَ الطريقِ لطالبِ العلمِ النَّابِهِ، مُبينًا أنَّ البِرَّ بالشَّيخِ

ليس بتقبيلِ يَدِه أو رأسِه، أو حملِ حقيبتِه وحِذائِه، أو إفساحِ الطريقِ له، ونحو ذلك من المظاهرِ الفارغةِ، التي قد تُفسِدُ بعضَ الشُّيوخ، فيُخالِطُهم الغُرورُ بما يَرَوْنَ من إجلالِ الطُّلابِ لهم، وإنَّما البِرُّ بالشيخِ أنْ تُحْسِنَ التَّلَقِّيَ عنه، وأنْ تستثمِرَ ما تلقَّيْتَهُ عنه، وأنْ تنشُرَهُ بينَ النَّاسِ، وأنْ تدعوَ له، ولعمرِي إنَّه لفهمٌ سديدٌ، يأخذُ من الرُّشْدِ بأوفى نَصيبٍ.

وقد طبَّقَ الرَّاحِلُ الجليلُ هذه الوصيَّةَ في علاقته بشيخِهِ العلامَّةِ محمَّد أبو موسى، بارك الله في عُمُرِه وعِلْمِه، وفي تقديري أنَّ هذهِ العلاقةَ تحتاجُ دراسةً شاملةً؛ لأنَّها نمطٌ فريدٌ قلَّ تكرارُهُ، فالشَّيخُ يَصِفُهُ في غير موضع بأنَّهُ أنجبُ تلاميذِه، ويقول عنه إنَّهُ التِّلميذُ الذي فاقَ أُستاذَه، وقد بلغتْ شهرةُ تلميذِهِ عَنانَ السَّماء، وصارَ عضوًا في هيئةِ كِبارِ العلماء، ومع ذلك كانَ يَحْضُر أحيانًا مجلسَ شيخِهِ الأكبرِ، ويقعدُ بين يديْهِ مع طلابِه في صَحْنِ الجامع الأزهرِ، رَاجيًا أنْ تُسعِفَهُ الصِّحةُ فلا يفوتُ منه مجلسٌ، وقد ألحَّ علي شيخه أَنْ ينشرُ على طلاب العلمِ محاضراتِه في علمِ البديعِ، فاعتذر الشَّيخُ؛ لأنَّه ليس راضيًا عمَّا قدَّمَ فيها كلَّ الرِّضا، لكنَّ تلميذَه الأبرَّ أبى أنْ يَضيعَ ما قدَّم الشَّيخُ سدًى، فطبَّقَ القاعدةَ الأصوليَّة: ما لا يُدركُ كُلُّهُ لا يُترَكُ جُلُّهُ، ومن ثمَّ عَمَدَ إلى تلكَ المحاضراتِ، وقام بتفريغِها، والتعليقِ عليها، ثم نشرها بعنوان: (علمُ البديع عند الشيخ محمَّد محمَّد أبو موسى)، وكان بوسْعِه أنْ يَهْتَدِيَ بِنُورها، وأنْ يؤلِّفُ على نهجِها، وحاشا له أنْ يرتكسَ في حمأةِ ما يرتَكِسُ فيه أبناءُ هذا الزَّمنِ الرَّديءِ من النَّسخِ والمسخِ والسَّلخِ، ولكنَّه أبى إلَّا البرَّ الأتمَّ بشيخِهِ، وكأنَّه يُعيدُ عمليًّا مقالَةَ الإمامِ الشَّافعيِّ، رضي الله عنه: "وَدِدْتُ لو أنَّ النَّاسَ انتفعوا بهذا العلمِ، ولم يَنْسِبوا إليَّ

منه حرفًا"، وقوله: "مَا ناظرتُ أحدًا قطُّ، فأحببْتُ أنْ يُخْطِئ، وما جَادلتُ أحدًا إلَّا تمنَّيْتُ أنْ يُجْرِي اللهُ الحقَّ على لِسانِه"، وقد كان الشَّيخُ كثيرَ التمثُّل بهذه الكلماتِ الوضَّاءةِ، والأهمُّ من التمثُّلِ أنَّه كانَ يُطبِّقُها عَمليًّا على نفسه، وشتَّانَ ما بين الـمُنظِّرين، والمطبِّقينَ المخلصين، الذين تجرَّدوا من حُظوظِ نفوسِهم طُرًّا، فارتقوا إلى منازلَ لا يَصِلُ إليها إلَّا الأولياءُ حَقًّا. ولعلَّ من أمثلِ مَواطِنِ بِرَّهِ بِشَيْخِه أنَّه عَمَدَ إلى كتابِه: (شرح أحاديث من صحيح مُسلم: دراسة في سَمْتِ الكلام الأول)، وقدَّم كتابًا حولَه سمَّاه: (الكلمةُ نورٌ: مُحاوراتٌ منهجيَّةٌ في كتاب شرح أحاديث من صحيح مُسلم لشيخنا محمَّد أبي موسى)، وقد أهداهُ الكتابَ مُفتتحًا إيَّاه بهذه السُّطورِ الرَّائقةِ: "هذه أوراقٌ رقنتُها تحدُّثًا بنعمت الله وسبحانه وبحمده عليَّ؛ أنْ جعلني ربيبَ فكرِك وبَيانِك، ووليدَ حَزْمِكَ الرَّؤوفِ، وغرسَ يمينِكَ المباركِ الدَّافقِ بجليلِ العطايا"، وقد جعله في أربعةِ فصولٍ، أوَّلها: ضوابطُ قراءةِ بيان النبوَّة ومعالمها عند الشيخ، وثانيها: آلاتُ القراءةِ عند الشَّيخ، وثالثُها: أبعادُ قراءَتِه في صحيح مسلم، ورابعُها: قضايا كليَّة في قراءة الشيخ بيانَ النبوَّة. ولا أدري ماذا يسمى هذا النمط من التأليف، فليس شرحًا أو حاشيةً على عادةِ القدماء، وليس دراسةً نقديَّة على طريقةِ المحدَثين، ولكنَّها قراءةٌ استلهاميَّةٌ، ومحاورةٌ استكشافيَّة، تُسلِّطُ المزيدَ من الأنوارِ على نورِ فكرِ الشَّيخِ ليكونَ الكِتابُ نورًا على نورٍ، وتتوخَّى وضعَ علاماتٍ على الطَّريقِ لمنْ يهتدي بنورِ النَّجمِ، ليكونَ النَّجمُ وواضعُ العلاماتِ شَريكَيْنِ في حملِ الرَّايةِ، وقَسيمَيْن في بلوغِ الغَايةِ.

ومن مآثر الرَّاحلِ الجليلِ أنَّه لا يرى مكانةَ العالمِ بكثرةِ مُؤلَّفاتِه، فبُغَاثُ الطَّيرِ أكثرُها فِراخًا، وأمُّ الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ، ولذا لم يَسْتفرغْ طاقَته في تسويدِ

المذكِّراتِ الملأى بالمكرَّراتِ؛ يَقينًا منه أنَّ النُّفوسَ السَّويَّةَ جُبِلَتْ على مُعاداةِ الـمُعاداتِ، فترى ضَمْنَ مؤلِّفاته تلك العناوينَ الباذخةَ: (دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليِّين: دراسة منهجيَّة تأويليَّة ناقدة)، (سبل استنباط المعاني من الكتاب والسُّنَّة: دراسةٌ منهجيَّة تأويليَّة ناقدة)، (إشكاليَّة الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني)، (تغييب الإسلام الحقّ: دحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم)، (المعنى القرآنيّ: معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة؛ رؤية منهجيَّة ومقاربة تأويليَّة)، وله مقالاتٌ رائقةٌ منها: فقه تغيير المنكر، مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغيِّ، اللُّغة العربية لُغَةُ كتابٍ وهُويَّةُ أمَّة، الرِّجال قوَّامون على النساء؛ مُدَارساتٌ إيمانيَّةٌ أخلاقيَّةٌ في ضوء علم البلاغة العربيِّ... إلى غيرها من الكتابات التي تجمع البلاغةَ والتَّفسيرَ والأصولَ وفِقهَ الوَاقعِ في قَرَنٍ واحدٍ، وتؤكِّدُ أنَّ قضيَّته المحوريَّة هي إحياءُ الفكرِ العربيِّ، وتنبيهُ النَّاشئةِ على أهميَّةِ تُراثِ أسلافِهم، ومُناداةُ الحائدينَ: ليسَ الطَّرِيقُ هُنالك، وهي القضيَّةُ التي ألحَّ عليها شَيْخُه في جميعِ مؤلَّفاتِه، وبخاصَّة في مقدماتها، وهو ما فصَّلْتُه في بحثي عن الشيخ أبي موسى بعنوان: (النَّذيرُ العُريان)، المنشورِ في كتابِ الدِّراساتِ المهداةِ إليه بمناسبةِ تجاوُزِهِ الثَّمانين، فترى التلميذَ يقصُّ أثرَ شيخِه، حيثُ يشيرُ -على سبيل المثال لا الحصر- في كتابِه المعنى القرآنيّ إلى جمالِ وجَلالِ تُراثِ العربِ في علم المقاصدِ قائلًا: "ولعلمائنا نظرٌ وسيعٌ مُتغوِّرٌ في هذا الباب، لا تكادُ تجدُ له نظيرًا عند غيرهم، ولو أنّا أحسنَّا فِقْهَه، ونشْرَهُ في دِيارنا، ثمَّ في دِيارِ غَيْرنا؛ لَعَلِمُ الآخرُ قَدْرَنَا، ولَسَعَوْا إلى الأخذ عنّا، لا أنْ نَسْعَى إلى قَمِّ فُتات موائدهمْ، وإلى العَبِّ من رجيع عقولهم"، وكأنِّي بالشَّيخ والمريد يَصرخانِ بصوتٍ جهيرٍ أنْ تنبَّهوا إلى تراثِ أسلافِكُم، وأنْ تعلَّموا صِنَاعَةَ الفكرِ؛ فإنَّ صِناعة

العُقُولِ النَّاقِدَةِ المتفتِّحة أولى من تلقينِ العلم لفئامٍ ليستْ لديهم ملكةٌ ناقدةٌ، وإنما هم كما قال الشَّاعرُ في حقِّ بعضِ حَفَظَةِ الأَشعارِ:

زَوَامِلُ لِلأَشْعَارِ، لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ *** بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ

لَعَمْرُكَ، مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا *** بِأَحْمَالِهِ، أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

وبعدَ حياةٍ حافلةٍ بالجهادِ بالكلمةِ المستنيرةِ، وبالتجربةِ المفعَمَةِ بصدقِ اللَّهجةِ ونَقاءِ السَّريرةِ، أفضتْ رُوحُه إلى بارئِها يومَ الخميسِ الثامن والعشرين من شهر شعبان ١٤٤٦هـ الموافق السابع والعشرين من شهر فبراير ٢٠٢٥م، فضجَّتْ مواقعُ التَّواصُل الاجتماعي بنَعْيِه، وفزعتْ آمالُ حَوارِيِّيه إلى رَجاءِ كَذِبه، إذ بكاه كلُّ مَنْ عَرَفَه، وتألَّمَ لفراقه كلُّ مَنْ لابَسَه ولو يسيرًا، وحسبكَ أنْ يشهدَ له فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ بأنَّهَ "كانَ نقيَّ الضَّميرِ، عفَّ اللِّسانِ، لا يقولُ إلَّا خيرًا، وقد تميَّز بهمَّةِ الشَّبابِ وحكمةِ الشيوخ، ولم يطلبْ أمرًا من أمور الدُّنيا، فقد عاشَ مُنْكَبًّا على طلب العلم ونشره"، فرحم الله تلكَ الرُّوحَ الزكيَّة، والنَّفسَ النقيَّة، وشفَّعَ فيها ما قدَّمَتْ منْ علومٍ سنيَّة، وإنَّا لنرجو أنْ تتلقَّى الملائكةُ روحَهُ قائلةً: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً.

شيخي الجليل وداعا

بقلم د: رمضان غازي حميدة

أيُّ ليلة هذه التي ناءت علينا بكلكلها! وأي صبح لها حل على الأمة الموجوعة فأمد مآقيها مزيدًا من الدمع وجراحاتها فيضًا من الألم؛ ويكأن المصائب يعرفن المصابينا، وما أشد على مجابهة المصائب من الرجال الصناديد، ولا أقوى على مقارعة الأعداء من العلماء، ولا أجدى للأمم المنكوبة من الأحرار الشرفاء، وهل غير الرجل العالم الشريف عدة وذخرًا وأمانًا تعيش الرعية في كنفه لا سيما إذا اختلط الحابل بالنابل، وتعددت الرايات وتناقضت الغايات وتبارى المزيفون باسم الحكمة والفطنة، وفُرض على الكريم أن يعيش في جهد من البلاء!!

وما أقسى أن يكون البلاء فقدًا لرجل عالم شريف كان يتمترس خلفه الفضل، وتحتمي في جاهه المكارم، وينتمي إليه الأزهر الشريف، ويعده النبلاء قدوة وأسوة، ويجسد في أوصافه وصفاته المسلم الذي أنعم الله عليه فمضى على صراط مستقيم.. إني لا أُزكيه على الله؛ لكنها كلمة حق وشهادة صدق يؤازرني فيها من عرف الشيخ الجليل ومن قرأ له، وما هذه الضجة الكبرى التي انتابت الناس حيال وفاته ما بين باكٍ ومُقِرٍّ بالفضل إلا دليل على أن فقيدنا من أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

فمنذ ميلاده إلى أن قضى نحبه في الليلة الأخيرة من شعبان المنصرم – في رحلة تجاوزت سبعة عقود من العطاء والبركة – لم يكن الشيخ إلا متنًا في كتاب الحياة، وأبدًا لن يُمحى من ذاكرة الزمان متنٌ مسطرٌ من نور... مات (محمود توفيق سعد) الرجل العالم الشريف عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الخالد.. مات والأمة في أمسِّ الحاجة إليه؛ لكن عزاءها أن شجرة الكرام – على ندرة ما تثمر – أصلها ثابت وفرعها في السماء..

وإني إذ أكرر وصف الشيخ بالرجل العالم الشريف فإني أكررها عن قصد، وأزعم أنها مفاتيح شخصيته وبوابة الدخول إلى عالمه الرحب، فهو رجل لم ينحنِ إلا لله.. آمن أن الحق أحق أن يتبع، وأن اتباع الحق لا يحتاج إلى مماحكة الباطل، وأن الحر لا يرضى الدنية في دينه، ولا يقبل الضيم في أهله ووطنه، وأن الرجولة والمروءة هي سمة أهل العلم الذين هم سادة الناس وروادهم إلى المكارم، فإذا جَبُن العالم فلم يصدع بالحق فقد أفسد على الناس حياتهم وضيَّع عليهم أُخراهم، وما أكثر ما كتب الشيخ الجليل "بيانًا للناس" وإن خالف برأيه تيارات جارفة أو منابر ذات شوكة.. على أنه في بيانه لم يكن تابعًا إلا لسلطان الحق الذي تنطق به آيات الشريعة ويؤمن به الرجال النبلاء من أولي الألباب..

وهو عالم بلغ ذروة المجد العلمي دون أن يخدعه زخرف أو تفتنه دنيا، همته همة الملوك وعزيمته عزيمة الشباب ورائده: "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين"، فمكث علمه في الأرض ينفع الناس؛ لأنه لم يكن زبدًا على نحو ما نقرأ ونشهد ما يصنعه المغرورون من أصحاب الألقاب الرنانة مما يذهب جفاءً.. لقد ترك الشيخ جملة من المؤلفات التي لم تحوِ عقله بل أشارت إليه؛

فعقله الناقد الذي يسبر به غور الأفكار لم يكن نمطيًّا يمضي على الدروب الممهدة؛ بل يسلك الوعر ويشق بين الصخور سبلاً تكشف للناس جديدًا من العلم والمعرفة.. وهو في كلٍّ مكين عظيم التمكن.. متواضع جمّ التواضع.. أضاف إلى بابه في العلم ما لا يُستغنى عنه، وكتب مما ينفع المسلم ما لا يسعه تركه، ومن يقرأ للشيخ لا يجد أحلى من بيانه المكتوب غير بيانه المنطوق، وهو إن عرف للعقل قدره فقد ألجمه عما في النقل أصله وفصله، واصطفى لنفسه طريقة المجتهدين الذين ينتمون إلى الحق لا إلى الرجال، فوسعه من الفقه اختلاف أهله، ورضي في العقيدة ما قرره النص وتأوله المجتهدون الصالحون، وأقر بفضل علماء العربية وإن خالفوه المذهب والمعتقد.. وهو بعد منكر على أولئك الذين يسعون إلى (حزبنة الأزهر) ليكون عنوانًا لفرقة أو مذهب فكري بعينه، وهذه أشد معاول هدمه؛ إذ لولا انفتاح الأزهر على الأمة عبر عصوره، ولولا انتماؤه للإسلام بمعناه المنهجي الجامع لما كان له هذا الرسوخ وهذا القبول، وهذه السماحة والمرونة التي هي في أصلها سماحة الإسلام ومرونته.

وأما الشرف فما أكثر صوره التي تجلى فيها في رحلة الشيخ المبارك؛ فقد تورَّع الشيخ عن الجدل والمراء والمخاصمات والمنازعات لهوىً دنيويّ، وتطهر من زينة الدنيا التي سقط في أوحالها كثير ممن يحدثون الناس عن الزهد والإيثار! ولطالما كان يؤكد أن من يطلب الدنيا بالعلم فإنما يطلب حقيرًا بشريف فما أقبح مطلبه! ومن يتتبع رحلة الشيخ في وصاياه وبياناته ومقالاته وكتبه يتأكد لديه إلى أي مدى كان الشيخ شريفًا ورعاً نظيف اليد والقلب واللسان يشهد المقربون بأنه كان ينقطع الليل خاليًا إلى ربه، وكم له على طلاب العلم من أيادٍ بيضاء.. وكم له

في ميادين الكرامة من صولات شريفة.. وما استأثرت به محبرته ودفاتره عن شؤون الأمة المسلمة وواقعها في شرقها وغربها، فهو ليس من أولئك الذين تسمع لهم جعجعة ولا تجد طحنًا أو أولئك الذين يصخبون في الفراغ فإذا جد الجد خنسوا؛ إنما هو من أولئك الذين يقولون القول فيتبعون أحسنه، ويأمرون الناس بالبر ولا ينسون أنفسهم، ويؤمنون أن مداد العلماء قرين دماء الشهداء.. هكذا يكون الشرفاء من وُرَّاث النبوة، وهكذا يكون أهل الله المخلدون في الأرض والرابحون في السماء، رضي الله عنك وأرضاك شيخي المحمود الموفق السعيد بإذن الله.

سيظل علمه خالدًا

بقلم د: محمود أشرف الدمهوجي

فُجعت الأمة الإسلامية بفقد الأستاذ والشيخ والأب المربِّي- الأستاذ الدكتور" **محمود توفيق سعد**" العالِم الجليل الذي حمل راية البلاغة، وأفنى عمره في خدمة لغة الضاد، ينير الدروب للدارسين، ويكشف كنوز الفصاحة للمتعلمين، رحل عن دنيانا جسدُه، لكن علمه سيظل خالدًا، يتناقله أهل البيان جيلاً بعد جيل، شاهداً على أثره العظيم في صرح العربية الشامخ.

لقد ترجل فارس البيان، وسكنت روحه في رحاب الرحمن، لكنه ترك أثرًا خالدًا في القلوب، ودربًا مضيئًا لمن أراد أن ينهل من معين البلاغة الصافي، كان بحرًا زاخرًا لا تنفد درره، ومشكاة تهدي الحيارى إلى بهاء العربية وسحرها.

أنعي أستاذي وشيخي الذي نافح بكل طاقته عن بلاغة القرآن والسنة النبوية، كان للبلاغة راعيًا، وللبيان هاديًا، كان بالأمس ينثر درر الكلام، ويصوغ من الحروف عقودًا من الحكمة والفصاحة مقروءة ومسموعة.

رحم الله فقيدنا، وجزاه خير الجزاء على ما قدم، وعوض الأمة خيرًا بفقده، وسيبقى علمه مرفرفًا، تردده الألسن، وتخطه الأقلام، وترويه الأجيال جيلاً بعد جيل.

تميّز الدكتور "**محمود توفيق سعد**" بعمق علمه في مجالات البلاغة والنقد والأصول والمنطق، وكان له دور بارز في نشر العلم وتخريج أجيال من الباحثين والعلماء، عرفته مذ التحقت بكلية اللغة العربية بالمنوفية من خلال تأثيره في طلابه وحديثهم عنه في البلاغة العربية والبيان القرآني المعجز؛ حيث أول محاضرة لي في الكلية مع أستاذي وشيخي الأستاذ الدكتور" **سعيد جمعة" صاحب الزي الأزهري آنذاك، والوجه المنير البشوش،** والذي قام بتحليل الآية القرآنية _التي كانت سببا في بقائي في كلية اللغة العربية_ وهي قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) {الزمر/ ٦٨}فقال ساعتها لم عطف بالواو؟ ولم بنى الفعل للمجهول؟ ولم عبر بالصعق ولم يعبر بالموت أو غيره؟ ولم عطف بالفاء(فصعق)، ولم عبر بالموصول(من)، ولم يعبر بغيره ...إلخ هذه التساؤلات البلاغية، ثم أخذ يذكر شيخه ويقول: "علمني شيخي"، وتارة يقول: "يقول شيخي"، ويقصد أستاذنا الدكتور "محمود توفيق"، فيكاد يذكر اسمه في المحاضرة أكثر من مرة، فمن تأثير الشيخ في طلابه كأنه هو الذي يشرح المحاضرة، فكنا جميعا متشوقين لرؤية هذا العالم الفذ الكبير.

مواقف الدكتور محمود توفيق سعد وأخلاقه وسمته:

كان الدكتور "**محمود توفيق سعد**" عالِمًا أزهريًّا متميزًا بسمته الوقور، وأخلاقه الرفيعة، ومواقفه الثابتة في دعم العلم وأهله، منها.

١. **الدفاع عن اللغة العربية والبلاغة:**

- كان يؤمن بأن البلاغة ليست مجرد فن لغوي، بل وسيلة لفهم النصوص الشرعية والقرآن الكريم فهمًا أعمق.

- دافع بقوة عن أصالة اللغة العربية في مواجهة التأثيرات السلبية التي تهددها، وحثّ طلابه على إتقانها باعتبارها مفتاح العلوم الإسلامية.

٢. **الإخلاص في نشر العلم:**

- رفض استغلال علمه لتحقيق مكاسب مادية، ولم يكن يسعى للشهرة، بل كان هدفه نشر المعرفة وتكوين العلماء الحقيقيين.

- ظل متواضعًا رغم علمه الغزير، وكان يرفض الألقاب البراقة، معتبرًا أن العلم رسالة وليس وسيلة للتفاخر.

٣. **التصدي للتحريف في الفكر الإسلامي**:

- تبنّى مواقف حازمة تجاه أي تحريف أو تلاعب بالمفاهيم الإسلامية.

- رفض محاولات تسييس العلوم الشرعية، وكان يُذكّر دائمًا بأهمية التجرد في البحث العلمي بعيدًا عن الأهواء الشخصية.

٤. **الزهد والعفة:**

- رغم المناصب العلمية التي شغلها، كان يعيش حياة بسيطة، مبتعدًا عن الأضواء والمناصب الإدارية الرفيعة التي لا تتماشى مع طبيعته الزاهدة.

- لم يكن يسعى إلى التقرب من أصحاب النفوذ، بل كان يفضّل أن يبقى مع طلابه وبين كتبه.

أخلاقه وسمته:

التواضع: كان متواضعًا مع طلابه وزملائه، لا يتعالى بعلمه، ويعامل الجميع بلطف واحترام.

الحِلم والوقار: لم يكن يُعرف عنه الغضب أو الجدال الحاد، بل كان هادئًا، متزنًا في آرائه وردوده.

حُسن الخُلُق: اتسم بأدب جمّ، وكان حريصًا على اختيار كلماته بدقة، مما جعله محبوبًا بين زملائه وطلابه.

الجدية والانضباط: لم يكن يُفرّط في وقته أو علمه، وكان شديد الالتزام بواجباته التدريسية والعلمية.

الهيبة العلمية: رغم تواضعه، كان له هيبة بين العلماء وطلابه، فمجرد حضوره في أي مجلس علمي كان يفرض الاحترام.

أثره في طلابه: خرّج أجيالًا من العلماء والباحثين الذين استفادوا من علمه وأخلاقه، كان يُشجّع طلابه على البحث والاستقصاء، وعدم الاكتفاء بالمعلومات السطحية، ولم يكن يبخل عليهم بالنصح والتوجيه، وكان يساعدهم في أبحاثهم بدون أي مقابل.

لقائي مع فضيلته:

التقيت به في المؤتمر العلمي الدولي الأول بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، وكان لقاءً مثمرا حيث تواجد معه في هذا اللقاء شيخ البلاغيين "**محمد أبو موسى**"، وكنت في رهبة شديدة في أن أصل إليه وأحدثه مشافهة، فكانت له هيبة كبيرة، ووقار عال، ولكن حينما شعرت بقربي منه وجلست بين يديه في خوف ووجل شديد، وما إن تكلمت معه بسؤال عن "قضية الصرفة"، ولم أستطع أن أتكلم بعدها من شدة تلعثم لساني، فلاحظ شيخنا هذا الأمر، وببراعته وفطنته وبمنهجيته التربوية عالج هذا الأمر لدي، فأخذ يتكلم هو حتى استجمع كلماتي وألملم خلجاتي، وكان ـ رحمه الله ـ يغمض عينيه أثناء الحديث بل قد يتوجه لجهة أخرى تواضعا منه، ومن تواضعه أخذت مع فضيلته بعض الصور بحضور شيخنا الأستاذ الدكتور/ "**محمد أبو موسى**"، والأستاذ الدكتور/ "**رفعت السوداني**"، والدكتور/ "**عبدالمحسن أحمد**".

ومما نقلت عنه في هذا المؤتمر هذه الكلمات الرائعة الراقرقة، فكأنها درر يقول شيخنا "محمود توفيق": "العلم حرون لا يمكن أن يعطيك إلا بعد أن يستوثق أنك ستديم الطرق ولن تبرح الباب"، **ويقول الشيخ أيضا**: إن أصحاب

الفتوة الأباجل لا يلعقون في الطين، وإنما ينحتون في الصخر، وطالب العلم لا يستسهل أبدا، فعليه أن يبحث عن صخر؛ لينحت منه لا يصنع ثمره من طين، فلو صنعت ألف بنية من طين فلن تكون شيئا، لكن لو صنعت شيئا واحدا من صخر ستبقى في قلوب الناس وفى آذانهم"، رحم الله الشيخ الوقور الفاضل، والعالم المربي المتواضع، وقد ختم المؤتمر بكلمته التي كرر فيها الحديث عن كيف نطلب العلم؟ وكان يقول قبل كل جملة:" علمني شيخي" ويقصد أستاذه الشيخ" أبو موسى" الذي يجلس على المنصة، وكأنها أجيال تنقل العلم والمعرفة لطلابهم بهذا الأدب الجم، والكرم الأعم.

ثم كان لي شرف لقاء هذا العالم الفذ ذات يومٍ في مجلس علميٍّ، حيث أتيحت لي الفرصة لطرح سؤالٍ عن أحد أسرار البيان العربي، فأجابني بإسهابٍ ورحابة صدر، مستشهداً بأبيات الشعر وأساليب البلغاء، حتى شعرت أنني انتقلت إلى عصر "الجاحظ"، "وابن جني"، هذا الرجل لم يكن مجرد عالمٍ يحفظ القواعد، بل كان أستاذًا يجسد البلاغة في حديثه، في أسلوبه، وحتى في صمته! وفي نظراته.

ومن كلماته المؤثرة التي كان يرددها:

- "العلم ليس وظيفة، بل رسالة وأمانة، ومن ضيّع الأمانة خسر دنياه وآخرته".

- "البلاغة ليست زخرفة كلام، بل هي مفتاح الفهم العميق للنصوص الشرعية".

- "لا تجعلوا العلم وسيلة للجدل، بل وسيلة للفهم والتدبر".

رحم الله الأستاذ الدكتور/ **"محمود توفيق سعد"**، فقد كان مثالًا نادرًا للعالم الصادق المخلص الذي ترك أثرًا عظيمًا في شتى المجالات، وبخاصة البلاغة والعلوم الشرعية.

رفعة لم يسع إليها (١)

بقلم د: نهلة الصعيدي [١]

العالم الرباني محمود توفيق سعد وعضوية هيئة كبار العلماء.. رفعةٌ لم يسعَ إليها لكنها جاءت حيث يليق بها المقام

ليس للعالِم الرباني قلبٌ يهفو إلى المناصب، ولا عينٌ ترنو إلى أضواء الدنيا الخادعة؛ فزهده في زخرفها كزهده في ظلٍّ زائل، يبيت بين دفَّتي كتاب، وينهض بين سطور الحكمة، لا يسعى إلى مجدٍ زائف، ولا يبتغي رفعةً يهبها سلطان، غير أن السنن الإلهية تأبى إلا أن ترفع قدره، وتردَّ عنه غبار النسيان، فتُسخِّر له من القلوب مَن يعرف قيمته، ومن العقول مَن يدرك فضله، ومن الأقدار ما يُهيِّئ له المكان الذي يليق به، ومن بين هؤلاء العلماء الربانيين كان الأستاذ الأجل والعالم البلاغي الراحل الذي ملأ الدنيا علمًا؛ محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف.

وإني أُشهد الله أن السعي إلى المناصب لم يكن جزءًا من همته، ولم يكن يطمع في عَرض الدنيا الفانية، بل أدار قلبه نحو العلم، وأفنى عمره في طلبه، بعيدًا

---

(١) مستشارة شيخ الأزهر، ورئيسة مركز تطوير تعليم الطلاب الوافدين

عن زيف الجاه والمكانة، لكن إرادة الله شاءت أن ترفع مكانته، وأن تختار له من الأقدار ما يضعه في الموقع الذي يستحقه، كأنما الأقدار قد اختارته لتمنحه ما يليق بعلمه وزهده، جاءت إليه المنازل الطيبة طائعة.

ولعلَّني حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، أتذكَّر ذلك المشهد الذي خطَّ القدر تفاصيله بحكمةٍ وإتقان، حين كنتُ رئيسًا لقسم البلاغة والنقد، فإذا بي أمام قسمٍ يفتقر إلى الأساتذة الكبار، وأمام طلابٍ يُحدِّقون فيَّ بعيونٍ تستنجد بمن يروي ظمأهم إلى العلم، فتساءلت: كيف السبيلُ إلى النهضة بهذا القسم؟ وكيف يُعاد إلى البلاغة ألقها، وإلى النقد عزَّه؟

وما إن عرضتُ همِّي على شيخي وأستاذي الجليل، الدكتور إبراهيم الهدهد، الذي كان على رأس إدارة الجامعة حينئذ، حتى أضاء لي الطريق بإشارةٍ لا تخطئها الفراسة، فقال لي: «هناك عالمٌ بلاغيٌّ جليل، وأستاذٌ أزهريٌّ كان ملءَ السمع والبصر في جامعة أم القرى بالسعودية، لكنه اكتفى برحلته التدريسية في جامعة الأزهر»، وكأنَّ كلماته تلك قد فتحت أمامي باب الأمل، فبحثتُ عنه حتى علمتُ أنه في مؤتمرٍ بالمنوفية، ولم أتردد لحظةً في شدِّ الرحال إليه، قاطعةً المسافة من القاهرة إلى هناك، لا أحمل معي إلا رجائي وإلحاحي أن يعود إلى جامعة الأزهر معلمًا وأستاذًا؛ فأبناء الأزهر في أشدِّ الحاجة إليه.

وحين التقيته رأيتُ فيه العالِمَ الزاهد، والنابغَ المتواضع، ومن يُدرك قيمة هؤلاء يعلم كم هم عصيُّون على الرجاء، فأعرض ابتداءً عن طلبي، وحاول أن يعتذر برقة، لكنني كنتُ أراه هو المنارة التي لا بدَّ أن تعود لتضيء، فحاصرتُه

بإصراري، ولم أبرح مكاني حتى اقتنع فوافق وعاد، وعادت معه الحياة إلى قسم البلاغة، بل إلى الكلية كلها.

وشهدنا معه أزهى العصور، فإذا باسمه يسطع من جديد في الجامعة العريقة التي عمل بها سنواتٍ طوالًا قبل أن ينتقل إلى السعودية، حتى بلغ به المقام أن رُشِّح عضوًا في الهيئة العلمية الأرفع؛ هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وكأنَّما الأقدار التي اختارته من قبل ليكون معلِّمًا قد اختارته اليوم ليكون في موضعه الذي يليق بعلمه ومكانته.

ولم يكن هذا السعي إلا جهدَ رجالٍ شرفاء، وجنودٍ مجهولين، آثروا أن يبقى الأزهر في أبهى صوره، ومن بينهم القاضي الفاضل والمستشار المحب لأهل العلم محمد عبد السلام، الذي كان له دورٌ بارزٌ في هذا الأمر، وحرصٌ لا يفتر على أن تضم الهيئة عالمًا جليلًا، وأديبًا كبيرًا، فكان العرض على فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، وأعضاء الهيئة الموقرين، وما إن نظر الإمام ومن بعده الهيئة الموقرة إلى إنتاجه العلمي وكتاباته المتفردة، حتى تعجلت هي بضم الأستاذ إلى صفوفها؛ لِما رأت في علمه من غزارةٍ وعمق، ولِما حملت أعماله من بصمةٍ أصيلة في مجال الفكر العربي، وقد كان القرار سريعًا، مدفوعًا بتقدير عميق لمكانته العلمية، ووعي كامل بأهمية إسهاماته التي من شأنها أن تعزز من قيمة الهيئة وترفع من مكانتها بين أقرانها؛ إذ أدرك الجميع أن هذا العالِم الجليل لا يُعطى الفضل بمناصب أو ألقاب، بل بما قدمه من جهدٍ علمي ونتاج فكري يرتقي بفكر الأمة ويخدم تراثها، فتلاقت إرادة الهيئة مع الحكمة

البالغة التي تميز بها فضيلة الإمام الأكبر، ليكتمل هذا الاختيار النبيل الذي أسفر عن إضافة مهمة للهيئة وللأزهر الشريف.

وهكذا كانت رحلة العلم، ليست سعيًا إلى مجدٍ زائل، بل سعيًا إلى أن يأخذ كل ذي فضل موضعه، وأن تبقى منائر الأزهر مشعَّةً بأهلها، عامرةً برجالها، شامخةً بمن نذروا أَنفسهم للعلم، فرفعهم الله كما وعد في كتابه الكريم: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات».[١]

(١) نقلا من صفحة الدكتورة نهلة الصعيدي في الفيس بوك بتاريخ ٤ مارس ٢٠٢٥

في رثاء الأستاذ الأجل (٢)

بقلم د: نهلة الصعيدي

تقدم من قضاء الله تعالى في أستاذنا وشيخنا وعالمنا؛ فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء، ما أمض قلوبنا وأقض جنوبنا وجرح أفئدتنا وأحدث حزنًا عميقا وألما واخرا؛ إذ يجل الرُّزء إذا قل العوض، ويكبر المصاب إذا عدم الخلف.

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)؛ آية استحضرتها عند سماعي -نبأ وفاة العالم الجليل والشيخ الفاضل أستاذي وأستاذ أجيال عديدة على مدار عمره العامر -بالعلم، لقد اصطفاه الله لحمل رسالة عظيمة ومسئولية جليلة؛ فإن الله يصطفي العلماء كما يصطفى الأنبياء والمرسلين، والله أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: (١٢٤) ، ورفعه الله درجات بعلمه وعمله وإخلاصه ووفائه لدينه مصداقا لقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلئف الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتِ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

وعلى هذا اختار الله تعالى محمود توفيق سعد؛ قسما بعقول طلابه، وفك عنها أغلال التقليد والجمود، ودفع بهم إلى فهم كتاب الله وفقه حديث رسول

الله، وأشعرهم بسلطان العزة الفكرية التي كرم الله بها الإنسان، وبعث إليهم من عظاته وفكره ما أيقظ ضمائرهم، وتبه وعيهم، وأحيا حسهم، ولفتهم للرجوع إلى الله والتعلق بعزته وجلاله، هذا العالم الذي كان من أبرز أقواله: من طلب الدنيا بالعلم كان أحمق ممن يطلبها بمِزْمار، ومَنْ طلب الدنيا بِمِزْمارَ إِنَّما طلب حقيرًا بحقير، فكان المطلوب (الدُّنيا) والمطلوب به (المزمار) سواء، ومَنْ طلب الدُّنيا بالعلم فقد طلب حقيرا بعظيم، ولا يفعلها إلا مأفون."

هذا العالم الذي كان من أبرز أقواله رسالتي ورسالتك في هذه الحياة من شقين: الشن الأول: إعمار الحياة بالحق المبين وبالخير العميم لكل الناس، والشق الثاني: إخراج الناس من الظلمات - كل الظلمات إلى النور، تلك هي العبادة، وهذا وجه من وجوه معنى قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ) (الذاريات: (٥٦) ، وما الشعائر التي فُرِضَتْ عليك؛ من صلاة وزكاة وصيام، إلا أدوات تعينك على أن تحقق هذه الرسالة.. وجدير بعالم هذا شأنه أن يلقى الحب والاحترام والتوفير؛ لعظمة نفسه، وعظمة عقله، وعظمة علمه، هذا هو محمود توفيق النعمة التي أنعم الله بها على طلاب العلم فكانت أيامهم معه عبدا.

في لحظات الفقد تتقاصر الحروف، ويضيق التعبير عن استيعاب مقام الراحلين العظام، أولئك الذين لم يكونوا مجرد أسماء عابرة في سجل الأيام، بل كانوا منارات تضيء الدروب، وعقولا تتدفق بالحكمة والمعرفة، نقف اليوم في محراب التأبين، نستجمع الكلمات الترىي عالما جليلا وأستاذا مهيبا، رحل عن دنيانا جسدًا، لكنه بقي فينا فكرًا وأثرًا خالدًا، فلا نملك في هذا المقام إلا أن نقول:

في رحاب الله، أيها العالم الجليل، والأستاذ الفاضل، والأديب العظيم، رحلت عن أبنائك ومحبيك وتلامذتك في غمرة سكون وصمت عميق، كما يرحل الشرفاء الذين لا يبالون بظهور أو ضجيج، لترحل في هدوء كما عشت في هدوء بعيدا عن أضواء المناصب التي تتبدد وزخارف الدنيا التي تزول، لم تجذبك الألقاب الزائلة، ولا الدنيا بما فيها من فتنة، بل كان قلبك مشغولا بعشق العلم الذى لا ينضب، وطلب المعرفة الذى لا يتوقف ترفع شأنها في صمت وعزيمة، دون أن تعلن أو تفاخر كنت تضئ دروبنا بنور العلم والحكمة بلا صخب تاركا وراءك إرثا من العقل الرفيع والحكمة التي لا تفنى، فلم يكن علمك مجرد تراكيب لغوية . وأدوات فكرية، بل كان أسلوبا حياتيا، ومنهجا فلسفيا، وتوجيها عميقا للأرواح والعقول، حتى قال عنك أحد أساتذتك الكبار شيخنا الجليل محمد أبو موسى؛ قال: «إنه التلميذ الذي فاق استاذه.

كانت كلماتك مرجعية لكل من أراد فهم الحياة، وكانت أدواتك في الفكر أرفع من أي وصف وأشد من أن تقاس، ماذا نقول في معلم لم يكن مجرد أستاذ يلقننا مفردات من هنا أو من هناك! ماذا نقول في رجل كان علمه ليس مجرد معرفة تلقى على السمع، بل كان راسخا في الوجدان! زرعت فينا حب الفهم، ووجهتنا على ألا نمر بالأشياء على سطحها، بل نغوص في عمقها.

فطوبى لأستاذنا؛ فقد تفرد في أستاذيته، وتفرد في أخلاقه، وتفرد في علمه وعمله، كان أكمل الناس خيرا وأكثرهم برا وأتمهم فضلا وإحسانًا، قويت بصيرته فأحمد مصيره، ووضحت مقاصده فعاش كريما عزيزا شامخًا راقيًا محمودا

في الدنيا، موفقا للآخرة، سعدًا لمن حوله، نصرة التقى، وعصمة الهدى، وسلم من جرائر الدنيا فلم ينخدع بها ولم يتبع الهوى؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان رحمه الله نسيج وحده، لا يُشبه إلا نفسه، وما طلبناه إلا كان حاضرا، وما قصدناه إلا المؤسسات، فخطت يداه المشروعات، وأطلق كان ملبيا، إذ حمل على عاتقه ما عجزت عنه المبادرات التي أحيت في اللغة روحها، وجعلتها تنبض بالحياة، فرسم محاور مؤتمر الأزهر وصناعة المصلحين»؛ ذلكم المؤتمر الأول لكلية العلوم الإسلامية والعربية للطلاب الوافدين، كما كان لبرامج تنمية المهارات اللغوية والأدبية وتطبيقاتها، نهج واضح، ومسار راسخ، وقد تولى مركز تطوير تعليم الطلاب الوافدين والأجانب أمرها بالاشتراك مع جامعة الأزهر، فكانت منارة علم، ومشعل هداية، وصدقة جارية له لا تنقطع.

وكما كانت اللغة العربية في قلبه، كانت عالمية هذه اللغة قضية لا تغيب عن فكره، فشهد مركز تطوير الوافدين جهوده، وأثمرت مساعيه في مؤتمر (الأزهر وعالمية اللغة العربية)، حيث اجتمعت الرؤى، وتشابكت الأفكار، لتصاغ البرامج، وتوضع الخطط التي تعلي من شأن العربية، وترفع من رايتها، فترك رصيدا ضخما من المجد الحقيقي والشرف الحقيقي والعز الحقيقي والعمل الذي لا ينقطع، فلم ينقطع عمله من صدقاته الجارية، وعلمه الذي انتشر في ربوع العالم، وأولاده الصالحين من صلبه ومن أرحام العالم كله، ولا يزال ما تركه من مشروعات وبرامج يحتاج لمؤسسات ضخمة ورجال صادقين يقومون به.

ولم يكن رضي الله عنه، معنيا بالعلم وحده، بل امتدت عنايته إلى المرأة، فوعى قضاياها، وحمل همومها، وجعل من توصياته سُبلاً ممهدة، وخططاً مدروسة، تفضي إلى تمكينها، وترسخ مكانتها، لتكون شريكاً فاعلاً في صناعة المستقبل، تماما كما كانت شريكا في حفظ التراث وبناء الحضارة. عاش حارسا للفضيلة والشرف، حاميا للعلم والعلماء، مدافعا عن الحق والعدل، مرابطاً للحفاظ على تماسك الأسرة ونصرة دين الله، تعلق بدار الأمن الثابت والنعيم الراتب، كان وفي العهد، سليم الصدر، حافظا للمودة محافظا على الأمانة، من أنصر العلماء عند الاستنصار، وأنصحهم عند الاستنصاح، وأنهضهم عند الاستنهاض.. كان من أكيس الناس وأحزم الناس، مكثرا الذكر الموت، مستعدا له قبل لقائه؛ فذهب بشرف الدنيا وكرامة الآخرة.

وها نحن أولاء نقف في محراب الذكرى، نستعيد فيض عطائك وننهل من معين فكرك، فنجدك حاضرًا بيننا، لا تغيب عن العيون وإن غيبك التراب، ولا تفارق الأسماع وإن سكت صوتك عن الحديث، لم يكن وجودك عابرا في سجل الأيام، بل كنت روحا نابضة في فضاءات العلم، وضياء ممتدا في آفاق الفكر، زرعت بذور المعرفة في أرض خصبة، فما زالت ثمارك تتدلى في عقولنا، نقتطف منها ما يسعفنا في دروب الحياة، ونقتدي بخطاك التي لم تعرف التراجع، ولم تألف التردد، كنت مثالاً للعلماء الربانيين الراسخين الذين لا يعرفهم المنصب، ولا تزيدهم الألقاب، بل يكونون هم التعريف ذاته، وهم العنوان الباقي الذي يهتدى به حين يضل الناس طريقهم.

محمود توفيق سعد أستاذي وشيخي، كان عدتنا النافعة، ويميننا الدافعة، جعلناه بين الزمان وبيننا فيما يعرض لنا من روائبه، ويطرق لنا من نوائبه، نرجع له في كل ما يهمنا ويحزننا ويضيق به صدرنا، وكنت في ذلك كما قال القائل:

تغطيت من دهري بِظِلِّ جَناحِهِ ** فعيني ترى دهري وليس يراني[١]

وما نعلم شيئًا كان يقربنا إلى الله إلا أمرنا به، ولا شيئًا يباعدنا عن النار إلا نهانا عنه.

رحيلك أيها الأستاذ هو جرح في قلوبنا لن يندمل، وألم في أرواحنا سيبقى يرافقنا إلى الأبد ولكننا نعلم أن من سار على دربك، واغترف من علمك، لا يرحل، وإن كنا اليوم نودعك بألم في القلب، فإننا نحتفظ بذكراك؛ لأن العظماء لا يموتون، بل يظلون في كلماتهم وفي أفكارهم، وفي نفوس تلاميذهم الذين يبقون أحياء بعلمهم، إننا وإن شعرنا بفراغ كبير بعدك فإن هذا الفراغ هو فراغ مليء بعلمك، فراغ يشهد لك بسمو النفس وجلالة الفكر، ولا أقول إلا ما قالته هند بنت المهلب في رثاء أخيها، مع التصرف:

"ما من المرزئة بد، وكم من مِيتة مَيِّتٍ أشرف من حياة حي، وليست المصيبة في موت من مات ذابا عن دينه، مطيعا لربه، وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته، وخمل ذكره بعد موته"

---

(١) من ديوان أبي نواس

رحمك الله أستاذنا وأستاذ الأجيال، وأسكنك فسيح جناته، وسنظل أوفياء لأستاذيتك، سائرين على دربك، ناشرين لعلمك، حاملين لفكرك، لننقله إلى الأجيال القادمة، كي تبقى خالدًا في ذكراهم كما كنت في ذاكرتنا.

فاللهم أنزل علينا الصبر والسلوان على هذا المصاب الجلل والحزن المتضاعف، وهيئ أنفسنا لتقبل مفارقة أستاذنا الذي ترك دنيانا ورجع إليك وهو سامع لقولك، مقتد بأمرك، مقتف لأدبك، محافظ على رضاك، شارح ومفسر لكتابك، محبب الناس في دينك ورسولك، مستخدم علمه وبلاغته في الإصلاح والتربية والمجاهدة في إخراج الناس من الظلمات إلى النور بتفقيههم لكتابك وسنة حبيبك.

ولله در من امتدح العلماء بقوله:

العز مخصوص به العلماء ** ما للأنام سواهم ما شاءوا

إن الأكابر يحكمون على الورى ** وعلى الأكابر يحكم العلماء) [1]

---

(١) نقلا عن مقال الدكتورة نهلة الصعيدي بمجلة الأزهر عدد أبريل ٢٠٢٥م / شوال ١٤٤٦هـ – الجزء ١٠–السنة ٩٨

علّمني كيف يكون العلم رسالة ؟

بقلم د: فاطمة سامي نبوي

ليس من السهل أن أكتب عن رجل لم يكن مجرد أستاذ أو مشرف علمي، بل كان شيخي في العلم، وأبي في التوجيه، وصاحبي في الطريق، الدكتور محمود توفيق، رحمه الله، لم يدخل حياتي كبقية الأساتذة، بل دخلها بوقار العلماء، وخرج منها ببصمة لا تمحى وإن كان ولا يزال أثره باقٍ دائمًا وأبدًا، وجدت فيه معلمًا يملك نبعًا لا ينضب من المعرفة، لكنه لا يصبّه على من حوله بغزارة، بقدر ما يُربّيهم على حسن التلقّي، وصدق النية، وأدب الطلب.

كانت بداية معرفتي بالأستاذ الدكتور محمود توفيق رحمه الله في السنة الثانية من الدراسات العليا، حيث كان يدرس لنا علم المعاني باب القصر، كانت تبدو عليه المهابة وكان له سمت خاص أعجبني، أبصرته في أسلوبه، وشدته وحزمه.

بعد معاصرتي له علمت أنه التلميذ المقرب للشيخ أبي موسى وأنه أصولي بلاغي، كنت أسمع عن الشيخ محمود توفيق أنه حازم لا يحب إلا الطالب المخلص في طلبه للعلم وبعد انتهاء السنة الثانية ذهبت إلى كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بالقاهرة لتسجيل الماجستير، فوجدت الشيخ محمود من بين الأساتذة الذين تُعرض عليهم الموضوعات، فعرضت موضوعًا في

الحديث النبوي، وكنت قد أعددت له الخطة، ولدي إصرار على تسجيل الموضوع فقال لي: اتركي هذا الموضوع للدكتوراة لن يأخذه أحد، ثم أخذت في عرض عدة موضوعات، وكنت كلما عرضت موضوعاً يقول الحاضرون: "قُتل بحثًا"، وهنا ظهر الجانب الرحيم، فعرضت فكرة، فقام رحمه الله بوضع عدة اقتراحات للعنوان وترك لي حرية الاختيار، وبدأت مرافقتي للشيخ منذ ذلك الوقت من كل أسبوع، حتى أنني خصصت يوم الاثنين من كل أسبوع للذهاب لحضور مجلس الشيخ محمود توفيق، وكان من سروري أنه لما عرضت عليه في الماجستير قال: إنه يعرفني وأنه درس لي في السنة الثانية، وكنت أتوقع أنه لا يعرفني؛ لأنه ليس لأحد منا الجرأة للحديث معه، فكنت أخشى أن أتكلم معه أو أسأل فأخطئ، وكنت لا أقترب منه حتى أني من الرهبة كنت أعرف إجابة سؤاله الذي وضعه في الامتحان، ومع ذلك لم أستطع الاجابة عنه وقد أبلغته بذلك قريباً وقلت له: إني كنت أخاف منك حتى أنني تركت إجابة السؤال وأنا أعرفها فابتسم واكتفى بالصمت.

كان عقله رحمه الله مبهرًا، كان يقلب المسألة، ويخرج منها ما لا تستطيع عقولنا إدراكه أو الإحاطة به، وكنت أعجب كيف يمكن لشخص أن تكون نظرته للأشياء مختلفة هكذا؟ فأصررت على الاقتراب منه لأدرك سر ذلك الشيخ، ومع كل يوم كان يمضي كنت أكتشف شيئاً جديداً، كنت أرى كيف يقدم للباحثات العون في الوصول إلى موضوعات جديدة.؟

كيف يقدم لهن أفكاراً لو حاولن سنوات ما وصلن إليها؟ كيف كان يدعمهن في السيمينارات؟ كيف كان يسمح لهن باصطحاب أطفالهن؟ وهذا نادر جداً أن تجده في أستاذ، كان يدعوا لنا دائما، كان يعطى كل منا قدره، وينزل الناس منازلهم، كان كلما حدثته باحثة قال لها: (يا فاطمة) وحين تقول: اسمي ليس فاطمة يقول كلكن فاطمة آملًا أن نكون كالسيدة فاطمة رضي الله عنها، وعندما انتهيت من رسالة الماجستير طلب منه الدكتور على عيسى مناقشتي، فقال له: قراءة ثلاث كتب أفضل عندي من مناقشة رسالة علمية.

لقد كان لي شرف أن تتلمذت على يديه في مرحلة الدكتوراه، ولا أقول: فقط إنه أشرف على رسالتي، بل أشرف على تكويني العلمي والإنساني، وصاغ الكثير مما أنا عليه اليوم. لم يكن مجرد مشرف، بل كان قدوة، وأبًا ناصحًا ومثلًا أعلى في آنٍ واحد.

-علّمني كيف يكون العلم رسالة، لا وظيفة.

-كيف أن الكلمة الطيبة والرفق في التوجيه يمكن أن يصنعا من الباحث إنسانًا قبل أن يكون عالِمًا.

كان يستقبل أسئلتي الكثيرة بصدر رحب، ولا يمل من توجيهي مهما تكرر خطئي، وكان يرى في كل محاولة فاشلة خطوة نحو النضج العلمي، بكلماته الهادئة، وبصبره الكبير، زرع في داخلي الثقة والاتزان، وفتح لي أبوابًا ما كنت

لأراها وحدي.. كل ثمرة علمية أقدمها اليوم، وكل موقف تربوي أحتذي فيه بالرأفة والإنصاف، إنما هو امتداد لما زرعه في نفسي هذا الرجل العظيم.

لقد كان الدكتور محمود أكثر من مشرف أكاديمي؛ كان الأب حين ابتعد الأهل، والرفيق في مشقة الطريق، والمُلهِم حين تراجعت الهمة، والسند حين ضاقت السبل.. كل من عبروا طريق العلم يعرفون مشقة البحث، وعناء الطريق، لكنني حُزت نعمة عظيمة أن قطعت هذا الطريق تحت إشراف رجل مثله، جمع بين العلم الراسخ والخلق الرفيع.

لقد أثمرت رعايته لي في كل شيء:

-في سلوكي العلمي، حيث تعلمت منه احترام الحقيقة والدقة والبحث.

-في أخلاقي المهنية، حين رأيته ينصر طلابه عند الشدائد، ويُعلي قيمة الإنسان فوق كل اعتبار.

-في قدرتي على احتواء الآخرين، لأني عشت الاحتواء الحقيقي منه في كل لحظة ضعف أو تردد.

-حتى في اختياراتي اليوم كباحثة أو كمعلّمة أطبق كل ما يفعله ويقوله مع طلابي .

وإنني حين أسترجع تلك السنوات التي قضيتها تحت إشرافه، أجد نفسي أمام مدرسة متكاملة، لم تكن دروسها مكتوبة على ورق، بل منقوشة في السلوك، في الصمت، في الكلمة التي تقال في وقتها، في النبرة التي تشجع دون أن تفرض، وفي الوجود الذي يُشعر بالأمان.

كنت أرى فيه المعنى الحقيقي لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن العلماء ورثة الأنبياء." فكما ورث الأنبياء الحكمة والرأفة قبل العلم، كان يمشي بينهم وكأنه قطعة من نور، لا يصنع لنفسه هيبة مزيفة، بل يفرض الاحترام بتواضعه وصدقه وإنصافه.. أذكر جيدًا يوم أن تعثّرتُ في مساري البحثي، وأحاطت بي الشكوك من كل جانب، وكان قلبي مضطربًا وعقلي مثقلاً، ولم أكن أرى مخرجًا، جلستُ أمامه مترددة، فإذا به يقول بهدوء: " انظري علاقتك بأمك وحين أقول هي راضية يقول: داومي على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، واعلمي أنك في صلاة ما دمت في انتظار الصلاة، ومن أدام الطرق فُتح له، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً."

عندما كان يعطيني أوراق البحث بعد قراءتها يقول لي: أرجو ألا تتضايقي وألا تكون كلماتي ثقيلة عليك ولكني أرى فيكِ شيئاً.. لم يكن يؤمن بالحواجز بين الأستاذ وطلابه، كان ملجأ آمنًا للطلبة، يلجؤون إليه حين تضيق بهم السُبل، سواء في أمور الدراسة أو حتى في مشاكلهم الشخصية، لم يُعرف عنه قط أنه ردّ طالبًا أو استصغر سؤالًا.

لم يكن منغلقًا بعيدا عن طلابه بل كان يشاركهم الحوار والنقاش، وكثيرًا ما روى لهم قصصًا من حياته ليشجعهم على الصبر والمثابرة.

كان رحمه الله دائما يذكرنا بالله ورسوله، ويقول الحق دائمًا، ولا يخش في الله لومة لائم.. كان إذا أخطأ أحد الطلاب، أو تأخر في الفهم، لا ينهره، ولا يُشعره بالحرج، بل يعيد الشرح مرارًا، وكان يؤمن أن كل عقل يحتاج وقته ليزهر.. ما كان يدرّس لمجرد الواجب أو المرتب، بل يُعلِّم بإيمان، وكان بسيطًا في لباسه، لا يتكلف، لا يحب المظاهر، لكن ما إن يتكلم، حتى تلمع الهيبة في حضوره، لا لأنه يفرضها، بل لأن روحه تفرض الاحترام.

كان يبدأ محاضراته وكأنها رحلة، لا يعلو صوته، ولكن كل كلمة منه كانت تطرق القلوب قبل الآذان.. يطرح السؤال، ثم يصمت، يترك لنا مساحة للتفكير، لم يكن يعطي الإجابات جاهزة، بل كان يصنع منا باحثين دون أن نشعر، كان يؤمن أن دور المعلّم ليس أن يملأ العقول، بل أن يوقظها، تعلمنا منه كيف نُفكر.. كان دقيقاً دون أن يُثقل، وعميقاً دون أن يُربك، وحنوناً دون أن يُظهر ضعفاً.

في أسلوبه كانت هيبة العلم، ونور الحكمة، وسكينة من يتعامل مع رسالته كعبادة.. حتى في تصحيح الأوراق، كان يرى الخطأ فرصة للتعليم، لا وسيلة للعقاب.. وحتى من لم يدرسه، تأثر به، فالعلم الصادق يُشع ويصل، حتى دون مناهج.

علمني دكتور محمود أن الأستاذ الحقيقي لا يُنسى، لأن أثره لا يُمحى، وأن العلم ليس حشواً للمعلومات، بل رسالة تُبلغ بالعقل وتُغرس في القلب.

كان يعلّمنا كما لو أنه يغرس فينا شيئاً من روحه، لا يكتفي بالشرح بل يربط بين المعلومة والحياة، بين النظرية والواقع.. أسلوبه في التدريس لم يكن تقليدياً... كان يدخل القاعة، فيسودها الهدوء والاحترام، لا خوفاً، بل تقديراً.

تواضعه لم يكن مجرد صفة.. بل كان رسالة صامتة، كنت تشعر حين تجلس أمامه، أن هذا الإنسان رغم كل ما يعرف، لا يرى نفسه فوق أحد... بل يرى أن مهمته الحقيقية هي أن ينهض بالناس لا أن يعلو عليهم.. كان يدخل القاعة دون استعراض، يجلس كما نجلس، لا مقعد مميز ولا مسافة فاصلة بينه وبيننا، حتى خارج القاعة، كان إنساناً بسيطاً، يتعامل مع كل من حوله بنفس الود، لا يفرّق بين طالب ومُعيد، ولا بين عامل وأستاذ.

ولأن التواضع عدسة نرى بها النفوس، فقد رأيناه كبيراً رغم بساطته.. عظيماً دون أن يرفع صوته، محبوباً دون أن يسعى لمدح أو شهرة.

علمنا أن التواضع لا يُنقص من مكانتك، بل يرفعك حيث لا تصل بك الألقاب، وأن من خفّ على الناس، ثقل في قلوبهم.. كان زهده في الناس شكلاً راقياً من أشكال الحرية... حرٌّ من الداخل، لا يُقيّده إعجاب، ولا يُحرّكه مدح، ولا يُسقطه ذمّ.

لم يكن يسعى ليكون محبوباً، لكنه كان محبوباً رغماً عنه، لم يطلب يوماً أن يكون في الصدارة، لكن الجميع كانوا يلتفتون إليه، وهو وحده... كان ينظر إلى الأرض في تواضع، وكأن لا شيء يستحق التعلّق به إلا ما عند الله.

لم يكن يقف عند كل إشادة، ولا يردّ على كل نقد، وكأن صمته كان أبلغ من أي تبرير، كان يكتفي بأن يعمل في صمت، ويترك الأثر للزمن، دون أن يُعكّر إخلاصه بكثرة الالتفات.. وفي زمنٍ أصبح فيه الظهور مطلباً، والتسويق للنفس فنّاً، اختار هو العكس تماماً كان إن وُضع في الصف الأول، عاد بخطوة للوراء، وإن رآه الناس عالياً، رأى هو نفسه صغيراً في حضرة العلم والحق.

زهده لم يكن انعزالاً.. بل كان حضوراً نقيّاً، بلا رغبة في تصدر، بلا حرص على إعجاب، بلا انتظار لتصفيق.. لم يكن يسعى لمكانة، ولا يتزاحم على منصب، ولا يلتفت لمن صعد أو نزل، كأن الدنيا ليست مكانه.. بل مروره فيها كان عبوراً هادئاً، مشغولاً بما هو أبقى.

كنت أتعجب كيف لشيخ جاوز السبعين عامًا أن يكون لديه همة عالية كالشباب يحضر إلى الكلية قبل التاسعة وأحيانا ينتظر في أي مكان ويسير بين الناس مع أنه يملك السيارة الخاصة به وليس لديه مكتب خاص به ولو أراد لكان ويحضر قبل موعده وينتظر طلابه ولا يتعسف في حمل الاوراق وإحضارها إلى الباحثات؟ كان يعامل كل باحثة كأنه أستاذها وحدها ولا يتأخر عن أحد، ثم تلقى المحاضرة ما يقرب على الساعتين ثم يجلس مستمعا إلى الباحثة التي تعرضها أو يذهب لإلقاء محاضرة لطالبات الدراسات العليا ولا يلقيها إلا واقفًا ثم يستمع

لأسئلتهن وقد ينتهي الساعة الثانية والنصف أو الثالثة ويعود إلى منزله في الشروق في الخامسة أو السادسة دون ضجر أو سخط.. تعلمت من الشيخ محمود توفيق رحمه الله الكثير والكثير، تعلمت منه قيمة الكلمة وأن الكلمة قد تكون سببًا في دخول صاحبها الجنة أو النار في مرة من المرات قال: هل ستقابلين رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة

هذه الكلمة جعلتني أتوقف عن الكتابة أسبوعين .. كنت كلما جلست معه أشعر بالهيبة والوقار وأقول هذا أستاذي كيف لو قابلت رسول الله!! كان إذا تحدث، أنصتنا كأنما نستمع إلى حكيم. وإذا صمت، امتلأ المجلس هيبة.. لقد منحني من وقته، وعقله، ونفسه، ما لم يكن واجبًا عليه، وكان يدفعني إلى الأمام بكلمة، ويَصبر عليّ حين لا أفهم، ويحتفي بأي تقدّم صغير أُحرزه كما لو كان إنجازًا عظيمًا. لم يكن فقط يُشرف على رسالتي، بل كان يُشرف على إنضاج شخصيتي، وبناء ثقتي بنفسي، وصقل رؤيتي للعلم والحياة.

إن كل ما أقوله لا يكفي لردّ جميل شيخي محمود توفيق سعد رحمه الله، ولا يُوفيه حقّه، ويكفيني شرفًا أني كنت من طلابه، وأنه من زرع فيّ ما أقدّمه اليوم لطلابي ومن حولي.. رحمك الله يا سيدي وشيخي، وجزاك عني خير ما يُجزى به المربّون الصادقون، وجعل ما قدّمته لي ولغيري من العلم، والمعاملة، والدعاء، نورًا في قبرك، ورفعةً في درجتك، وصدقَّة جاريًة لا ينقطع.

فيه كل الصفات الطيبة

بقلم: أحمد بهاء الدين أنيس

حينما علمت بقبضه، وكأن قطعة من روحي قد انتزعت، وكأني أرى الأرض ينقص الله من أطرفها، ولا أدري لماذا هذا الحزن الشديد على رجل لم أعرفه تمام المعرفة إلا بعد وفاته، فلقد عرفته حال حياته معرفة ليست بالعميقة، ولم ينتشر عنه شيء مثل غيره من العلماء الذين لازمناهم، وأغبط طلابه المقربين، فلقد كان فيه كل الصفات التي أبحث عنها بعد وفاة عدد من مشايخي مثل مولانا الدكتور طه ريان والشيخ عماد عفت ، والدكتور أشرف توفيق رحمهم الله جميعًا، وحفظ الله لنا شيخنا الدكتور محمود عثمان، وشيخنا ومولانا الدكتور حسن الشافعي، حزنت إذ لم أعرفه جيداً، وأتعجب لماذا لا يشير العلماء إلى بعضهم، وطلبة العلم إلى شيخهم إلا بعد وفاتهم! لهذا أشرت إلى بعض من هم أحياء حتى يهُرع إليهم، وتُلزم عتبتهم.

أخذت أبحث وأتلمس الرحمة والعلم من كل شيء يعرض لي على شبكات التواصل وما ينشره عنه ابنه ا/ محمد وكريمته ا/ نهى وباقي العائلة المصونة، وخفايا المقربين منه حتى الدائرة الصغيرة من الفرد والفردين، وكنت أعيد مقاطعه، وكتاباته مرارًا وتكرارًا وأقوم بنشرها بين الناس في وسائل التواصل، وفي الحلقات بالمساجد، وفي المحاضرات العلمية، وفي الجلسات

الخاصة، بل وحتى في خطب المنابر، كل على قدر مناسبته لمقامه، ونقل أثره الطيب وعلمه النافع وروحه الصادقة. سأتحدث الآن عن بعض الصفات التي لمستها من الرجل التي أحسبه ظفر بها، وما يستحق أن يبُحث عن مثلها في الشيخ.. جمع الشيخ بين كونه من شيوخ التزكية، وشيوخ التعليم، وشيوخ الترقية.. فإذا نظرتَ في وجهه رأيت النور يُسكب في قلبك، وإذا سمعت حديثه يَنفذ إلى روحك دون أي تكلف، وإذا نطرت منطقه أبان عن الحقيقة بأوجز عبارة، وأفصح بيان، وأبلغ دليل، وأصدق حديث.

يتصل الشيخ بالقرآن اتصالًا حقيقيًا بنظر خاص وفتح مبين، لا مجرد نقل عبارات الأولين أو التعليق عليه فحسب؛ بل وصل إلى أحوال الصادقين، فيظهر حاله من مقاله، ولا أزكيه على الله، وفوق ما يظهر من حال، فقد رسخ في العلم وامتلك أدوات الاستنباط والأخذ مباشرة من الكتاب والسنة، وفوق ذلك زينه الله بحلة التواضع ولباس التقوى وزينة الصدق، وفوق ذلك أحسن التربية دون لوم وعتاب وجلد للآخرين فكان نصحه يقيمك ويقيلك، لا يبكّتك ويعيّرك، وكان يشحذ همتك ولا يثبطها، وكان اتساع علمه على قدر اتساع رحمته ولهذا جعل الله له الأثر حال حياته؛ بل وامتد بعد وفاته وهذا من علامات صدقه، ومن فضل الله عليه، والله وحسيبه.

قلما تجد من المشايخ من يراعي تلك الشعرة، ويبصره الله بالحكمة التي يقيمك بها فيرفعك باعتدال مشيرًا إلى قيمتك وما ميزك الله بك في خطابه، ثم يخفضك ويجعلك تحت جناح العلم، فيجملك بثوب التواضع الحقيقي لا

المزيف، ويحملك أمانة الدين ومسؤولية العلم، وهمّ الأمة، ولا يتفلت من لسانه ابتذالًا لمقامك، ولا يصدر من عينه استحقار لشأنك، ولا يُظهر لك استعلاء بعلمه، فهو لا يرى نفسه، ولكن يرى ربه ويراك في ظل عرشه فيحملك عليه حملًا، فإذا سقطت أقامك، وإذا غفلت نبهك، وإذا بعدت أدناك، وإذا أُغلق عليك شيء من مسائل العلم فتحه لك بسهولة ويسر دون أي إشارة إلى ذاته؛ بل بما فتحه الله له إذ هو " آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ " فقد حمله وسكنه وأعطاه ومرّ، رحم الله شيخنا وأبقى أثره وتغمده برحمته، ولا قطع عنه مورد الخير بما غرسه فينا، ولا قطع عن الأمة خير ما أمده به، وجعلنا من آثاره الطيبة التي تحيي علمه وتنسج على منواله كما قال الله تعالى في كتابه "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ".

التقي الخفي

بقلم: علي كمال الغزالي

هذه سطور موجزة خطرت لي وأنا دامع العين، حزين القلب مع العالم الرباني محمود توفيق سعد قدس الله روحه.. ووالله لا أدري كيف أبدأ الحديث عنه، فهل أنا بحاجة إلى تعريفه للقارئ، وهو الذي قد أصبح بالنسبة إلى قراء العربية وهواة إعلامها بمثابة الذهب في عالم المعادن لا يكاد يجهله أحد، وعندما أطلقت عنان قلمي في محيط علمه، وجدت أنه بحاجة إلى غواص يصل إلى أعماق معارفه، ولا أكتم القارئ الكريم بأن هذا العالم الجليل قل نظيره وعز مثيله، فهو عندي يمثل المشيخة الأزهرية النقية الصافية.. من سمع حديثه أصغى إليه وانتفع به، ومن قرأ له استهدى بما يقول، وحل كلامه منه محل الاستحسان والقبول. يسره الله للبيان واللغة، ويسر اللغة له، فأفاد وأجاد.. إنه العالم الرباني الزاهد التقي، محمود توفيق سعد، قدس الله سره وطيب ثراه، عضو هيئة كبار العلماء، وأستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر الشريف.. عرفته أول ما عرفته بالتقي النقي الخفي. ولا أكتم القارئ الكريم بأن هذا العالم لا تعرفه البرامج ولا يعرفه الإعلام. ومن حسناته أنه لا يعرفه إلا أهل الفضل والعلم.

أول ما سمعت اسمه كان من شيخنا شيخ البلاغيين وإمامنا النحرير، محمد أبي موسى. وهو يرشدنا إليه قائلًا: عليكم بعلم التقي النقي الخفي، أ.د

محمود توفيق سعد.. فقام أحد الجالسين قائلًا: معاذ الله، شيخنا، نحن تلاميذك! وهذه كانت أول رؤية لي للشيخ، رحمه الله. وكنت في الفرقة الثانية آنذاك في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين القاهرة، ١٤٤٠هـ.. وكنت أتردد على أروقة الأزهر الشريف، وأحب يوم الأحد خاصة لرؤية شيخنا محمد أبي موسى. ولا أخفيكم سرا أنني أقدس مكانة هذا العالم الكبير في قلبي. فلو أنني رأيت الشمس بأم عيني طالعة في النهار وأنكرها الشيخ أبو موسى، لأنكرت على عيني! فما لي إلا أن أذهب مع الشيخ محمود توفيق سعد، كما أرشدنا شيخنا! فنعم العالم ونعمت النصيحة! فحضرت له فيما يعد تقريبًا ست محاضرات. وفي الحقيقة، لم أكن من تلاميذ الشيخ المقربين، ويا حسرتى على ما فرطت في الأيام الماضية! لكنني اطلعت على مؤلفاته ومرئياته وصوتياته، ولا ريب أنك إذا اقتربت من الشيخ وعايشته وجدت ملء إهابه رجلًا عميق الربانية، دافق الروحانية، عامر القلب بخشية الله، عميق الحب لسنة الله ورسوله.

سمعت منه يومًا وما زلت أتذكر حديثه وهو يقدر شيوخه وأساتذته قائلًا: لقد تأثرت بشيخي وأستاذي ومعلمي الشيخ محمد أبي موسى. وقد أصبحت أستاذًا وعميدًا ورئيسًا، لكنني لم أر نفسي إلا تلميذًا. أحضر له كما تحضرون يا سادة، فاحفظوا عنه وخذوا منه.. وهذا ما رأيته بنفسي وهو يجلس مع الطلاب يستمع إلى شيخه، الذي أثر فيه كثيرًا، كما كان بارًا به، ويرجع إليه الفضل في تكوينه العلمي، وأن كل ما لديه من خير إنما هو من غرس يده. أما عن خصاله الحميدة.. فهو مدرسة متعددة الجوانب، فصغير مثلي غير قادر على استنباط فضائله، إن شئت قلت عن الشيخ محمود توفيق سعد. العلامة الرباني،

الفهامة القرآني، الشيخ الإيماني، الإمام الهمام، الداعية المؤثر، الخطيب المفوه، صاحب الروح المشرق، والبيان المغدق، والعقل المنفتح، والبصيرة النيرة، والفهم الثاقب، والذكاء الحاد، بهجة المجالس، وزينة الدنيا، الباحث المدقق، اللغوي المحقق، ماذا عسى أن أقول وقد اصطفاه خالقه واجتباه ربه فآتاه الحكم والكتاب وعلمه لغة القرآن وهيأه لأن يكون عالما بها.

عاش الشيخ محمود للإسلام والعلم فكان العلم شغل نهاره وحلم ليله، ومحور حياته، عنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد، وفي سبيله يحارب ويسالم، ويجادل، ويوافق ويخالف، يعيش به وله وفيه، فيه يحب وفيه يبغض، وفيه يغضب، وفيه يرضى، وله حيي، وعليه مات، خدم اللغة العربية حين تجول في آفاقها وغاص في أعماقها، فأصل وفصل ونقح وحقق، فأحرز الدقائق وأبرز الحقائق، ونثر من فرائد الفوائد ما بلغ من المقاصد قاصيتها، وملك من المحاسن، ناصيتها، فأمتع وأشبع وأقنع بما نثر من الدر المنثور ونشر من العلم المنشور، فأرهف مخاذم البراعة، وأرعف محاكم اليراعة، فعمر الدّمن، وبلغ في الإفادة القنن، وخلف للأمة ميراثا من اللآلئ الحسان، والجواهر الثّمان، خطها بنانه، وأنطقها لسانه، فعلم بالقلم واللسان، وبالبنان والبيان، ترك وراءه ألوفا من المحاضرات اشتملت على كل الموضوعات التي تنير العقول بالمعرفة وتربي النفوس بالحكمة والموعظة الحسنة وتصلح القلب بالتربية والتزكية.

أما عن دعوته ومواقفه! فقد كانت دعوته خالصة متجرد لها، ولهذا ينفذ كلامه إلى القلوب، فيلهبها بمشاعر اليقين والحب، ومعاني الإيمان والإحسان..

وذلك لما لمست فيه طوال رحلتي مع مؤلفاته ومرئياته ومواقفه من صدق وتجرد، جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

عاش الشيخ للدعوة عمره وكانت أكبر همه.. ولم يلهث وراء مال ولا جاه! و لم يركض وراء المناصب التي يتهافت عليها كثيرون ممن يلبسون لبوس أهل الدين، وأحق ما يوصفون به ما جاء عن بغض السلف (ذباب طمع وفراش نار) فلم تلن له قناة، ولم يسل له لعاب، وظل بعيدًا عن مواكب الطبل والزمر، فما يطيق الشيخ أن يسكت عن حق فكيف يراد له أن ينطق بالباطل؟! فكانت الدعوة إلى الإسلام لها كل عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، ولهذا حين يتحدث عن قضايا المسلمين فإنما يتحدث قلبه قبل لسانه، ويعبر قلبه عما جاش به صدره، وانفعلت به حناياه، فهو رجل ظاهره كباطنه، وعلانيته كسره، أكره شيء إليه نفاق الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، عرفته لا يحب الرياء الديني ولا الرياء الاجتماعي، ويرفض كل المظاهر الكاذبة، ويندد بأولئك الدجالين الذين يأكلون بالدين ولا يعملون به، ولا يعملون له.. وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، فإذا رأى ظلما أو عوجا – في رأي نفسه على الأقل ـ لم يستطع أن يغلق فمه، أو يغمد قلمه، بل صب عليه جام سخطه، ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام، ولكن يكمل هذا أن الشيخ لا يفجر في خصومته ولا يفتري على خصمه، أو يتمنى له السوء. معاذ الله ما عرفته إلا ناصح أمين.

لقد وقف الشيخ نفسه وجهوده على توعية المسلمين بحقائق دينهم ليل نهار. خطيبًا ومدرسًا ومناقشًا ومؤلفًا، لا يداهن أحدا في حق الإسلام ولو كان

أقرب الناس إليه وأعزهم عليه ولهذا كثرت ردوده حتى على أحبابه وأصدقائه في هيئة كبار العلماء، وأخر ما صدر منه: كان ردًا على وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور أسامة الأزهري دفاعا عن الشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

وقد ضاعف من أثره ومن تقدير الكافة له ذلك الدأب الذي تميز به في خدمة العلم.. فدروسه لم تنقطع قط سواء في الأزهر أو على المنصات التواصل، ولا يكاد يفرغ من جانب حتى ينتقل إلى الآخر، ولا يشغله عن ذلك شاغل إلا الأحوال الملزمة كالنوم والطعام والمرض، فإذا ما وجد فسحة بين هذه الأعمال لجأ إلى القلم ينشئ ردا، أو يجيب على استفتاء، أو يناقش رسالة، أو يراجع كتابا، هذا إلى امتيازه على الكثيرين من المشايخ والعاملين في خدمة الدعوة بأنه لم يقتصر عطاءه على الناس ويمهل آل بيته فقد أحسن الغرس ولله الحمد، وجمع بين الحسنيين فكان له من تلاميذه الكثر أحسن الغراس التي شرعت تؤتي أكلها تحت عينه

وكثير ما نصح الطلاب الوافدين والمصريين بعدم تقبيل أيادي العلماء، ورفض هذا المبدأ. قائلا: لا تكونوا حربًا على شيوخكم بتقبيل أيديهم، بِرُّكَ بشيخك ليس بتقبيل يده أو رأسه، أو أن تحملَ حقيبته أو حذاءه! فإنك إن فعلتَ ذلك فقد لا تؤجَر عليه، بل ربما تُحاسَب عليه، لأنك إن فعلتَ ذلك فقد تفسد عليه نفسَه.. لكنَّ برَّك بشيخك أن تُحسنَ التلقِّيَ عنه، وأن تستثمر ما تلقَّيت، وأن تنشرَه في الناس، وأن تدعوَ له بحُسن الخاتمة.. وقد زادت مكانته في قلوب الوافدين ما يعرفونه من زهده وإخلاصه، وصدق لهجته، وصلابته في كل ما

يعتقد أنه الحق، كان رحمه الله في مقدمة العلماء المثيرين للهمم، الشاحذين للعزائم.

أما عن حياته ورحلته العلمية: كان الشيخ رحمه عالمًا واسع الباع، كثير الاطلاع، غزير العلم دقيق الفهم، عالمًا بالبلاغة له مقدرة عجيبة على حسن الاستدلال والاستشهاد. فإذا سمعته يغوص في أعماق البلاغة ويجول ويصول في أسرارها ويجمع في موضوعاتها ويتكلم في البديع والبيان، خلته الجرجاني أو الجاحظ! كان رحمه الله أديبًا أريبًا، وكاتبًا ناثرًا استطاع أن يكون نسيج وحده في الكتابة، تشعر وأنت تقرأ له في كل ميدان كتب فيه، أنه يكتب بقلم الأديب، وعقل المفكر، وقلب المحب، يحلق بك في آفاق السماء، ويغوص بك في أعماق النفس، ويسبح بك في جنبات الوجود فتشعر أن لها تعبيرًا صادقًا، وشعورا دافقًا. كان رحمه الله مجتهدًا في فنه ميسرًا مبشرًا، يميل إلى المياسرة لا المعاسرة، والتسهيل لا التعقيد والتسامح لا التعصب والمرونة لا الجمود. ومرحبا بكل جديد صالح ومبشرا في الدعوة ملتمسا الحكمة من أي وعاء خرجت، عاملا على تعزيز المشترك الإنساني والديني والحضاري مرتبطا بالأصل كتابًا وسنةً.

أما عن خلقه: فقد كان رحمه الله حسن الخلق، عف اللسان، فلم يذكر أحدا بسوء مهما خالفهم في كتاباته، ولم يشغل نفسه بالخصومات والجدالات، وكان ربما خالف ولكن يحترم مخالفه، فلم يكن يطعن في العلماء كان منصفًا مع كل العلماء كانت طريقته أن يضيء الشموع ولا يعلن الظلام وكان على قدر كبير من التواضع وهضم النفس ومعرفة الفضل للغير ولم تمنعه المعاصرة من المناصرة

بل كان يدافع عن العلماء في حياتهم، ويؤبنهم بعد مماتهم، فيذكر مناقبهم ومآثرهم وأثنى عليهم.. أما عن حاله: فقد كان من الرعيل الأول من الزاهدين العابدين، الذين أنِفوا عن الدنيا وعن زرجونها، ولو شاء أحدهم أن يتورق منها لما أعياه ذلك.. وقد عاش في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، راضيًا بما يسد الرمق ويطفئ الحرق من الطعام والشراب، وما يستر العورة من اللباس، يؤثر حياة التقلل والتقشف على حياة الترفه والتنعم، ويجد متعته في التأليف والتدريس والتعبد.

وأخيرًا ترجّل الفارس المغوار، وبلغ الكتاب أجله، ولقي الشيخ الحبيب ربه، مشيعا بخفقات القلوب المحبة، وزفرات الصدور الحزينة، وعبرات العيون الباكية، وتأوهات النفوس الآسية، وتضرعات الألسن الداعية.. إن اللسان ليتلعثم، وإن القلم ليتعثر، وإن الفكر ليرتبك، فيعجز اللسان عن التعبير، ويعجز القلم عن التصوير، ويذهل الفكر عن التفكير، وتؤول الأحوال إلى كلمات ما لهن حروف، يترجم عنها الأسى العميق، والحزن الشديد، والجفون الدامعة، والنفوس الجازعة، والقلوب الدامية، والجروح الغائرة، وكيف لا والخطب جلل، والفاجعة فادحة لاذعة، والمصيبة رحيل شيخنا وعالمنا النحرير محمود توفيق سعد.. الذي وافته المنية يوم الخميس ٢٨ شعبان ١٤٤٦هـ الموافق ٢٧ فبراير ٢٠٢٥م، عن عمر ناهز خمسة وسبعين عامًا.

وأنا هنا لستُ أؤرِّخ له رحمه الله فما أنا بالمؤرخ، ولكني أشير إلى ملامح من حياته وسيرته، عرفتُها عنه، ولا أزعم أنى رسمتُ له صوره بيِّنة الملامح، فما أنا ممَّن يحسن الرسم.. وربما قيل: إنك تكتب بقلم المحب لا بقلم الناقد، وأنا

أشهد أني أحبُّ هذا الشيخ الجليل وأتقرب إلى الله بحبِّه، ولكني لم أعدُ الحق فيما خط قلمي، ولا ينبغي أن يغمط الإنسان من يحب، فرارا أن يتهم بالتحيُز، فالعدل يحكم القريب والبعيد، والصديق والعدو، {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}

وليست هذه المقالة كاملة المعاني والألفاظ، فلا أزعم أني أملك كل أدوات المؤرخ، ولا أملك المعلومات الكافية لمثل هذا العمل في حجم هذا العالم! لكنني أرجو أن يوفِّق الله بعض أبنائنا الدارسين في أقسام الدعوة وغيرها، أن يقدموا في أطروحاتهم العلمية دراسات ضافية عن الشيخ رحمه الله، وعطاءاته الخصبة والمتنوعة، بما يليق بمكانه الشيخ العلمية والدعوية والإصلاحية.. ولا يزال الحديث عن الشيخ الجليل موصولًا، وسيظل إن شاء الله، وما زال إخوانه وأبناؤه وتلاميذه يذكرونه كلما جد الجد، وأدلهم الخطب، وتلبدت السماء بالغيوم، على نحو ما قال الشاعر قديمًا:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر!

رحم الله شيخنا محمود توفيق سعد، وتقبله في الأئمة الهداة المهديين، وأخلف الأمة فيه خيرًا.

تعلمت من شيخي

بقلم د: سامي محمد البربري

لقد تخرجت في كلية اللغة العربية جامعة الازهر فرع المنوفية الشعبة العامة عام ٢٠٠١ بتقدير عام ممتاز.

وفور تخرجي التحقت بالدراسات العليا بنفس الكلية الشماء بقسم البلاغة والنقد ثم أكرمني الله تعالى بتسجيل درجة التخصص الماجستير بذات القسم وبذات الكلية وقد تكونت لجنة الإشراف على الرسالة من فارسين من فرسان البلاغة العربية الأول استاذنا الدكتور السيد محمد سلام استاذ البلاغة والنقد والعميد السابق لكلية اللغة العربية بالمنوفية والثاني الأستاذ الدكتور أحمد هنداوي عبد الغفار هلال استاذ البلاغة والنقد بنفس القسم.

شرفت بأن حاضرني في هذا القسم علماء اجلاء في مقدمتهم عميد البلاغة العربية شيخي وأستاذي الأب المعلم بمعنى الكلمة معالي الأستاذ الدكتور/ محمود توفيق محمد سعد رحمة الله عليه عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية عضو لجنة المحكمين لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر إن شئت فقل رجل من جيل الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحد.. فهو من الصلاح والوقار والهيبة بمكان

في ذات الوقت هو علم من أعلام البلاغة العربية في العصر الحديث حازم في معاملاته جزل في ألفاظه وعباراته عميق في فهمه ودلالاته.

تعلمت منه الأخلاق قبل العلم وكان مما تعلمت منه رحمة الله عليه:
أولا: الإحسان الى الوالدين ففي أول محاضرة حاضرنا فيها الشيخ أنا وطلبة العلم ممن شرفت بصحبتهم في السنة الأولى دراسات عليا ان قال الشيخ ما نصه: أي بني أعلم إن برك بوالديك وإحسانك اليهما مقدم على طلبك للعلم فحذاء والديك أعلى شأوا من الماجستير والدكتوراه والأستاذية. حذاء والديك يدخلك الجنة أما الماجستير والدكتوراة والأستاذية فقد تطلب بها دنيا فانية والدنيا عند الله تعالى لا تساوي جناح بعوضة فإياك أن تقدم طلبك للماجستير والدكتوراة والأستاذية على إحسانك لوالديك، إياك ثم إياك ثم إياك.

ثانياً: تحري الحلال الطيب.. كنت في السنة الثانية دراسات عليا وحدي يحاضرني الشيخ في قاعة الدرس وكأنها ممتلئة عن آخرها وذات يوم وأثناء المحاضرة أخبره سكرتير مكتب سيادة العميد بان سيادة العميد وجميع أعضاء مجلس الكلية في انتظاره لعقد مجلس الكلية الشهري فما كان منه الا ان قال له: عندي محاضرة واعتذر بعد مدة قرابة الساعتين جاءه سكرتير مكتب سيادة العميد بأوراق مجلس الكلية ليوقع عليها حتى يصرف البدل النقدي المخصص لذلك فرفض أن يوقع وأمام إصرار سكرتير مكتب سيادة العميد اخذ شيخنا الأوراق وكتب ما نصه: لم أحضر ولا أستحق البدل محمود توفيق.. وقال أنا لم أحضر مجلس الكلية فكيف اتقاضى عليه مالا وذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: لن تزول قدما عبد

يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: الدقة المتناهية في الالتزام بالمواعيد.. كانت المحاضرة الأولى دراسات عليا تبدأ الساعة٨:٣٠ الثامنة والنصف صباحا. كان استاذنا صيفا وشتاء يتواجد في الكلية الساعة ٨:٠٠ الثامنة صباحا رغم بعد المسافة بين محل إقامته بالقاهرة وبين محل الدرس في كلية اللغة العربية بشبين الكوم محافظة المنوفية مدة المحاضرة ساعتين إذا هي ساعتين بالتمام والكمال لا تنقص بل قد تزيد عن ذلك كان استاذنا رحمة الله عليه يدرسني أكثر من مادة فكان يعطيني في أحايين كثيرة محاضرتين متتابعتين بمعدل أربع ساعات متتالية متواصلة دون كلل أو ملل رحمه الله رحمة واسعة.

رابعا: الأمانة حتى في توزيع الدرجات.. لما انتهت السنة الأولى دراسات عليا على خير ونجحت بفضل الله تعالى وشرعت في أول محاضرات السنة الثانية وكان استاذنا قد أعطاني في مادة من مواده بالسنة الأولى ٨٩,٥ تسعة وثمانين ونصف درجة فقلت لأستاذي هلا أعطيتني النصف درجة هذه حتى يصبح التقدير يا استاذنا ممتاز بدلا من جيد جدا فقال: يا بني كيف افعل ذلك وانا أوقع عن الله في الأرض فلا يحل لي ان أزيد أو أنقص راجع يا بني كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه.

خامسا: احترام وتوقير العلماء: كان أستاذنا رئيسا لقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية، وكان معه في نفس القسم أساتذة وعلماء أجلاء منهم الأستاذ الدكتور محمود موسى حمدان عليه سحائب الرحمة استاذا متفرغا من أبناء محافظة المنوفية وكان أستاذنا الدكتور توفيق يدرسنا مادة علم المعاني وماده النقد الأدبي القديم وكان استاذنا الدكتور حمدان يدرسنا مادة علم البيان.

ولاحظت أن أستاذنا الدكتور توفيق كلما التقى بأستاذنا الدكتور حمدان فإنه يوقره ويجله ويعامله بحفاوة شديدة بالغة الشدة إن شئت فقل كأن ابنا بارا يعامل والده المسن فسالت أستاذنا الدكتور توفيق ذات يوم عن السر في ذلك فأخبرني بان استاذنا الدكتور حمدان قد درسه في المرحلة الثانوية الأزهرية بصعيد مصر.. ومرت الأيام تلو الأيام والأعوام تلو الأعوام وأصبح توفيقا استاذا ورئيسا للقسم الذي يعمل به شيخه حمدان فانظر الى التواضع الجم بين العلماء رحم الله العالمين الجليلين رحمة واسعة.. هذا غيض من فيض وإلا فهناك الكثير والكثير من صور التربية الأخلاقية العملية التي تعلمناها من شيخنا واستاذنا العالم الرباني الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد.

الله أسأل أن يسكنه الفردوس الأعلى من الجنة وان يرزقه مرافقة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن يمتعه بلذة النظر الى وجهه العظيم اللهم أمين أمين.

لم يتكبر يوما بعلمه

بقلم الشيخ: محمد رفعت عليمي

عرفته رحمه الله منذ عشر سنوات كان قمة في التواضع وحسن الخلق إذ كان يصلي معنا في مسجد المتوكل الذي أخطب فيه ثم ينصرف، كان يحب أن يعيش في غمار الناس وفي يوم من الأيام قال لي بعض المصلين: هذا الرجل دكتور في جامعة الأزهر فذهبت لكي أتعرف عليه رحمة الله عليه قال انا محمود توفيق ذكرني بشيخ الأزهر حفظه الله حينما كان يقول انا احمد الطيب وتعرفت عليه كلما رأيته في المسجد تستشعر كأنك بين يدي رجل من الصالحين ومن العلماء الربانيين الذين قلما تجد مثلهم في زماننا هذا زمن البحث الشهرة والظهور.

وفي يوم من الأيام كان يصلي معنا رجل آخر كل جمعه ويأتي إلي ببعض كتب ومجلات الازهر فتعرفت عليه فقال أنا الاستاذ الدكتور أحمد منصور عميد كلية الدارسات الإسلامية وأستاذ البلاغة فحينما سمعت هذا ذهلت وقلت له حضرتك تفضل نتعلم من علمك وتلقي درساً للمصلين أو تخطب لنا خطبة الجمعة فقال لا وأشار على فضيلة شيخنا الفاضل وقال هل تعرف الدكتور محمود توفيق الذي يجلس في الصف الأول قلت له: نعم قال: أنا تلميذه فاجعلني مثله في غمار الناس الله أكبر أنظر تواضع علماء الأزهر ولم يقل في يوم من الأيام للمصلين أو الجيران أنا من علماء الأزهر أو تكبر بعلمه بل كان قمه في التواضع

وحسن الخلق وكل من يتعرف عليه يقول اسمه مجرداً دون ألقاب بل يقول بكل تواضع محمود توفيق رحمة الله عليه في يوم من الأيام كان بعض المصلين عنده رسالة ماجستير وهو في كلية حقوق بعيد عن الأزهر وطلب من فضيلة الدكتور محمود توفيق أن ينظر ويراجع رسالته العلمية ويصحح له الأخطاء اللغوية فلم يتأخر أو يتردد لحظه واحده وظن الباحث أن فضيلة الدكتور لانشغاله بعمله وبطلابه ومع كبر سنه ومرضه أن هذا الأمر سوف يستغرق شهر شهرين أو أكثر فإذا هو يفاجأ بأن الدكتور محمود توفيق قد انتهى من تصحيح الأخطاء في حوالي ثلاث أيام فقط فجزاه الله عنا وعما قدمه من علم وخدمه للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وأنا اليوم أشعر بالحرمان فلما سمعت بخبر وفاته كان نفس الشعور عندما فقدت أبي وكنت معتاداً كل يوم جمعه قبل أن أصعد المنبر أسلم عليه أولاً وأقول بعد إذن فضيلتك يقول لي تفضل ويدعو الله لي بالتوفيق ومازلت أتفقد المكان الذي يجلس به وأبحث عنه وأستشعر بوجوده كأنه معنا ولم يمت حتى رأى البعض رؤيا مبشره مع أن الذي رأى الرؤيا لا يعرف الدكتور محمود توفيق معرفه شخصيه إلا من خلالي حينما رآني حزيناً عليه فبعد وفاته رأى الدكتور محمود جاء إلى المسجد ويلبس ثياباً بيضاء ووجهه يشع منه النور ومعه سجاد أخضر وموازين بيضاء وسأل: أين الشيخ محمد أنا جاي أصلي معاه أنا بحب أصلي معاه فاللهم بشره وارزقه الفردوس الأعلى من الجنه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا اللهم آمين يارب العالمين.

وتذكرت أيضاً حينما حدث خلاف يسير ورد فضيلة أستاذنا الدكتور محمود توفيق على الدكتور أسامه الأزهري قام بعض الناس وهاجموا فضيلة الدكتور محمود توفيق، وكان الأمر لا يستدعي هذا كله فحزنت لما حصل ولكن وجدت أن الدكتور محمود توفيق لا يعبأ بشيء ولا يشغله كلام الناس ولا يبحث عن شهره ولا عن منصب يبحث فقط عن طريق الحق ومرضاة الله سبحانه وتعالى.

وقلت له: إن الدكتور أسامه الأزهري لم يتكلم عنك بشيء ولكن هم بعض الشباب المتحمسين قال: أنا أعرف الدكتور أسامه الأزهري جيداً وأثنى عليه خيراً وقال: أنا أحبه فقلت: هكذا هي أخلاق العلماء حتى لو كان هناك خلاف يسير لكن يبقى الحب والود في الله وليتنا نتعلم من أمثال هؤلاء ونترفع عن العصبية وننشغل بالعلم وأمور الأمه ولما توفي فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق نعاه الدكتور أسامه الأزهري فما أجمل علماؤنا الكرام وهذا هو حال علماء الأزهر الربانيين حفظهم الله تعالى.

الزاهد الإنسان

بقلم: دعاء الشاهد

كان الدكتور محمود توفيق سعد من أولئك العلماء الذين تجتمع فيهم عظمة العلم وسُمُو الأخلاق، كأنّ في شخصه تآلفًا بين العلم الذي يُنير العقل، والتواضع الذي يلامس القلوب. كانت أخلاقه تُشبه بساتين الخير لا تثمر إلا طيبًا، فهو لم يكن يُعلّم بالكلمات فقط، بل بسلوكه الذي كان قدوةً لكل من عرفه. كان التواضع زينة علمه، فلم تُثقله مكانته العلمية بغرور، بل رأى في العلم نعمة من الله تستوجب الشكر والبذل. أثناء جلوسه مع طلابه لا تشعر بأنه أستاذ يعتلي قمة المعرفة، إنما أخ كبير يحتضنهم بنصائحه، ويرشدهم بهدوءٍ. كل طالب في عينيه هو مشروع يحمل في داخله شعلة تحتاج إلى من يُضيئها .

أما رحمة قلبه فياضة لا حدود لها. ينصت إلى من حوله بصدقٍ قلّ نظيره، يجعل الآخر يشعر أنه ليس فقط مسموعًا، بل مفهومًا ومهمًا. رأى في العلم رسالة إنسانية، وفي الأخلاق جسرًا يصل القلوب، فلا يُمكن للعلم أن ينفصل عن الأخلاق في قاموسه.. حُسن تعامله مع زملائه وطلابه كان يُدهش كل من عرفه، فهو الذي لم يغلق بابه يومًا أمام من يحتاج إليه، ولم يتردد في مد يد العون لأي أحد، سواء أكان طالبًا يبحث عن إجابة، أم زميلًا يبحث عن نصيحة. كان يحتفظ بابتسامة دافئة تُبدّد صعوبة المواقف، وكلمة طيبة تُعيد الأمل لكل من أنهكه

التعب.

علم محمود توفيق سعد أن الأخلاق هي جوهر العلم، فلا قيمة لمعرفته إذا لم تكن مُطعّمةً بحب الخير للناس. ترك بصمةً لا تُنسى في نفوس من عرفوه، ليست فقط بعلمه الغزير، بل بأخلاقه التي كانت مرآةً لنقاء روحه. العالم الإسلامي محمود توفيق سعد، هو نموذج فريد للإنسانية المتجذرة في العلم، حيث امتزجت في شخصيته عظمة العالم وأصالة الإنسان. في حضوره كنت ترى الإنسانية تتجلى في أبهى صورها، كأنه يجسد القيم التي يدعو إليها دين الإسلام من رحمة، وعطاء، وتواضع. حمل في قلبه حبًا لكل من حوله، عرف أنه في طلب العلم تكمن رسالة إنسانية سامية، تعلو فوق كل الحواجز. لم يكن مجرد عالمٍ يسعى لفهم الكلمات والأساليب، بل كان إنسانًا يفتح أبواب العلم لطلابه، وكأنه يهديهم مفاتيح العالم دون أن يبخل عليهم بشيء. أكد أن العلم بلا رحمة يُصبح مجرد أداة، وأن التعليم الحقيقي يبدأ من القلب ليصل إلى العقول .

في كل محاضرةٍ ألقاها زرع محمود توفيق سعد الأمل في نفوس الطلاب، وأرشدهم إلى طريق الفهم العميق الذي يمس جوهر الأمور. لم تكن لغته مجرد لغة أكاديمية جامدة، بل كانت محملة بروحٍ إنسانية تجعل العلم وسيلة للارتقاء بالروح، لا فقط بالعقل. إنسانيته لم تقف عندَ حدود قاعات الدراسة، بل تجاوزتها إلى حياته اليومية. كان يبادر إلى مساعدة من حوله، يرى في كل شخص فرصةً للتواصل والمشاركة. في عيون من عرفوه هو الأب والأستاذ والصديق، جمع بين الحكمة التي يحتاجها العلماء، والرحمة التي يحتاجها البشر.

محمود توفيق سعد لم يكن مجرد اسم في قائمة العلماء، بل كان روحًا ملهمة تُعيد تعريف الإنسانية في إطار العلم. آمن أن العمل العلمي الحقيقي لا ينفصل عن الأخلاق، وأن أعظم إنجاز يُمكن أن يحققه الإنسان هو أن يجعل من علمه وسيلةً للخير ولإثراء حياة الآخرين. رحيله لم يكن نهاية لتأثيره، بل بداية لخلود إنسانيته التي ستبقى مضيئة في كل قلبٍ استفاد من علمه، وكل عقلٍ تفتح بفضل جهوده.. إن إنسانية محمود توفيق سعد، لم تكن مجرد إضافة لشخصيته، بل كانت جوهره ولبه الذي لم يفارقه يومًا. ومما يدل على أدبه الجم: "ذات مرة وعند دخول شيخه الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى إلى مجلس العلم، قام وأخذ بيده وسار خلفه حتى أجلسه على مجلسه، ثم جلس أمامه جِلسة التلميذ المحب لأستاذه، المنصت إليه، يولي وجهه شطره، وبين يديه الكتاب. كلما شعر بالتعب من جِلسته يمد رجله اليمنى بخفة وحياء ليريحها بعض الراحة، ثم يرجعها، ثم يمكث حينًا، ثم يمد رجله الأخرى بخفة وحياء ليريحها هي الأخرى ثم يرجعها مرة أخرى ."

محمود توفيق سعد رجل يفيض إنسانية لا يعرف الجفاف طريقًا إلى قلبه. في كل يومٍ من حياته، كانت إنسانيته تسبق علمه، كأنها الشجرة الوارفة التي تُظلل من يلجأ إليها دون تمييز. أحبّه طلابه بصدق، ليس فقط لمكانته العلمية أو لغزارة علمه، بل لأنه كان لهم أبًا وأستاذًا، يُرشدهم بلطف العالم، ويغمرهم بحنان المربي. كان وجوده في قاعة الدرس كنبضٍ يُحيي الأرواح، كلماته تُشبه ماءً عذبًا يتسلل برفق إلى القلوب والعقول، يروي فيها شغف المعرفة ويُشعل حُب التعلم. كان يُعامل طلابه كأصدقاء يشاركهم رؤاه، وكأن كل سؤال يُطرح أمامه هو بوابة

إلى عالمٍ جديد من الفهم. كانوا يحبونه لأنهم رأوا فيه تلك الروح النقية التي لا

تعرف للكبرياء مكانًا، فهو العالم الذي لم يتعالى بعلمه، بل كان يُبسطه حتى يُصبح في متناول الجميع. كان يُنصت إليهم كأن حديثهم هو أهم ما يُقال، ويُشجعهم كأن نجاحهم هو انعكاس لنجاحه هو. وحين يشرح يُضيء لهم الطريق بأمثلة تحمل الدفء، وتُرسم بالكلمات كما لو كانت لوحة نابضة بالحياة. كان يُحب العلم بعمق، وهذا الحب يُشعّ في أعين طلابه، فيُحبونه لأنهم رأوا فيه الإنسان قبل أن يروا العالم. لم يكن مجرد أستاذ يُلقن دروسًا، إنما شعلة أمل تُنير الطريق، وأيقونة إخلاصٍ تُعلمهم كيف يكون الإنسان مخلصًا لما يُحب. حُب طلابه له كان انعكاسًا طبيعيًا لروحه العظيمة التي غمرت كل من اقترب منها بالنور والدفء. تمتع بدفء الأبوة في ثوب العالم. لم يكن ممن يغفل عن تفاصيل النفوس، فاقترب من طلابه بلطفه، كان أبًا للجميع يرى في دعمه لهم حياةً تُولد لتنير طريق العلم. ومنارةً في زمن الحاجة، يساعد كل من حوله ويساندهم، متواضعًا يمد يده بالعطاء اللامتناهي. لم يكن ينظر إلى المناصب ولا إلى الألقاب، بل ينظر بعيني قلبه، يرى الإنسان في كل شخصٍ أمامه. أكد بتصرفاته أن العطاء لا يحتاج إلى مناسبة، وأن اليد التي تمتد بالمساعدة تُشبه النور الذي لا ينطفئ أبدًا. هو رسالة من الرحمة في وقت الفقد، ودليل على أن العلم الحقيقي ليس فقط في الكتب، إنما في القلوب التي تُضيء حتى في أصعب الأوقات.

محمود توفيق سعد إنسانٌ قبل أن يكون عالمًا، يرى في كل موقفٍ فرصةً ليمنح العالم شيئًا من دفء قلبه. لم يكن يساعد ليُشكر، ولم يكن يُنقذ ليُرى، بل

في الحياة وكأنه شمعةٌ تُضيء دون أن تُطالب أحدًا بأن ينظر إليها.

إن الدكتور محمود توفيق شخصية متفردة، تجمع بين العلم والإيمان في توازن رائع، وكأن روحه مشدودة نحو السماء بأملٍ لا ينقطع، بينما قدماه ثابتتان على الأرض ببذلٍ لا يُحد. في كل خطوة من حياته يرى أن الإيمان هو زاد الإنسان الذي يُعينه على الصبر والبذل والسعي نحو الحقيقة. كان إيمانه انعكاسًا لروحه العميقة؛ يُجسد الخشوع في صلاته، ويُترجم اليقين في قراراته، وكأنما نفسه تُنير بحبٍ لله. عندما يتحدث عن العلم، كلماته تُحمل برائحة التفاؤل واليقين بأن العلم والإيمان هما جناحا السمو، لا يمكن لأحدهما أن يطير دون الآخر. لم يكن يرى في الابتلاءات سوى جسرٍ يوصله إلى رحمة الله، يُواجه المحن كما يُواجه طالب العلم التحديات بعقلٍ مُتفتح وصبرٍ يليق بمؤمنٍ يُدرك أن كل ألمٍ هو درس، وكل صعوبة هي بابٌ يُفضي إلى خيرٍ لا يُدركه في حينه. كان هذا العالِم التقي الزاهد الورع -كما يروى عنه- يُسدي نصائحه بكلماتٍ مليئة بالإيمان، تُشعر من يسمعها وكأنه على بعد خطوة من تحقيق ما كان يظنه بعيدًا. كان مصدرًا للإلهام للقلوب الباحثة عن اليقين في زمنٍ يمتلئ بالشكوك. وشدة إيمانه تُرى في تلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه، وكأنها رسالة للجميع بأن الإيمان الحقيقي لا ينفصل عن الأمل، وأن القرب من الله يُولّد نورًا داخليًا لا يخبو مهما طال الليل. في رأيه أن العلم الذي لا يتكئ على الإيمان يُصبح مجرد أداة، وأن الإيمان الذي لا يُزينه العلم قد يُحرم من القوة الحقيقية لفهم الحياة وتغييرها.

العالم القوي الشجاع

بقلم: أسماء محمد سلامة

قبل بدء شهر رمضان المبارك لعام ١٤٤٦ رحل عن عالمنا ودنيانا فضيلة العالم الأزهري الجليل الدكتور (محمود توفيق سعد) عضو هيئة كبار العلماء، والحق أنني لم أكن أعرف الرجل إلا بمجرد الاسم، ولم يسبق لي أن تشرفت بلقائه خاصة وأنه كان رئيسا لقسم البلاغة بكلية اللغة العربية التي تجاور كليتي أصول الدين في مدينة شبين الكوم بالمنوفية، لكنني منذ عهد قريب بدأت أتسامع به المقربين مني وكان منهم صديقي الشيخ فتحي رزق والذي تتلمذ على يديه واصفًا لي بعض ما كان عليه الشيخ الجليل من علم ومعرفة ونزاهة وتواضع وإخلاص وزهد وهمة عالية.

استمعت مؤخرا إلى بعض المقاطع التي عرضها بعضهم بمناسبة رحيله، فبهرني حديثه عن التواضع والافتقار إلى الله، وكان مما حذر منه طلبة العلم أن لا تُقبلوا يد شيوخكم وانتصبوا وفيكم عزة فكل هذا كلام فارغ.

بهرني حديثه وهو يذكر كتاب سير أعلام النبلاء، ويدعو إلى قراءته ثم يقول: اقرأ عن هؤلاء النبلاء حتى تعلم حقيقة نفسك، وأنك لا شيء بجوار هؤلاء، كلما قرأت عن نبيل منهم أدركت حقيقتك فلا ترفع عينك من الأرض

ولا تقول: أنا وأنا أو علمي، أو أنا الدكتور العالم العلامة والحبر الفهامة وحيد زماني وفريد نوعي كل كلام كذب.

كلمات الدكتور محمود سعد، كلمات معلمة ملهمة، تدلل على رجل كان يعيش في عباءة التواضع، ويتقرب بها إلى الله، وقد شاهدت له لقطة أخرى وهو يجلس في الدرس متربعا أمام الشيخ محمد أبو موسى، ولو أن رجلا غيره وكان مثله عضوا في هيئة كبار العلماء، لتأفف أن يجلس عند ركبة شيخ، وربما تحدثه نفسه: كيف أجلس إلى شيخ وأنا الذي يجلس الناس إليّ، فهو عالم وأنا عالم، لكن الرجل كان آية فريدة في التواضع وإخلاص النفس.

وأنا أكتب هذه الكلمات عنه، يتمثل في ذهني من العلماء ينعت نفسه بأفخم النعوت كالعالم العلامة وحجة الإسلام ويمد يده يقبلها القاصي والداني، ويفخر بهذا العبث والتباهي الزائف الذي يدلل على اهتراء صفة التواضع في نفسه.. فما أبعد البون بين الرجلين!

ولقد كان من أجمل ما نعاه به شيخ الأزهر الطيب قوله فيه: "إن العالم الراحل كان نقيَّ الضمير، عفَّ اللسان، لا يقول إلا خيرًا، وقد تميَّز بهمة الشباب وحكمةِ الشيوخ، ولم يطلب أمرًا من أمور الدنيا، فقد عاش منكبًّا على طلب العلم ونشره" والدكتور سعد لم يكن معروفا بالحجم الكبير، ولكن الدنيا كلها بدأت تتسامع به على نطاق واسع من الشهرة، حينما رد على وزير الأوقاف أسامة الأزهري في حديثه عن العلامة بن عثيمين وفي المرة الثانية حينما فرض وصايته على الأزهر والمنهج الأزهري وحدده بأنه الصوفي الأشعري، وغير ذلك لا يكون

أزهري، وقال قولته الشهيرة: (وإن رغمت أنوف) وهي الجملة التي فرح بها وهلل لها غلمان الصوفية الذين يستهويهم التعصب والمناطحة.. ثم شاء الله أن يأتي التوجيه من قلم عالم قدير جدير زاهد عابد متصوف، ولكنه ليس التصوف الذي يتبعه الكثيرون إنه التصوف المعتدل والمتسنن، الذي لا يقبل حرفا ولا فعلا ولا همسا إلا بميزان من الكتاب والسنة.

فكانت كلماته التي دوت في الأفاق: "أيها الوزير: ما قلته إنما هو افتآتٌ على الأزهر، [تقول العرب: افْتَأَتَ فلانٌ عَلَيْنَا يَفْتَئِتُ إذا اسْتَبَدَّ عَلَيْنَا برأْيه] وهذا أيها الوزير – أيضًا – إقامةٌ لنفسك مقامًا لا تستطيع أن تقومه، وإن كنت يومًا رئيسًا للدولة. إنّي أقولها لك، ولكل من صفق لمقالتك أو سكت عليها، ولم يردها عليك: أنا – بحمدِ الله تعالى – مسلمٌ، أزهريّ، صعيدي. أنا مسلم عقيدة وعبادة، وخلقا والحمد لله رب العالمين. وأنا أزهريّ حنفيّ المذهب الفقهي منهاجَ تعلم وتعليمٍ وتفكيرٍ وتعبيرٍ، ولا أتعصب له. وأنا صعيدي أنصر الحق بالحق احتسابًا وأرفض الضيم والنقيصة والمعرة.. وأنت كذلك صعيدي. تلك مقومات وجودي في هذه الحياة

لست أشعريًا، ولا سلفيًا ولا معتزليا، ولا أتخذ أي مذهب عقيدي نشأ بمدرسة "علم الكلام" إنما أنا في معتقدي آخذ بما كان عليه أصحاب سيدنا رسول صَلى الله عَليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم وهو قائمٌ في أسفار أهل العلم، وأنا لا أقول بتأويل صفات الله وأفعاله، ولا أجسم ولا أشبه، ولا أنفي ما أثبته الله تعالى ورسُوله صَلى الله عَليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم لنفسِه –سُبْحانَهُ وَتَعَالَى»

ويقول في رده: "وأنا أيها الوزير لست صوفيًا من صوفية الطرق والعهود والخرق الملونة والعصا السحرية المباركة، التي يتبرك بلمسها المريدون ولا من الصوفية الذين اتخذوا الرؤى والمجربات وإلهامات مصدرًا لمقالاتهم، ولن أكون إن شاء الله تعالي"

ثم كانت ثانية المفاخر في رده الجريء ودفاعه العظيم عن الشيخ ابن عثيمين وما رماه به وزير الأوقاف من اتهامات خطيرة وشديدة وغير دقيقة إذ يقول العالم الجليل محمود توفيق سعد: "قال: إن الشيخ ابن عثيمين رضي الله عنه وعن تلاميذه وعمن أحبه في الله تعالى – لا يصلح أن يكون قوله مصدرًا أو مرجعًا في البحث العلمي، وأن الأزاهرة لا يرجعون إلى قوله، وأن الشيخ ابن عثيمين يكفر الأزاهرة.. كلمات ستقف بين يدي الله تعالى يوم القيامة، ويقتص منك الشيخ الجليل في اتهامك له بأنه يكفر الأزاهرة هكذا على الإطلاق، ولن تسطيع أن تثبت هذا الاتهام.

نعم قد يكون مفسقًا أو مكفرًا من يقول الرب عبد والعبد رب، ومن يقول إن الله عبد نفسه، ومن يقول إن فرعون الذي أغرقه الله تعالى مات مؤمنًا موحدًا. وأن الكفار في جهنم يوم القيامة يستعذبون النار، ولا يتألمون؛ لأن العذاب من العذوبة.. فانظر أيها الوزير كيف تكون المنجاة مما رميت به الشيخ.. الرجل ذهب على ربّه – سُبْحانَهُ وَتَعَالَى – فأنّى لك أن تتحلل منه.

جريرة وضعتها في عنقك وما كان لك أنت تفعل. أيها الوزير أنا أقرأ لكل عالم مسلم قدر ما يُعينني الله تعالى عليه فما أيقنت أنه الحق أخذته ودعوت لصاحبه أيًّا كان، وما أيقنت أنه ليس بحق أو فيه شبهة تركته أيا كان صاحبه، ولو كان أبي رحمه الله تعالى. وأعتقد أن هذا هو منهاج كل طالب علمٍ بكتب الله وسنة رسوله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم احتسابًا. يقول الله تعالى: "وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا "[الإسراء :٣٦] هكذا كانت كلمات الرجل الجليل الذي ينتصر للحق والصدق ويرفض التعصب وينكر الافتئات والظلم والتجني.. كلمات قوية لا تخرج إلا من رجل يتق الله ولا يطلب دنيا ولا يخاف سلطة ولا يخشى أن يكون مغضوبا عليه من وزير وصاحب سلطان فله الله ما أجمله وما أروعه وما أفهمه وما أجل عقله ووعيه وسلامة نفسه.

علمت أن الدكتور محمد من تلامذة الرائد الكبير محمد زكي إبراهيم والذي كان رحمه الله صوفيا ساميا معتدلا ليس كصوفية اليوم وما هم عليه من كثير من الزيوف والتضليل، بل كان رحمه الله ثائرا في ميدان التصوف يحاول تصحيحه وتقويمه وضبطه على الصراط المستقيم، وهو الذي لم يعجب كثير من الصوفية فحاربوه ورفعوا عليه القضايا أمام القانون، وحاولوا إخراجه من المجلس الصوفي الأعلى، لكن الرجل كان منضبطا بالكتاب والسنة ويحارب خرافاتهم وينقي التصوف من شوائبها، ونحن لا نستغرب أن يكون مثل الدكتور توفيق من تلامذة هذا العالم النير، وقد شاء الله أن يختم الدكتور سعد حياته بالوقوف أمام شطحات الوزير ليلقى بها الله شهادة صدق ومقولة حق ورد عن

عرض عالم وتصحيح لمسار الأزهر الذي يقبل كل الأفكار ويضم تحت عباءته كل المذاهب ما دامت تجعل من كتاب الله وسنة رسوله منهجها وسبيلها إلى فقه الإسلام.

ويبقى السؤال: هل يمكن أن يكون هناك عالم في شجاعة الدكتور توفيق سعد؟ أعتقد أن ما فعله لا يستطيع فعله كثيرون، لأن الرجل كان يعيش لله ويقوم بالله ولا يتحرك إلا لله.. ورغم رده القوي على الوزير الأزهري، إلا أنه والحق يقال: أنه يحسب للوزير أنه نعاه نعيا كريما عظيما يليق بمقامه وحقيقته فقال عنه: "كان رحمه الله نموذجًا للعالم الأزهري الأصيل، المتجرد للعلم، المنصرف إلى البحث والتدقيق، المتفاني في نشر المعرفة وتربية الأجيال عفيف النفس، زاهدًا في الدنيا، لا يطلب إلا وجه الله، ولا ينشغل إلا بما ينفع الناس ويمكث في الأرض"

فرحم الله عالما رائعا ضرب لنا أروع المثل في التواضع الشجاعة وسماحة النفس والانتصار للحق والافتقار إلى الله.

الشيخ الغيور والمقاتل الجسور

بقلم: حاتم إبراهيم سلامة

كان شيخنا العلامة الدكتور محمود محمد عمارة رحمه الله من العلماء الهادئين الذين يدافعون عن الدين بلين ولا يميلون أبدا إلى الإغارة المباشرة والصريحة الظاهرة على أعداء الإسلام والمرتابين في هديه، بل كان رحمه الله رغم كونه أديبا فريدا إلا أن ميدان أدبه لم يكن من النوع الذي يمكن أن يحمل عاصفة على عدو أو أن يجعل من بلاغته نارا تحرقه.

وقد حدثته مرة في هذا الأمر فقلت له: لماذا لا أراك يا شيخنا تدهم أعداء الدين وترد افتراءاتهم بأسمائهم وشخوصهم؟ فقال لي رحمه الله: أنا لا أحبذ هذا وإنما أنا أرد الزيف من منطلق الآيات الكريمة والحديث النبوي فقط بعيدا عن المواجهة والمنازلة المباشرة وإقامة معركة دامية حامية الوطيس ينتج عنها نطاح ونزال وقضية تتفجر لتشغل الرأي العام بأن العالم الأزهري الفلاني يواجه الكاتب أو المفكر الفلاني، أنا أرد بالآية والحديث ولا أحدد اسما ولا أذكر شخصا.

وكان رحمه الله يرى أنه بهذا قد رد الفِرى وألزم المعتدين حدوهم، لكنني في الحقيقة لم أكن أرى هذا الدفع قد أتى أكله المراد وحقق غايته المنشودة، فالدفاع عن الدين لابد أن ينشأ ابتداء بمواجهة عنيفة كاشفة واضحة مع الخصم الذي

يبرز لنا في ساعة المعارك الفكرية ممتشقًا حسامه يدعونا للنزال، والدكتور عمارة رحمه الله في هذا الدفاع كان يتبع الأسلوب الموارب البعيد عن المواجهة المباشرة، وكأنه كان يخشى المواجهة لكنه لا يفر منها وإنما يتحرى طرقا أخرى أكثر هدوءا ولينا لتحقيق الانتصار للدين.. مع أن القضية التي أقيمت على التشكيك والتزييف لا تتحمل أي صورة من صور الرفق واللين.

كان شيخنا الدكتور محمود عمارة بعكس الدكتور محمد عمارة وأستاذهما الشيخ الغزالي رحمه الله، اللذان كانا يبدأن النزال بتحديد هوية العدو وذكر اسمه وشخصه والتثنية بعد ذلك على فكره وهرفه بلا هدوء أو ملاينة.

ولعلي أحبذ وأفضل أسلوبهما عن أسلوب شيخنا، لأن دفاع شيخنا يمكن أن يظنه القارئ موضوعا من موضوعات الدين لا يأخذ في طياته شكل الإثارة والتنبيه ودق أجراس الخطر بإعلان صريح صارخ.

وكذلك كان الدكتور الراحل محمد رجب البيومي وسطا بين المنهجين، فأنت تجده في أكثر دفاعاته غير مباشر بذكر الخصوم وتحديد هويتهم والحوم حول منبع المؤامرة التي سخرتهم لهذا النكران.. لكنك لا تعدم أبدا أن تجده يصب غضبه على أصحاب المفتريات محددا أسماءهم شاهرا في وجوههم سيف المحجة والبرهان بعنف لا نظير له.

ولعلي اليوم أتحدث عن فارس من فرسان هذه المدرسة المقاتلة التي لا تعرف المواربة ولا تؤمن باللين مع الماكرين لهذا الدين، ولعله رحمه الله في هذا

الميدان مغمورا لا يعرفه كثيرون لكنه كان من أقوى المدافعين عن الإسلام والزائدين عن حياضه رحمه الله، ولعل دفاعه عن الإسلام قد غاب شيئا ما في بحر تخصصه اللغوي والبلاغي، الذي عرف به أكثر من غيره، لكن تراث الرجل في الدفاع عن الإسلام لا يجب أن يهمل لأنني حينما تحسست هذا الميدان وجدت الرجل من أغير الناس على الدين وأسرعهم نجدة للشريعة، وأسرعهم لمنازلة العدو الغاشم.

ذلكم هو الراحل الكريم العلامة الدكتور محمود توفيق سعد عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف الذي وافته المنية وقد ساقني البحث أن أقف على بعض كتبه القوية النافعة ووجدت منها كتابا يتوافق مع منحاي الثقافي وتخصصي الدراسي وقراءاتي الفكرية والدينية، وهو كتاب (تغييب الإسلام الحق.. دحض افتراءات دعاة التنوير على القرآن الكريم) حيث قدم رحم الله كتابه بمقدمة نارية أوضح فيها منهجه في طريقته ومنهجه في التعامل مع خصوم الإسلام والمشككين في ثوابته والمتعمدين إثارة الريب في هديه، فذكر في معرض استشهاده بقول الله تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه لعلكم تغلبون) بأن " مقالة هؤلاء ماتزال في ألسنة وقلوب أحفادهم وخلفائهم من العلمانيين والماسونيين والشيوعيين في عصرنا هذا الذي شن فيه على القرآن والسنة صنوف عديدة من غارات التأويل المقيت والتحريف للكلم عن مواضعه وتغييب الحق عن قلوب الأمة"

وقال: " ما تزال مقالة الذين كفروا شاخصة في أحفادهم وخلفائهم و ورثة رسالتهم الشيطانية ينتهجون في قيامهم بهذه المقالة مسالك عصرية غير التي سلكها أجدادهم وأئمتهم حينما أتقنوا صنوف التزييف والتحريف والتغييب والإرجاف حتى تسقط الأمة تحت أقدامهم في مستنقعات الضلالة المبيرة"

لله دره رحمه الله فإن اللغة التي أقرأ بها بيان عظيم يشع لهيبا على أعداء الإسلام وهي نفس لغة الشيخ الغزالي وبعضا من لفح النيران التي كان الرافعي الخالد يطلقها عن أذناب التغريب.. مما يجعلك ترى معنى الفروسية الكاملة في دفاعات هذا العلم الأزهري الكبير رحمه الله، الفروسية التي تمتزج بالقوة القادرة على صفع الخصوم وإرعابهم.

يرى فضيلة الدكتور محمود توفيق أن "من واجب العلماء أن يدحضوا افتراءات وأباطيل وسماديز الخصوم من المرجفين من العلمانيين والماسونيين والشيوعيين أخدان الصهيونية وحلفاء الصليبية المتسترين بالدين تحت ستار الفكر الإسلامي"

انظر هذا الكلام وتأمل البيان المزلزل الذي أطلقه هذا القلم الغيور على خصوم الإسلام، لتشعر معه براحة نفسية حينما يستقر في ذهنك أن للدين فرسان وحماة يصدون عنه.. كما وجدته رحمه الله يتفق معي وهذا مما أسعدني كثيرا حينما كتبت مقالا قديما أرد فيه على كل من ينكر علينا الرد على شبهات الحاقدين ويقول لنا بملء فيه اتركوا شبهاتهم ولا تردوا عليها حتى لا تضخموها وتكبروها، وينادي فينا دعاتهم بقولهم: يا قوم أميتوا الباطل بالسكوت عليه، فهم يريدون

شغل الأمة عن قضاياها الكبرى، والحق أن قيام فريق من المتخصصين والعلماء للرد على افتراءات المشككين لا يفصل الأمة عن قضاياها أبدا، فهو مما يزيد الناس إيمانا بأن هذا الدين هو السبيل الحق الذي تناوشه السهام من كل مكان، كما أن قضايا الأمة لا نملك القرار فيها حينما تفرد بها الساسة، ولدينا فريق كبير من الكتاب والمفكرين من يقوم بها ويدور على أمرها، وكذلك نجد العلماء حينما يردون الشبهات عن دينهم فإن ذلك أيضا لا يشغلهم عن قضايا الأمة في شيء عليهم أن يدافعوا عن دينهم وكذلك لا تغيب عنهم قضايا الأمة.

وجدت فضيلة الدكتور محمود توفيق أسبق مني لهذه النظرة التي آمنت بها وعملت في مسارها واتبعتها من قديم، ووجدت من قوله وكلامه ما زادني يقينا بهذا حينما قال: "إن التصدي لنقض افتراءات أهل الباطل لا يليق بأحد من أهل العلم بكتاب الله وسنة نبيه التشاغل عنها بشيء من عرض الدنيا، ولا التهاون في تقدير خطر تلك الافتراءات، ولا الاعتذار بأن التصدي من أهل العلم لمثل هؤلاء الطغام دفعا لشأنهم وعونا لهم على تحقيق مآربهم من الشهرة والانتشار في الناس"

ثم يعلق رحمه الله على هذه النظرة بقوله: "إن مثل ذلك غير قويم.. فهو كمثل الذي لا يذب الذباب عن وجهه أو طعامه استهانة به واحتقارا لشأنه، فكيف إذا ما كان هؤلاء الطغام يتخذون من سكوت العلماء على ما يكتبون ويقولون وينشرون في الناس من أباطيلهم وسماديرهم ادعاء بأن ما قالوه هو الحق المبين الذي أخرص العلماء وأرغمهم على السكوت"

بل شدد النكير على أن الهروب من الرد على هذه الأضاليل والمفتريات المثارة يشبه كثيرا الفرار يوم الزحف، وذكر أنه فريضة على أهل العلم لا يجوز أبدا التهرب منها أو النكوص عنها، وبين أن ربائب الصليبية وأخدان الصhيونية تسعى جاهدة بكل ما تمتلكه أن تتغلغل في شئون المسلمين، وأن جهادنا لهؤلاء فكريا وثقافيا يجب أن يتوازى مع ما يقومون به من جهد.. جهادا بالسيف الباتر.

وذكر أن قوة العلم والثقافة والحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن لمنازلة من اتخذ الكلمة سيفا ومعولا لهدم أمتنا هو من مضامين القوة التي جاءت في قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" وذلك حتى تكون قوة العلم حصنا منيعا ورمحا صائبا في نحرهم وصاعقة تطيح بهاماتهم.

واستنكر رحمه الله أن تطبع هذه المؤلفات التي تبدد عقائد الناس وتنشر الزيوف والفرى حول دينهم من أموال الدولة وتنفق عليها مؤسسة في بلد لابد أن تحترم عقيدة شعبه ودين أمته.

ثم نادى الشيخ الغيور بما كان ينادي به الدكتور محمد عمارة دائما بأن من سبل مناصرة الحق والدفاع عنه أمام هجمات العلمانيين المخربين أن ترفع الأصوات بالشكوى والاستغاثة إلى ولاة المر بالحكمة والموعظة الحسنة ليمنعوا بسلطانهم هذا التخريب الثقافي.. ثم يقول رحمه الله قوله العظيم: "لن تكون لمسلم عزة وكرامة في الدنيا والآخرة إذا قابل الافتراء على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالصمت أو الحوقلة ومصمصة الشفاه" ما أزهى هذا الكلام وأنشاه للنفس المتعطشة لمثله في زمن غلب فيه خصوم الإسلام، وإن مثل هذا الكلام

حينما ينبع من علم من أعلام الأزهر وعضو في هيئة كبار العلماء، لمما يشعرني بأن الأزهر فعلا ما زال بخير، وأنه مستمر في دفع الفرسان الأحرار التي تتكسر على نصالهم شبهات المفترين المرجفين.

ولعل فيه وجود أمثاله العزاء الكبير عما نراه ونشاهده من علماء ودعاة ينتسبون للأزهر الشريف وهم في قمة العبث واللهو والانبطاح والميوعة وعبادة الشهرة والأهواء.. لقد أدركت شيئا من سر هذه المحبة العارمة التي قابل بها تلاميذ هذا الشيخ الأبي الجسور نبأ رحيله، وأدركت أنهم قبل أن يحبوا فيه علمه ونبوغه وإنسانيته، فقد أحبوا فيه غيرته على دينه، وجديته في التزامه، وتوثبه في الدفاع عنه.

وأخيرا إني أجد متعة عظيمة في قراءة هذا المنحى من كتابات الرجل وأراه يدفعني للبحث عن المزيد كتاباته الدينية التي انتصر فيها لدينه ومعتقده.

شيخنا وطلبة العلم

بقلم د: أسماء علي عبد الحليم

كان أوَّلُ لقاءٍ يجمعُني بِفضِيلتِه، رحمات الله تعالى عليه، حين كُنتُ بالفرقةِ الثانية في مرحلةِ الدراسات العُليا، عام ٢٠١٨م ـ ٢٠١٩م، جاء فضيلتُه، يَستأنفُ مجالس الشيخ دكتور نزيه، رحمة الله عليه، عقب وفاته في علمِ المعاني، ألا وهو درسُ الإيجازُ والإطناب والمُساواة، في رسالةِ الرُّمَّاني في إعجازِ القرآن، شرح فضِيلتُه، رحمة الله تعالى عليه، بما أنعم الله تعالى عليه من فيوضاتِ رحمته، واختتمَ أولى محاضراته العلميَّة بِسؤالٍ علميٍّ عويصٍ، وكانت غاية فضيلته، رحمة الله تعالى عليه، من سُؤلِه والجواب عليه أن يَتَعرَّف على عقليَّةِ ومهارةِ الحاضرين من طلبةِ العلم، فَطرَح لنا فضيلتُه، رابط التواصل معه عبر الفيس بوك، كي يَتَلقَّى الأجوبة فَيَفحصنَا، بل يُمحِصُنا، لِيَستَميزَ لديه المجتهد النبيه من غيره.. وَبِفضلِ الله تعالى اجتهدتُ، وإن شِئتَ قل: جاهدتُ، أن أُجِيبَ سؤله وأفوزُ، فراسلتُ فضيلته، رحمة الله تعالى عليه، والقلبَ يَتَدفقُ، خوفًا أن أُخطئ، وطمعًا أن أفوز، وأظفر، والحمدُ لله ربِّ العالمين تَلقَّى الشيخُ، رحمات الله تعالى عليه، الرّسالةَ، وتَصفَّحها، فما كان من فضيلِتِه، رحمات الله تعالى عليه، إلَّا أن كتبت يَمينُه، يقول لي: "أحسنتِ، سيكون لكِ شأنٌ إن تفرغتِ للعلم، إيمانًا واحتسابًا، ولم يُشغلكِ من الدنيا ما يُشغل باقي النساء، وكأنّي بوالدكِ حين سمَّاكِ أسماء كان مُستجابًا فأله من الله تعالى، دمتِ وَسماء حسناء، خُلُقًا وعقلًا".

كان شيخُنا المحمود توفيق، رحمة الله تعالى عليه، موسُومًا، وإن شئتَ قل مطبوعًا بِعطاءٍ وَفيرٍ، علمًا ودرسًا وكُتبًا علمية وكان معطاءً، بِما تعنيه الكلمةُ، وتقصُده.. هذا، ولم يُقصر عطاءُ الشيخ، رحمات الله تعالى عليه، علي، فَحسب، إنَّما تَتَفرّعُ عطاياهُ مع طلبة العلم أجمعين، باحثي ماجستير أو دكتوراه، فكم من باحثةٍ، أو باحثٍ، أعانها وشدَّ من أزرها، سواء أكان الطالب مصريا، أو وافدا، كذلك عطاياهُ لم تكفَّ عن العمالةِ بالكليةِ، عطاياهُ مبسوطةً لَمن كبر قدرُه وعظُمَ، أو قلّ وحُقر.. شيخُنا المحمود توفيق، رحمات الله تعالى عليه، كوثرُ دُررٍ تُنثَرُ، أينما حلَّ، شخصيَّتُ شيخنا، رحمات الله تعالى عليه، مُصمئلةٌ، لا يَعزبُ عن طلبِ العلم، فله القدحُ الُمعلَّى في احتدامِ الخطب، وادلهام الأمر، فشيخُنا أخو الرَّوحاتِ والدُّلَجِ، وحسبُه أن يُروى القلمُ بِعقلِه الماجدِ فيبلُغُ أقصَى أمانيه.. كانت بُغيةُ فضيلته من طلبةِ العلم مُقارعة الفكرِ في استخراجِ خَبِيء ما يقرأ، فكان شيخنا المحمود، كان يعملُ عملَ الُمرتحل، فَفضيلتُه لم يكن يَسأمُ أن يلبي نداء طالب العلم إن دَعاهُ في مسألةٍ، ما دامت عينُهُ تَطرُف لم يكفّ عن التلبيةِ، أي تلبية طالب العالم.

وأخيرًا، وليس آخرًا، شيخي المحمود توفيق، رحمات الله تعالى عليه، عقب مناقشتي رسالة الماجستير، أدواتُ المعاني في شعر لبيد بن ربيعة العامري، بتقدير: ممتاز، هنَّأني، وبارك، وأردف تهنئته، يقول، مُهنئًا، ناصحًا، مُرشدًا: مبارك عليك نعمة الله تعالى يحسن بك أن تسارعي في اختيار موضوع متميز للعالمية، حمدت الله تعالى أن أحاطني بمثل هذا الأستاذ الكبير والمعلم الصادق والأب الحاني الذي يحفزنا دوما ويدفعنا إلى الأمام، لقد كان وجوده خيرا وحضوره بركة رحمة الله عليه.

وغِيض العلم

بقلم: حذيفة أحمد المالكي

حنانيكِ يا دُنيا، فما أنتِ إلّا غرارةٌ غدّارة، تُدنينَ الأحبابَ حتى إذا أنسناهم وألفنا موردهم فجعتِنا بهم، فلا يطيبُ لكِ مُقامٌ، ولا يُؤمنُ لكِ عهدٌ، ولا تُوثقُ لكِ يدٌ. تُضحِكينَ حتّى يُخالُ لنا أن قد صفا لكِ وجهُ الزمان، ثمّ تعصفينَ بنا عصفا، فإذا القلوبُ مُنكفئةٌ، وإذا الأرواحُ مكدودةٌ قد أُثخِنتْ بجراحِ الفقدِ والغياب

.أفَلَ نجمٌ كان يجلجلُ في سماءِ العلم، وانهدَّ ركنٌ من صُروحِ البيان، وانطوى سجلٌّ زاخرٌ بالحكمةِ والمأثورات، نادتِ الأرضُ صاحبها، فلبّى داعيها، وطوى بساطَ عمرٍ كان كلُّه جهادًا في ميدانِ الفصاحة، ومقارعةً لأهلِ العيِّ والرتابة .كان – رحمه الله – إذا اعتلى منبرَ القول، أطلق عنانَ الحروفِ، فسارت كما يسيرُ السَّيلُ في مجاريه، لا يعترضه شِعبٌ، ولا يصدُّه حاجزٌ، حتى يتدفّقَ في مسيلِ العقول، فيرويها من معينِ البلاغةِ العذب، ويردّها إلى مناهلِ الفهمِ الصافي، ما عرفتُه إلّا نسيجَ وحدِه، حيثُ تلتقي الأسرار، وتتبدّى خفايا البيان، وتُفتح مغاليقُ التأويل.

طالما حلّق في سماواتِ التدبّر، فكان كالغيثِ أينما وقع نفع، وكم طوّف في رياضِ المعاني، فاقتنص منها دررًا تُحارُ في ضيائها الأبصارُ، وتتهاوى عندَ

عظمتِها أفهامُ القاصرين .لقد كان، رحمه الله، من فرسانِ القلمِ، وأمراءِ الفكر، الذين يقطعونَ القفارَ في سبيلِ العلم، يبتغونَ نورًا يهدونَ به الحائرين. فما خلتُ مجلسَه قطُّ إلّا وجدتُني في أفياءِ الحكمة، مستظلًّا بدوحةِ البيان، ألتقطُ من أفنانها ثمارَ الفهم، وأستقي من معينها زلالَ العلم.

آيةٌ واحدةٌ يطرقُها، فإذا هي بحرٌ لا ساحلَ له، وأفقٌ تتوالى فيه الأنوار، يجلّيها ببيانٍ عزيز، لا يُدركُ غورَه إلّا متمرِّس، ولا يحيطُ بسرِّه إلّا أريبٌ فطن . رحل عن دنيا زائلةٍ، بعدما ذرعها خطوًا بقدميهِ، وخاضَ لججها بعقلِه وفكرِه، فما وَهَنَ، وما استكان، حتّى إذا استوفى نصيبَه من الجهاد، وضعَ عن كاهلِهِ الحمل، وأسلمَ الأمرَ إلى مولاه، مودِّعًا دنيا لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضة .سلامٌ على روحه الطاهرة، وسلامٌ على فكرِه الذي خلّدته كلماته، وسلامٌ على تلامذته، يقتفونَ أثرَه، ويقتبسونَ من سراجه ما أضاءه. وإنّا على فراقِهِ لمحزونون، ولا نقولُ إلّا ما قال الأولون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

القلب الكبير والخلق النبيل

بقلم: أحمد خالد الحصى

كان نبأ وفاة شيخي الأجل الأمجد الأنور الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد – عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف – فاجعةً مزلزِلة رجّت نفسي رجًّا، وصاعقة مدوّية صدّعت قلبي صدعًا، إذ كان شيخي – عليه رضوان الله ومحبته – نورَ عيني، وضياءَ بصيرتي، وسرَّ سعاتي، ونبراسَ دربي وطريقتي، كنتُ أجد فيه الأب الروحيَّ الذي أفزع إليه كلما أشكلت عليّ مسألة، أو رمُت التثبّتَ مِن خاطرة، عرفتُ الشيخ رضوان الله عليه أوّل ما عرفته عندما تراءى لي مقطع له يتناول فيه قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[سورة التوبة: ١٢٢] بالبيان والتأمُّل، فأدهشني ما رأيتُ! وما أدراك ما رأيتُ؟! رأيتُ عالمًا مكينًا، ولغويًّا خرّيتًا، ومتحدّثًا بارعًا، وصوفيًّا نيّرًا، في كلامه نور، وفي تدبّراته متعة، وفي طلعته بهجة، يأسرك حديثُه، ويجذبك صدقُ لهجته، ويأخذ بمجامع قلبك تدفق معارفه، ومن وقتئذٍ نهضتُ أبحث عن كل مقطع للشيخ العالم كي أتلذّذ بجميل كلماته، وأنقّب عن كل كتاب ألّفه كي أشبع نهم عقلي بعمق استنباطاته، فازددتُ لشيخي حبًّا، وأُولعت به ودًّا، ثمّ قرأت كتابه: {أسرار البلاغة القرآنيّة في سورة: {تبت يدا أبي لهب وتبَّ} [المسد: ١]، فرأيتُ فيه فكرًا جديدًا طريفًا، وقلمًا عميقًا جليلاً، فكرًا ليس فيه شائبةُ تقليد،

وقلمّا يتطلّب قريحة يقظة حتى تنتفع وتفيد، حتى إنني جلستُ إلى أهل قريتي في المسجد عقيب صلاة المغرب في يوم مِن الأيام، وعرضتُ عليهم اللطائف النفيسة والدرر اللامعة التي أودعها شيخي في هذا الكتاب؛ فأحسّوا بأنّ في الكلام فتحًا وعلمًا، فأعجبوا به وطربوا، ودعوا لقائله - بعد أن عرّفتهم عليه - بدوام العافية وطول البقاء.

ثمّ جاءت اللحظة الجميلة لحظة اهتدائي إلى رقم هاتف شيخنا، لقد تلقّفته تلقّفت الجائع للقمةٍ يرى فيها بقاء روحه، أو تلقّف الظمآن لشربة يرى فيها روح بقائه، ويممتُ وجهي شطر (الواتساب) لأحادث شيخي وأراسله، فأرسلت له تهنئةً في الرابع عشر من يونيو لعام ألفين وأربع وعشرين مِن الميلاد بمناسبة عيد الأضحى، فأذهلني ما وقعت عليه عيني، لقد ظننتُ أنّ رجلاً في مثل علمه وقامته لن يعيرني اهتمامًا، أو ربّما نهريي لأنني أقلقتُ عليه مضجعه، ولكن إذ به يجيبني قائلاً: " وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. سيدنا الأحمد كل عام أنت ومن حولك ومن تحب في ستر الله ومحبته ورضوانه، أسأل الله تعالى أن يجعل أيامك كلها في طاعته، وأن يبارك لك في كل نعمة أنعمها عليك، وأن يرزقك حسن شكرها، وأن يجعلها الوارث منك، وأن يبقيها في أهلك وذريتك وقومك محفوظة مشكورة إلى يوم القيامة. محمود توفيق محمد سعد ".

أرأيت إلى تواضعه الغامر حين قال لي: سيدنا الأحمد، مع أن مثلي لا يستأهل أن يجلس بين يديه متلقّيًا! ثمّ إلى تذييله الكلمة بقوله: محمود توفيق محمد سعد، دون أن يقول الأستاذ الدكتور، أو الشيخ الأصوليّ، أو أستاذ البلاغة

والنقد بجامعة الأزهر، أو عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف! وهل آتاك نبأ قلبه الوسيع السليم المنير؟ حين دعا لي ولَمَن حولي ولِمَن أحب، إشارة إلى أنه كان رجلاً يحب أن يرى سحائب الخير متهطّلة على الناس كلِّهم، وهذا دليل قلب مؤمن، وسع صفاؤه وخيره وبذله وعطاؤه ودعاؤه الناسَ كلَّهم، مَن يعرف منهم ومن لا يعرف. ثمّ أخذتُ أرسل لشيخي الأجل - رحمه الله أوسع رحمة - ما يفيضه الله تعالى عليّ مِن خواطر، فإذا به يقول لي: " قد أحسن الله تعالى تفهيمك فاحمده وشكره بما يليق به تعالى " ألم ترى كيف شجّع تلميذه، وحرّكه إلى الإمام؟ ثمّ ألم تر كيف لم يتركه حتى أتحفه بوصّية الوصايا؛ شكر الله تعالى الذي يُستبقى به الموجود ويُستدعى به المفقود، شريطة أن يكون بما يليق به تعالى، فلا يكون شقشقة لسان، ليس وراءها قلب خاضع، ولا عمل صالح.

لقد كان شيخي الأجل رحمه الله رحمة واسعة طويل الصّبر، رحب الصدر، لا يملّ مِن أداء رسالته، ولا يكل عن الاستجابة لمآرب طَلبته، أرسلت له يومًا، أقول له: إن كان ثمة إزعاج من خواطري التي أرسلها لكم، فإني أوقفها فورًا، فقال لي: " إنما أنا مسعد لا مزعج، أقرأ ما تكتب حين أجد وقتا، فإن كان فيه ما يجب إصلاحه أشرت عليك، اكتب ولا تغلق قلمك أبدا، سجل كل ما يفتح الله تعالى عليك مع تاريخه " فقل لي بربّك أنّى لنا أن نصف هذه النفس الكبيرة، التي أُترعت بالإنسانيّة، وأُفعمت بالتواضع، وملئت بالإخلاص والصّدق، عالم كبير نحرير ينزل من برجه العاجي - نزول المتواضعين - ليقرأ ما يكتبه طويلبٌ صغير مِن أدنى طلابه! ثمّ يوصيه بأن يكتب مع كل خاطرة

تاريخها، وكان شيخنا رحمه الله مكترثًا بهذه المسألة؛ ليعرف الطالبُ حركة عقله، هل هي إلى صعود؟ أم إلى هبوط؟ أم أنها متوقفة ما خطت خطوة؟!

وإنّ مِن أبرز معالم شخصّية شيخنا: صفة الزهد، وهي إحدى صفاته التي حفرت له في القلوب مكانة باسقة، وأسكنته في الأفئدة بالمحل الأسمى، فقد كان - رضي الله عنه - مثالاً حيًّا للزهد السلوكيّ الحق، لقد أتته الدنيا وهي راغمة بيد أنه ركلها بقدمه، واتخذها قنطرة يعبر عليها إلى رضا الله ورضوانه، ولم يجعلها صنمًا يعكف عليه ويعنو له، كانت الدنيا في يده ولم تك في قلبه، وهذا هو الزهد الحقيقي، لقد درّس شيخنا في أرقى جامعات العالم الإسلامي، في جامعة الإمام بالرياض، وفي جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وفي جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، ونال عضويّة هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، ومع ذلك لم يكن يمتلك سيّارة - ولو شاء لملكتها - كان يأتي إلى الجامعة من مسكنه راكبًا المواصلات العاديّة، رغم أنه كان يعاني منها ويجد بسببها إعياء وكلالاً، إلا أنه أبى إلا أن يسلك مسلك الزاهدين، حتى إنه منذ شهور خلت ليست بالكثيرة كان يسأل عن سكن بالإيجار، يجاور الجامع الأزهر الشريف، ويكون في الطابق الأول حتى يتسنى له أن يسكنه ويرتاح فيه من عنت الذهاب والإياب ومشقتهما، ولو شاء لأتت له هيئة كبار العلماء - والذي كان أحد أعضائها الأماجد - بسيارة يذرع بها الطرقات، ولكن شيخنا المحمود كان رجل آخرة، يحثّ الخُطا إليها، وينصب لينال مقام الصديقين فيها.

كان رضي الله عنه حريصًا على ألا تضيع على طلابه فائدةٌ، وألا ترحم الأجيال القادمة من نفع، كتب إليّ آمرًا إياي أنْ أكتب خواطري - التي قال عنها

محفزًّا عُبيدَ الله بأنها من لطيف وطريف ما أشرق به فؤاده – في ملف بصيغة بي دي اف، ريثما يرزقني الله المال الوفير النضير فأطبعه وأخرجه للنور!

كان رضي الله عنه عزيزًا أبيًّا، لا يرضي بالضيم، ولا يغضي على القذى، ولا يقيم على ذل أو هوان، كان ينطق بالحق غيّر هيّاب، يعلم أنّ رزقه مقسوم لا يستطيع أحد أن يأخذ منه فلسًا، وأن أجله مكتوب لا قِبل لأحد بأن يُنقص منه يومًا، ولعل ذلك نابعٌ مِن عرّقه الصعيدي، فإن شيخنا ابن الصعيد، الذي يرى المذلة كفرًا!

أرسلت له طلب صداقة من عامين فقبله، فأسديت إليه الشكر والعرفان، فكان ردّه عليّ: " أخي الكريم إنما بصداقة مثلك أتوسل إلى الله أن يرضى عني وعن أهل بيتي، وأن يرحم والديّ ويعفوَ عنهما، فلا تنسني من صالح دعائك ". أي أخلاق هذه؟ إنها أخلاق الربانيين، وشمائلُ ورثة المرسلين!

راسلتُه يومًا أسأله عن كتابه: تقريب رسالة القواعد لأبي العباس أحمد بن إدريس فأجابني قائلاً: " وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. الكتاب نفد وهو مكتوب للعامة وليس لمثلك، وعُظم نسخه وزعتها مجانا على أهل قريتي ليكفوا عن اقامة المولد لسيدنا أحمد بن إدريس ولم يعد عندي منه شيء " وهي إجابة تحمل دلالاتٍ وإشارات:

الأولى: أنّ شيخنا رضى الله عنه كان دائمَ التحفيز لطلابه، فرغم أنّي في الحقيقة مِن العامّة – ولا أراني طالب علم حقيقيّ – إلا أنه تواضع معي ونحّاني عن طبقة العامّة؛ حفزًا لهمّتي القعودة، واستنهاضًا لعزميَ الفاتر.

الثانية: أنّ شيخنا رضي الله عنه كان عالمًا متنوّعًا، فهو يُعنى بالخاصّة فيؤلّف لهم ما يتواءم مع أفكارهم، ولا يهمل العامّة، بل يقدّم لهم ما يتمشّى مع عقولهم، وهذا دليل على موهبة شيخنا الفتيّة، وقدرته على تصريف بيانه.

الثالثة: حرص شيخي الأجل رضي الله عنه على استبقاء عقيدة النّاس نقيّة بلا شوب، طاهرة بلا عيب، سليمة بلا داء، لعلمه أن أغلى ما يملكه المرءُ هو عقيدته، والتي لبّلها التوحيد الصّافي من كل مكدّر.

الرابعة: اهتمام شيخي الأجل رضي الله عنه أنْ يضرب بنصيب وافر في حفظ عقول الناس مِن الترهات والأباطيل، التي تجعلهم ينشدون السراب يحسبونه ماءً، ويعيشون بظنون تهيمن عليهم، وأوهام تُسيّر حياتهم.

الخامسة: وفاء شيخي الأجل رضي الله عنه لقريته التي ولد فيها، ودرج بين أكنافها، وتنفّس عليلها، فهو لا يزال حريصًا على أنْ يقيم أهل بلده على الطريقة القويمة، فقد فارق قريته بجسده بيد أنّ عقله وقلبه كانا مشغولين بأمرها، حاملين لها منارات الهداية، ومصابيح الاستقامة.

السادسة: حسن أدبه مع أولياء الله، وتأدّبه مع أهل الله، ألا تراه قال: {سيدي أحمد بن إدريس}، وهكذا هم العلماء الحقيقون أهل عفّة وحُسن في أقوالهم، وأهل خلق نبيل مع كل مَن أترعت سيرته بصدق العلاقة مع ربه.

السابعة: صدق شيخي الأجل رضي الله عنه في أنْ يصل علمه إلى أهل قريته أجمعين، ومن ثم لم يبال أن يوزع نسخ الكتاب كلها عليهم بالمجان، دون أن

يتقاضى منهم قرشًا، وهذا دليل على أنّه لم يكن يبتغي بعلمه الدنيا وأموالها، ولذلك يُحكى أن صاحب مكتبة وهبة - التي تطبع كتاب الشيخ - ذهب إليه قبل وفاته بشهر ونصف ليعطيه أرباح كتبه التي تمّ بيعها، فقال له شيخنا: {أنا لا آكل بعلمي}، وأمره أن يأخذ هذه الأرباح ويعيد بها طباعة الكتب، ويوزعها على طلاب العلم!

وقد رأيتُه - رضي الله عنه - بعد وفاته، وكان في معهدٍ للتعليم يلبس زيّ التدريس، ويحمل حقيبتَه المحمّلة بالكتب والأبحاث؛ وفيه أنّ شيخنا رضي الله عنه كان مشغولاً بالعلم، مرابطًا على ثغره، وفيًّا لمهمّته؛ يعلِّم ويدرس وينصح ويبين؛ إلى أن صعدت روحه إلى بارئه، فرضي الله عن شيخنا المحمود أبي محمّد، وجزاه عن العلم وأهله وطلابه الجزاء الأوفى، ونوّر قبره بنور القرآن الذي عاش له معلّمًا، وشفّع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عاش عن سنّته مدافعًا، وكان له محبًّا، وبوأه الفردوس الأعلى من الجنة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحسبنا أنّه فينا وبيننا بكتبه الثمينة وبعلمه الأصيل وبطلابه النجاء، وبسيرته الناصعة الوضّاءة، وإني يا شيخي أعاهد الله أنْ أبقى ربيب فكرك وعقلك وعلمك ونورك، أقرأ ما خطّته يمينك، وأنشره بين الناس، وأدعو لك دون فتور، ما دام بي عرق ينبض ونفس يتردد، لعلني أقوم بشيء مِن واجب البر بك، سلام عليك يا شيخي الأجل في الخالدين، وأمطرك الله بشآبيب رحمته السحّاء ما ذر شارق وما لاح عارض!

العالم النوراني

بقلم: سمية إسماعيل أبو أحمد

الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله تعرفت إليه في رحلة بحثي للماجستير عن علم مناسبات القرآن من خلال كتابه عن الإمام البقاعي، ثم كتابه المعنى القرآني، وكنت كلما قرأت في مؤلفات الدكتور محمود لاحظت وكأنه يقتبس من نور، فكل حرف كتبه كأن نورا يشع منه، فسعيت إلى لقائه علني اقتبس بعضا من النور لديه حتى قدر الله لي أن ألقاه في ندوة بكلية أصول الدين بالقاهرة وكان عنوان اللقاء (كيف نرتقي بالبحث العلمي) فوجدت ما توقعته حقا، فكان حديثه عن العلم والارتقاء فيه يدور حول حقيقة أن العلم نور من الله، وكيف ينال قبس من هذا النور سواء أكنت معلما أو طالب علم، ثم طبيعة وحال البحث العلمي في الجامعة.

المعلم أو ما أطلق عليه اسم (الشيخ) يرى الدكتور محمود أن الارتقاء بالعلم يبدا من كن المعلم شيخا، وتلك منزلة عالية وحتى تصل الى تلك المنزلة عليك بعدة نقاط:

١ : نظرة المعلم إلى طالب العلم: المعلم عليه أن يرى أن طالب العلم أمامه هو نعمة من الله عليه، ولولاه ما كان عالما.. إدراك المعلم أنه إزاء مهمة ترقى

فوق مهمة التثقيف العقلي للطالب إلى مهمة التثقيف الفؤادي والروحي، فإذا لم يعمل في هذه المجالات الثلاثة (العقل والفؤاد والروح)، فهو ليس بشيخ.

٢: استحضار النية ليكون وارثا: عندما تقرأ حديث النبي عن طالب العلم (إنَّ الملائكَةَ لتضَعُ أجنِحَتَها لطالبِ العلمِ رضًا بِما يصنع) فتستحضر هذه الحالة وتتخيل الملائكة وهي تضع لك أجنحتها، والدكتور محمود. شبه هذا الحال بسجود الملائكة لأبينا آدم، فالله اسجد الملائكة لآدم لأنه علمه. وهكذا الحال مع العالم، يقول الدكتور محمود "تخيل هذا الحال، كأنك تراه رأي العين".

٣: مقام الإحسان: الإحسان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم هو (أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.) فالإحسان منزلتان: مقام المراقبة، ومقام المشاهدة. أما مقام المراقبة. فيوصي الدكتور محمود الباحث أن يتخيل العالم. كأنه يراه، فيقول: "إذا قرأت كتاب البخاري لا تتخيله مجرد ورق مسكوب عليه حبر. وإنما استشعر أنك في حضرة الإمام البخاري وهكذا الكشاف للزمخشري وغيره... وتأدب.. ولا تنشغل بأي عرض من أعراض الدنيا... فإذا لم تشعر بالحوار بينك وبين العالم. فلن تكون عالما، وهذا يحتاج إلى تدريب.. أما مقام المشاهدة. فاستشعر أنه يراك، ثم ترتقي ليتجسد لك نورا في عقلك، وحينئذ لن تحتاج إلى أحد. ليقول لك ما معنى هذا الكلام؛ لأن صانعه ببركة منه سيفتَح لك الباب...." هذا حديثه عن مقام الشيخ. وكيف تصبح شيخا.

ثانيا طالب العلم: أما حديثه عن طالب العلم: فلا ينفك عن نورانية العلم من الله. فتحدث عن مراحل الانتفاع بالعلم قائلا: " مراحل إدراك المعرفة. أولا إدراك المعرفة، ثم عقلها، ثم فهمها، ثم استثمارها.

١- إدراك المعرفة. ثم عقلها، أي حفظها على ما هي عليه. ثم فقهها والفقه مسألة عقلية. ثم فهمها، والفهم مرحلة نورانية، فالفهم كما يقول ابن القيم نور يقذفه الله في قلب العبد، يرى به ما لا يراه الآخرون. فتحصيل العلم علاقة بينك وبين الله، فلا يصح أن تحصل العلم، وأنت تارك للصلاة، أو عاقا لوالديك؛ فلن تنتقل من مرحلة الفقه إلى مرحلة الفهم، وهو ما أسماه بـ(العوائق الروحية). أما إذا وصلت إلى مرحلة الفهم، تلذذت بهذا العلم. فإذا تلذذت به استثمرته فحولته من معرفة إلى واقع مشهود.. ولعل ما قاله شيخنا. هو صلب ما يحتاجه كل طالب علمه، وهو نفس ما اغترف منه، لا تخطئ عين ما تراه من قبس من نور في كتاباته، فالعلم ليس مجرد معلومات يتم تحصيلها، وإنما هو علاقة مع الله، وقبس من نور الله، ومهمة العالم أن يجعل هذا النور واقع مشهود، يعود بالخير على الكون كله، وهو ما يجعل الإنسان خليفة الله في الأرض.

ثالثا- البحث العلمي: يتحدث شيخنا عما نعانيه من عزلة بين العلوم، وكأننا نعيش في جزر منعزلة. فطالب علم اللغة لا يعرف عن علم الحديث أو علم أصول الفقه والعكس، وهذا له ضرر كبير في إدراك التصور الكامل للمعرفة.

بعد المحاضرة. عندما توجهت إليه للتحية، وجدته يسألني من هو شيخك؟ ولم يقل أستاذك. فكان رحمه الله. مثالا حيا، للشيخ العالم الرباني النوراني، ومحاضراته لا ينفك عن الحديث عن هذا النور الذي ينهل منه، حاولت حضور محاضرات له في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف لكن المنية كانت أسبق مني فصار ما حزته من قبس في هذا اللقاء النوراني هو ما غنمته ثم النور المبثوث في ثنايا كتبه لينير لي الطريق في مسيرة بحثي..

فاللهم تقبله في الصالحين فلقد كان بحق ممن قال عنهم الله في كتابه (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجدة٢٤:)

مَعَالمُ التَّربيةِ العِلميَّة

بقلم د: حمدي سلطان العدوي

شيخنا المحمود الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمَّد سعد -رحمه الله- لم يكن صاحب علم مشهودٍ به فحسب، إنَّما كان عالماً مربيًّا، وللتَّربية العلميَّة في حياته، وفكره، وأقواله، وكتاباته، معالمُ راسخةٌ، واضحةٌ، جليَّةٌ، لقد عاش شيخنا المربِّي رحمه الله مهمومًا بقضايا أمَّته الإسلاميَّة والعربيَّة، ومحبًّا للغة دينه وهُويته ومنافحًا عنها، لا يرى في سماء الكون نجمًا يلوح ويسطع كنجمها، مدركًا تمام الإدراك قيمة العلم وحقيقته، والغاية منه، ومعتزًّا بانتسابه إلى الأزهر الشَّريف، وما يفرضه واجب الانتساب عليه، متبحِّرًا في فهم لغة الوحي الإلهي، وسبر أغوارها، والغوص في دقائقها، وأسرار بلاغتها، محاولًا الكشف عن بيانه، ومعانيه، سواء المعنى الجمهوريِّ أو المعنى الإحسانيِّ.

وحاولتُ – من أجل البرِّ بما أخذتُ على نفسي الوفاء به، وهو إبراز معالم التَّربية العلميَّة في فكر شيخنا المحمود- استنطاق جمله وعباراته الواردة في مقدمات بعض كتبه، ومن خلال فهم بعض أحاديثه وحواراته؛ لأقف على معالم النُّور، وإشراقات الهداية، ومعطياتها من أجل تحديد معالم في الطريق إلى التَّربية العلميَّة التي حملها فكر شيخنا المحمود، وفيما يلي ذكرها على النَّحو الآتي:

أولًا: تقوى الله، وإخلاص النِّيَّة له، نلحظ هذا المعلم واضحًا في كلِّ

أحاديث شيخنا المحمود، وكتاباته، فطالب العلم الشَّريف عليه أنْ يروِّض نفسَه على الطَّاعة، وأن يهذِّبها بالسُّلوك الحسن، وحسن علاقته بربِّه، ويربط شيخنا بين عطاءات الله -تعالى- من نور كتابه في قوله -تعالى-: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) [البقرة:٢] وبين رأس الآية (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة:٢] فلنْ يَستقبل طالبُ العلم الشَّريف نورَ العلم، إلا إذا استحضر جلالَ الألوهيَّة، وجمالَ الرُّبوبيَّة وهو يقرأ كلامه.

فعطاءات الله، ومعارفه الإلهيَّة تأخذ الأفهام منها على قدر القرائح والفهوم؛ فالقابليات بحسب الفطرة متفاوتة، ومن امتلأ قلبه بنور التقوى صلح وعاءً لحمل العلم، والنهوض به، قال تعالى: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ) [البقرة:٢٨٢].

ثانيًا: الوعي بقيمة العلم وشرفه وأهميَّته في حياة النَّاس واستقامتهم، وسلامة عقيدتهم، والقائم بالعلم صاحب رسالة لا صاحب وظيفة.

يقول -رحمه الله- معدِّدًا فضائل شيخه الماجد أبي موسى: " علَّمتَنا سيِّدي أنَّ **العلم الشَّريف** الَّذي به يكون أصحابه ورثة النَّبيِّ ﷺ هو ذلك العلم الَّذي يحدث تحوُّلًا دائماً لا ينقطع من الحسن إلى الأحسن في حياة صاحبه حسنًا ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا، هو الَّذي يرتقي به في مقامات القُرب الأقدس فيدخله الله جنَّته في الدُّنيا: جنَّة معرفته ومحبته قبل جنَّته في الآخرة، هو الَّذي يحيل مداد الأقلام في القراطيس نورًا في القلوب، فيستحيل ذلك المداد يوم القيامة مسكًا، فيكون الجزاء من جنس العمل. علَّمتَنا سيِّدي أنَّ **العلم الشَّريف** هو الَّذي يفعل فينا ذلك، فنفعل به في الأمَّة تحوُّلاً متصاعدًا لا ينقطع في مقامات العزَّة والمنَعَة

الحسيَّة والمعنويَّة"[1].

فالعلم غذاء الرُّوح كما أنَّ الطَّعام غذاء البدن؛ لذا، يعرف محبو العلم، وعارفو فضله، قيمته، وأثره، فيجلُّونه، ويجلُّون أهله، يقول الجاحظ:

يَطِيبُ الْعَيْـــــــشُ أَنْ تَلْقَى لَبِيبًا ... غَذَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمُصِيبُ

فَيَكْشِفُ عَنْكَ حَيْرَةَ كُلِّ جَهْلٍ ... فَفَضْــلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ

سِـــــقَامُ الْحِرْصِ لَيْـــسَ لَهُ دَوَاءٌ ... وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْـــسَ لَهُ طَبِيبُ[2]

يقول الشَّيْخ أَبو الْفَضْلِ عَبْد اللَّه بن حسين بن بشرى الجوهريُّ، الشَّيْخ الصَّالح: «الْعِلْم شريف، ولولا شرف الْعِلْم لما قدر الهدهد- مَعَ ذله- يَقُول لسليمان- مَعَ عزّه- «أَحطتُ بِمَا لَم تحط به»[3].

وطلب العلم -كما ردَّد شيخنا المحمود كثيرًا في كتاباته وأحاديثه- من أحسن العبادات وأفضلها وأشرفها، والتقرُّب به إلى الله -عزَّ وجلَّ- من أعظم

---

(١) دَلَالَةُ الْأَلْفاظِ عَلى المعاني عندَ الأصوليّين، دِرَاسَةُ مِنْهَجِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ، د محمود توفيق محمَّد سعد:

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر القرطبيّ (ت ٤٦٣هـ): ١/ ٢٥٠.

(٣) تاريخ إربل، للمبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللَّخميّ الإربلي، المعروف بابن المستوفي (المتوفى: ٦٣٧هـ): ١/ ٢٩٦.

القربات، وأجلِّها وأكملها، يقول الشَّافعيُّ -رحمه الله-: «ما تقرب إلى الله -عزَّ وجلَّ- بعد أداء الفريضة بأفضل من طلب العلم»[١].

ثالثًا: الاعتراف بالفضل لأهله، في غير خنوع ولا خضوع، ولا مسكنة ولا مذلَّة، فبرُّك بشيخك – كما ذكر شيخنا- لا بتقبيل يده، ولا بتقبيل رأسه، ولا أن تحمل حقيبته، أو أنْ تُفسح له الطَّريق، أو ألَّا تمشي بين يديه، إنَّما برُّك الحقيقيُّ بشيخك في حسن التَّلقي عنه، واستثمار ما تلقيتَه عنه، ونشره في النَّاس، والدُّعاء الله بحسن الخاتمة[٢].

يقول -رحمه الله- في إهداء كتابه دلالات الألفاظ-: " مَنْ أَدِينُ بفضلهم في وجودي العقليِّ والنَّفسيِّ والسُّلوكيِّ من أشياخي كثير غير أنَّ أجلَّهم أثرًا، وأبقاهم نفعًا، وأكرمهم عطاءً شيخي الماجد: صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور: مُحَمَّدُ مُحَمَّدُ حَسَنِينَ أَبُو مُوسَى، الأستاذ في جامعة الأزهر الشَّريف وجامعة أمِّ القرى بمكَّة المكرَّمة، وعضو هيئة كبار العلماء، الأزهر الشَّريف"[٣].

رابعًا: الاعتزاز بالنَّفس، والمحافظة على كرامتها، وشموخها، وعدم قبول الدَّنيَّة لعرض من الدُّنيا، فأهل العلم وطلابه المخلصون الجادُّون منتسبون إلى آل بيت النبوة حسبًا، وبذا يحرم عليهم أنْ يتطلَّعوا إلى عرض من الدُّنيا في يد

---

(١) خطبة الكتاب المؤمّل للردِّ إلى الأمر الأوَّل، لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ): ٥٣.

(٢) من كلام شيخنا في أحد لقاءاته المشورة على صفحته على الفيسبوك، بتصرُّفٍ.

(٣) المرجع السَّابق: الموضع ذاته.

أحدٍ من العباد كائنًا من كان، فإنَّهم لا يسألون إلا ربهم -سبحانه وَبِحَمْدِهِ- الذي أكرمهم بحمل العلم الشَّريف في أفئدتهم وسلوكهم، فلا يمدون أيديهم إلى نَوالٍ من أحد من العالمين، فهم الَّذين يُعطون ولا يَأخذون، هـم أصحاب اليد العليا بكلِّ خير(١).

وقد أكَّد ذلك فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور: أحمد الطَّيِّب -حفظه الله- في نعي شيخنا الفقيد المحمود، فقال: "كان نقيَّ الضَّمير، عفَّ اللِّسان، لا يقول إلا خيرًا، وقد تميَّز بهمَّة الشَّباب وحكمةِ الشِّيوخ، ولم يطلب أمرًا من أمور الدُّنيا، فقد عاش منكبًّا على طلب العلم ونشره"(٢).

خامسًا: الاعتزازُ بالهُوية، هُوية الدِّين، وهُوية العروبة، وهُوية الانتماء إلى كعبة العلم، القلعة الشَّامخة (الأزهر الشَّريف)، وعدم الانسلاخ منها، يقول شيخنا المحمود مخاطبًا شيخه الماجد: "علَّمتَنا ذلك فغرستَ فينا العزة بإسلامنا، وعروبتنا، وأزهريتنا الشَّريفة الماجدة: ثلاثة بها وجودنا المجيد إن شاء الله رب العالمين"(٣).

سادسًا: الوعي التَّامُّ برسالته السَّامية في هذه الحياة، وغايته وهدفه فيها

---

(١) المرجع السَّابق: ٤.

(٢) منشور على صفحة مشيخة الأزهر، واليوم السَّابع، يوم الخميس، ٢٧ فبراير ٢٠٢٥م.

(٣) دَلَالَةُ الْأَلْفاظِ عَلى المعاني عندَ الأصوليّين، دِرَاسَةُ مِنْهَجِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ، د محمود توفيق محمَّد سعد: ٤.

الذي يستهدفه منها، ساعيًا إليه، وشاحذًا له همَّته، ومستنهضًا من أجله عزيمته، ومثابرًا ومصابرًا من أجل تحقيقه، والفوز به.

فطالب الأزهر عليه أنْ يعيَ قيمة هذه القلعة العريقة العتيقة، ورسالتها، وأنْ يُدرك وظيفتها في حياة النَّاس، ليقوم بها مستقبلًا، مجاهدًا نفسه في نقل الناس – بلين القول، وصدق الحديث، وعفَّة اللِّسان، والموعظة الحسنة- من تُرَّهات الجهل، وتخاريف العقل، وانحرافات السُّلوك، إلى نور العلم، وهداية العقل، واستقامة الفعال.

على طالب العلم في الأزهر الشَّريف أنْ يعيَ وظيفته في بقاء العلم مشعلَ تنويرٍ، وتوعيةٍ، وتثقيفٍ، وتطويرٍ، وازدهارٍ، ونموٍّ، وتقدُّمٍ في مجال الدِّين والدُّنيا، فالإنسان خُلق في الحياة؛ لتعميرها لا لتخريبها.

والعالم الشَّريف عليه أنْ يُسخِّر نفسَه لجلال العلم وقدسيته، فيَشغل فكرَه وعقلَه بما يُدخله في حظيرة النَّاسكين، ويُسخِّر نفسَه لربِّه بإعمار الحياة بمراد الله الشَّرعيِّ، فيُخرج طلاب العلم من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

سابعًا: التَّأسيسُ العلميُّ الصَّحيح السَّليم، والإحاطة المعرفيَّة الدَّقيقة بأصول تخصُّصه، وما يتعلَّق به من معلوماتٍ، وبياناتٍ، ومعارفَ، وفهوم، فضلًا عن الإمام المعرفيِّ بما يخدم تخصُّصه من جميع التَّخصُّصات الأخرى الَّتي تُساعده على إتقان فنِّه، والمهارة فيه، والاقتدار على معرفة مشكلاته، والحلول والافتراضات النَّاجعة لها، فالعلوم "متداخلةٌ متآخيةٌ متآخذةٌ يأخذ بعضها

بتلابيب البعض الآخر، ويعاضده وصولًا إلى النَّتائج والأهداف المرجوَّة من كلٍّ منهما، فالحدود بين العلوم كلِّها مفتوحةٌ، لتبادل التَّأثُّر والتَّأثير والإفادة"[1].

يقول شيخنا المحمود: " كلُّ علم هُو مؤهل تقريباً لأن يكونَ آلَةً لِعلم آخر، وفي الوقت نفسه يُمكن أن يكُونَ الآخر آلةً للعِلْمِ الأولِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى، فالعقلُ الأُصُولِيُّ إذا امتلكه البلاغي، ووظفه في قراءة بيان الوحي، بل وبيان الإبداع البشري فإنّه يمنحهُ طَاقَاتٍ ورؤى قد لا تتحقق له بغير آلية هذا العقل الأصولي"[2].

ويقول -أيضًا-: " قد كان الأئمة من علمائنا الَّذين كان لهم أثرٌ في تغيير حركة الحياة إلى الأمجد والأحمد لم يكن الواحد منهم منعكفًا على ضرب من ضروب العلم بل كان محيطاً بكثير جدًّا من فنون العلم والمعرفة، تقرأ له في فنٍّ، فتكاد تحسب أنَّه لا يُعنَى بغيره من عظيم تمكُّنه فيه، فإذا قورن واحدٌ مِمَّن يُشار إليه بالبنان في زماننا هذا الذي ينفج فيه غير قليل بواحد من سلفنا رأيت الفرق بين السموات والأرض !"[3].

ثامنًا: بناء الشَّخصيَّة العلميَّة الفاحصة الناقدة، التي تُدهَشُ مما لا يُدهَش

(١) علم اللغة الفضائي، قراءة في تراثنا العربي والبناء عليه، د. حمدي سلطان العدوي: ٧.

(٢) سُبُل استنباطِ المعاني، مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، دِرَاسَةٌ مِنْهَجِيَّةٌ تَأْوِيلِيَّةٌ نَاقِدَةٌ، د محمود توفيق سعد.

(٣) سُبُل استنباطِ المعاني، مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، دِرَاسَةٌ مِنْهَجِيَّةٌ تَأْوِيلِيَّةٌ نَاقِدَةٌ، د محمود توفيق سعد: ٢١، ٢٢.

منه غيرُها.

حرص شيخنا المحمود على بناء طالب العلم بناءً صحيحًا سليمًا من خلال بثِّ روح العلم والفحص والنقد في فكره وعقله، فلا يكون طالب العلم الجادِّ إمَّعة، يقول شيخنا المربِّي: "والربانيون من أهل العلم لا يحملون تلاميذهم على مناهجهم ، بل يحملونهم إليها حمل إبانة ، ويغرونهم بالمناقضة المؤسسة على عرفان نافذ محيط بما هم قائمون له، ويذكرونهم بأنهم في سياق المناقدة والتَّفتيش عن الأعلى والأزكى والأذكى، قائمون في الاهتداء بما جاء في كتاب الله ـ سبحانه وبحمده – : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وجاء عن سيِّدنا عبد الله بن مسعود – رَضِيَ الله عنه– موقوفا : "لا تكونوا إمَّعة"، فليس حسنًا أن يسلك طالب العلم بكتاب الله – تعالى – مسلك التَّقليد على غير بصيرة"(١).

فطالب العلم الَّذي يتمتَّع بسرعة البديهة والاندهاش مما لا يندهش عنده غيرُه، يظهر ذلك في شخصيته العلمية من خلال المواطن الآتية:

- فهم السِّياقات، وربط المعلومات والأفكار.
- تحليل النُّصوص تحليلًا دقيقًا مدعومًا بالأدلة، ومن الأهمية بمكان في تحليل النُّصوص: معرفة موقعية النَّصِّ، وفهمه، والتَّعامل معه، وحسن

(١) المعنى القرآني، مَعَالِمُ الطَّرِيقِ إِلَى فِقْهِهِ فِي سِيَاقِ السُّورَةِ رُؤْيَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ وَمَقَارَبَةٌ تَأْوِيلِيَّةٌ، د محمود توفيق سعد: ١١، ١٢.

تحليله، وطريقة توظيفه له.

- القدرة الفائقة على الوصول إلى استنتاجات صحيحة.

تاسعًا: الاعتزاز بمنجز تراثه العربيِّ، وبذل كلِّ الوسع والطاقة في فهمه وإفهامه وتفهيمه، والمحافظة عليه، مع الإفادة من معطيات المناهج الحديثة، وتوظيفه التَّوظيف المناسب، الذي لا يأتي على منجز تراثه بالتقصير، أو وصمه بالنقص، والتقليل من قيمته، أو الدعوة إلى تركه، وعدم صلاحيته، ومواءمته للواقع فضلًا عن استشراف المستقبل.

فالدِّراسة العربيَّة الَّتي تُؤتي ثمارها، هي تلك "المنسول منهاجها من واقع بيان العرب في عصر التَّنزيل الكريم، وليست التي تفتن بمقولاتٍ أعجميَّةٍ نبتت في غير ديارنا العربيَّة المسلمة، فإنَّ تلك المقولات، وإنْ كانت صالحةً مصلحةً ما في بيان قومها من الأعاجم، فإنَّها ليست إلا عقيمًا في ديارنا، لا تنتج إلا شؤمًا وإلباسًا وتعميةً، ولساننا -والحمد لله رب العالمين- لسانٌ عربيٌّ مبينٌ، فكيف بعاقل يرغب عنه إلى لسانٍ أعجميٍّ بهيم. ولستُ بزاعمٍ أنَّ طالب العلم ببيان الكتاب والسُّنَّة مصروفٌ عن قراءة ما يُتَّخذ من مناهجٍ درس علوم اللِّسان الأعجميِّ، وما تُنتجه عبقرياتهم في شتَّى العلوم، شريطة أنْ يقرأ ذلك كلَّه بقلبٍ عربيٍّ مسلمٍ معتصم بعقيدة الإسلام وأخلاق الكتاب والسُّنَّة، فإنْ وجد ما لا يتعاند مع عقيدتنا وأخلاق شريعتنا ومنهاج لساننا، وكان نافعًا في فقه لساننا، فله أنْ يسترشد ويستهدي، فإنَّ الحكمة ضالَّة المسلم، يبحث عنها، ويقتنيها،

ويستثمرها فيما يزيده قربًا إلى ربِّه"[١].

إنَّك وأنت تقرأ هذه العبارة – سالفة الذِّكر- وتتأمَّل مدلولها تستشعر قيمة ما كان يؤمن به شيخنا المحمود، ويعتقده ويعتنقه، وينافح عنه، ويمعن نظره من أجله، ويُسخِّر كلَّ طاقاته الفكريَّة والعقليَّة من أجل إفهامه وتفهيمه، ألا وهو الجانب الروحيُّ الإيمانيُّ، ساطع الأنوار في سماء البيان العالي (الوحي الإلهيِّ العليِّ)، وذلك بتدبُّره تدبُّرًا صحيحًا قائمًا على ثوابت منهجيَّة معينة على الوصول إلى الغاية المنشودة، من خلال الإلمام المعرفيِّ بالظواهر اللُّغويَّة، والمعجم اللُّغويِّ، وفقه الاستنباط وسبله، والسِّياق بنوعيه اللُّغويِّ وغير اللُّغويِّ، فالتَّدبُّر، والتَّفكُّر، وإمعان النَّظر، وصولًا إلى المعنى المحرَّر، يُسدل على العبد أنوارًا من الفهم، وفيوضات من السَّكينة وخشية الله–جلَّ في علاه–، ويورثُه أنواعًا من العبوديَّة له –سبحانه وتعالى–، ويرفع مكانته في مقام العبوديَّة رفعة قد تفوق بعض العبادات الظاهرة؛ لأنَّ التَّدبُّر من العبادات القلبيَّة، والعبادات القلبيَّة أصل عبادات الجوارح وباعثها[٢].

عاشرًا: أنْ يعمل طالب العلم الشَّريف بعلمه، فهو طريقه إلى الانتساب إلى آل بيت النُّبوَّة، فآل بيت النُّبوَّة ضربان: نسبًا، وحسبًا، وآل بيت النُّبوَّة حسبًا ينسلون من كتاب الله - تعالى - وسنَّة رسوله علمًا وعملاً، وهم أهل العلم

(١) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، د. محمود توفيق محمد سعد:

(٢) راجع: منهج التدبر عند الشيخ محمود توفيق محمد سعد، المعنى القرآني أنموذجًا، للباحثة: فاتن سعد الزيني، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بأسيوط، ع: ٤٣، ج: ٤، فبراير ٢٠٢٤م: ٣٥٣٩، ٣٥٤٨.

الشَّريف وطلابه قولًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ علينا أنْ نكون منهم وفيهم وبهم إلى أنْ نلقى ربَّنا الله، لا يصرفنا عن ذلك شيء أبدًا[1].

فشرف العلم في العمل به، وأثر العلم لا بدَّ أن يظهر على طالب العلم الشَّريف حركةً وسكونًا، وسلوكًا وقولًا، وعلمًا وعملًا، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَبَصَرِهِ، وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَصَلَاتِهِ وَزُهْدِهِ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ الْبَابَ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ، فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ كَانَتْ لَهُ فَجَعَلَهَا فِي الْآخِرَةِ»[2].

ومن الإيمان الَّذي رسخ في قلب شيخنا المحمود رسوخ الجبل" أنَّ كلَّ دراسةٍ في القرآن الكريم والسُّنَّة لا يكون منها ما يُغيِّر حركة سلوكنا إلى ما هو الأعلى والأقرب إلى رضوان ربِّنا، هي دراسةٌ عقيمةٌ، وإنْ تظاهر على إتقانها أحبار علوم اللِّسان العربيِّ في مشارق الوطن العربيِّ ومغاربه"[3].

ويقول -رحمه الله-: " لا يعدو درس علوم لساننا العربيِّ عندي أنْ يكون وسيلة إلى غاية ماجدة، هي حسن فقه بيان الوحي قرآنًا وسنَّةً فقهًا يحفزنا على العزم على أنْ نغيِّر ما بأنفسنا، وأمتنا، وما حولنا إلى ما فيه رضوان خالقنا -جلَّ جلالُه- وإذا ما غفلت أيُّ دراسةٍ عن هذه الغاية فهي من العلم الَّذي استعاذ منه

---

(١) راجع: دَلَالَةُ الْأَلْفاظِ عَلى المعاني عندَ الأصوليّين، دِرَاسَةُ مِنْهَجِيَّةٌ تَحليلِيَّةٌ، د محمود توفيق محمَّد سعد: ٤.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر القرطبيِّ (ت ٤٦٣هـ): ١/ ٢٥٨.

(٣) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، د. محمود توفيق محمد سعد:٧.

رسول الله -صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم"[1].

ربَّنَا شَهِدْنَا بِمَا عَلِمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ، ربَّنا تغمَّد شيخَنا الوليَّ الصَّالح عبدَك محمود توفيق محمَّد سعد بواسع رحمتك، وعظيم مغفرتك، وتقبله في عبادك الصَّالحين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدِّين.

(١) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، د. محمود توفيق محمد سعد:٧.

روح وريحان

بقلم: محمد عبد الهادي عبد الفضيل المالكي

يا لَهْفَ نفسي، ولهفَ الواجدينَ مَعيْ

على النُّجُومِ التي تَغتالُهُا الحُفَرُ

نجم أفل، ورحمة من رحمات الله انتزعت من بين أظهرنا وكيف لا والعلماء مشاعل النور في هذه الدنيا التي يطبق فيها الظلام من كل جانب ويدافعه العلماء بأفواه كالقناديل وعقولا تجدد لنا سواعد الأمة وتنتج لنا امتداد للعقل الإسلامي الفريد وقد انطفأ قنديل من قناديل العلم، ترك في القلب ندبة لا يخفف ألمها إلا ما تركه في صدورنا من مواعظ نبيلة وعلم شريف

الذي كان يحمل في قلبه همم تطاول قمم الجبال الدكتور محمود توفيق سعد، العالم النحرير التقي النقي الولي الصالح البلاغي المدقق رافع لواء البيان، ومحيي مقاصد العلم الشريف في قلوب محبيه وتلامذته، مرت علينا مجالسه كأنها نسمات في أيام صائفة، وندمنا على ساعات لم نزدد فيها من صحبته أدبا وعلما وورعا، ولقد شاء الله تعالى أن أتعرف إلى الدكتور محمود عن طريق صديق خبير بالأساتذة الكبار ينقب عنهم ويرحل إليهم أينما حلوا وارتحلوا، وكان الترحال هذه المرة إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر هذه الكلية العريقة التي أخرجت

لنا علماء ربوا في طلبة العلم عقولا نيرة وأفئدة بصيرة، ذهبنا إلى الكلية وكان لقاءنا مع الدكتور محمود عليه رحمات الله تترا.

كانت محاضرة لطلبة في مراحلهم الجامعية الأولى وأعجبني تواضعه الجم مع إخلاص ينتزعك من براثن الخجل الذي يمنع عن السؤال، محاضرة استمرت قرابة الساعتين فيها من العلم والأدب ما نفتقده في سلاسل شروحات كاملة، تنبهنا فيها لدقائق مسائل بلاغية قلما يلتفت إليها طلبة العلم رغم ما فيها من الكنوز المخفية، ساعتان مروا سراعا سراعا وكم تمنينا وقتها أن تقف عقارب الساعة حتى لا ينتهي هذا المجلس المبارك،

انتهت المحاضرة وعرفته بنفسي أنني طالب دراسات عليا بكلية دار العلوم في تخصص الشريعة وأنني جئت ضيفا على كلية اللغة العربية، فتلقانا هاشا باشًا مُرحبا وبعد انتهاء المحاضرة، أصر أن يضايفني بمكتبه وتبادلنا أطراف الحديث فرأيت فيه عالما جليلا وأبًا رحيما، استنصحته بما يعينني على الطلب فنصحني بعدة نصائح أتزود بها في طريق العلم الشريف، ثم قال بلهجته الهادئة الأثيرة هل أدلك على مفتاح مغاليق المسائل

قلت: نعم يا سيدنا جزاكم الله خيرا..

قال إخلاصك لله في الطلب ولا تركز على تحصيل الإعجاب من هذا وذاك، فإن العلم شريف وهو أسمى من ألف وسام أو كلمة ثناء، ثم طالع الكتاب أكثر من مرة ولا تيأس فالكتاب لا يعطي ثمرته إلا للمثابر والله لا يضيع

أجر من أحسن عملا، وكان من أقواله رحمه الله: (نحن عندنا تقصير في العبادات الأخرى، نعوض بطلب العلم).ومنها أيضا: (لا يفسد الأعمال قدر ما يفسدها استعجال الثمرة).وهي والله نصيحة غالية لطلبة العلم تكتب بماء الذهب، فلا تصدُّر إلا بعد أن يستكمل طالب العلم ملكاته الفكرية وأن يحيط بكثير من العلوم ويستكمل الوسائل التي تعينه بعد ذلك

شكرته ثم ودعته على وعد بلقاء آخر فكان لقاء الأزهر الشريف في درس الشيخ محمد أبو موسى وكان سيدنا الدكتور محمود يجلس في تواضع جم، لا يرضى إلا أن يجلس على الأرض أمام شيخه، ولم تجعله أستاذية الجامعة يغير نهج حياته ولم تنل من تواضعه شيء، فلم يمكن أحد منا يوما من تقبيل يده وكان ورعا تقيا يتورع أن يرشف رشفة من كوب شاي يوضع أمامه، وتجددت اللقاءات في أكثر من مناسبة ودعاني أكثر من مرة إلى مكتبه، فقبلت بعض المرات وخفت أن أضيع وقته في أكثرها، أسرد هذه الذكريات وقلبي يعتصر ولساني ذائب في حلقي، فأي بيان يعبر عن أنين روحي وأي معنى ينتظم مع ما نشعر به فيكون صورته!

كان سيدنا الراحل يسقيك العلم كسقاية الأب لطفله، يرفع الكوب برفق ويراقب ما يدخل جوفك فيعطيك القدر الذي يفيدك في هذه المرحلة، وهذه والله عينٌ بصيرة بطلبة العلم. كل هذا يحوطه تواضع قلما تجد مثله في هذه الدنيا وهو من هو من العلم والمكانة، وكان سيدنا العلامة الدكتور محمود لا يخشى في الله لومة لائم ولا يمنعه شيء من أن يبث مكنون صدره من قول الحق الذي لا

امتراء فيه. الصفحات لا تسعنا أن تحمل أسطر كثيرة لو تركنا أناملنا ما برحت الأقلام ولظلت تكتب في مناقب هذا التقي الخفي - كما وصفه الشيخ محمد أبو موسى - حتى نملأ كتب ومجلدات..

أسأل الله أن يرحم شيخنا وأن يجزيه عنا خير الجزاء وأن ينفعنا الله تعالى بما تعلمناه منه وأن يجعله في ميزان حسناته.

بركة الشيخ الجليل

بقلم د: مأمون علي خلف الله

إنَّ من بركات العلم النافع أن يصل صداه إلى حيث لا يتوقع صاحبه؛ فينتفع به القاصي كما انتفع الداني، ويدعو لصاحبه البعيد كما شكره ودعا له القريب، والبعد هنا والقرب، هو قرب تلقّي العلم عن صاحبه مباشرة أو عن طريق كتبه، ولقد كانت علاقتي بعالمنا الجليل أ.د. محمود توفيق، طيّب الله ثراه، علاقة عجيبة؛ إذ لم أشرف بلقياه قط، غير أنه كما قال البحتريُّ كان:

كَالبَدرِ أَفرَطَ في العُلُوِّ وَضَوءُهُ ** لِلعُصبَةِ السارينَ جِدُّ قَريبِ

نعم، كان ضوء علم أستاذنا الجليل قريبًا مني –وإن لم يعرفني– لا لم يكن قريبًا فقط، بل قد أسدى إليَّ معروفًا عظيمًا؛ إذ كان بحثي للماجستير" التأويل البلاغي للحياة الأولى والموتى الثانية في القرآن الكريم" قد توقّف سنوات بسبب صعوبة عنوانه، والعنوان مفتاح كل بحث، ومن كان عاجزًا عن تفسير العنوان فكيف به أن يكتب بقية البحث؟!

ولقد حاولت– قدر جهدي– أن أجد عند العلماء ما يدعم فكرة بحثي أعني التأويل البلاغي بمعنى التفسير البلاغي، وليس بمعناه المشهور الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره...غير أنّي لم أعثر على ضالتي، وكان ذلك سببًا مباشرًا

في توقّف بحثي، غير أنَّي ودون توقّع منّي انتبهت إلى كتاب العالم الجليل الدكتور محمود توفيق" الإمام البقاعيّ ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن" وفيه وجدت ضالتي؛ فالكتاب كان مزدوج بالبركة؛ فعنوان بحثي مشابه لعنوانه، ومضمونه يتناول رؤية بلاغية تطابق هدف بحثي؛ عندها أحسست كأنَّ الله بكرمه أراد أن يزيل حيرتي وأن يبدل إحجامي عن الكتابة إقداما وأن يحيل رهبتي جرأة، وقد كان؛ إذ انطلق قلمي في تسجيل رؤيتي البلاغية، حتى أتمّ الله الأمر وسدّد الخطى؛ فأنجزت البحث- بعد سنوات عجاف- ومُنحت درجة الماجستير في البلاغة القرآنية بتقدير ممتاز، بل وتحوّل البحث إلى كتاب، بل-وبحسب ما أخبرتني دار النشر- لقد اقتنت مكتبة الكونجرس الأمريكيّ سبع نسخ منه، وصدق الله العظيم: [...فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ...] {الرعد:١٧}.

كل هذا ببركات العالم الجليل الذي كان فضله عليّ دون أن يشعر، وكم تمنيت لقياه وتقبيل يديه وشكره على هذا الجميل، الذي لم يكن يدري عن أخباره أمرا، نعم إنها بركته التي حققت هذا الإنجاز في حياتي، والانطلاقة الكبرى في أولى الخطوات إلى نيل الدرجات العلمية العالية، وقد لا يجد القارئ أي عجب في حديث تلاميذه عنه، فهو النتاج الطبيعي لمن شاهده وعرفه واغترف من علمه، لكن مقالي اليوم يروي هذا العجب حينما يصنع رحمه الله بآثاره ما يُفيد طلاب العلم الذين لم يشهدوه أو يلتقوا به.. فرحمه الله وطيب ثراه.

مِعياري في كل حادثة

بقلم: مرزوقي سيف النعماني

إن العيون لتدمع والقلب ينكسر ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، توفى شيخ مشايخنا -ودعني أقول- وشيخنا الشيخ العليم الجليل الصالح المصلح التقي النقي الخفي الذي لا يخاف في الله لومة لائم -ولا نزكي على الله أحدا- الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد رحمه الله وأحسن إليه وألحقنا به في العلم والعمل ودار الآخرة.

كان ما لفت نظري إليه لأول مرة حضوره مجلس شيخه محمد أبي موسى -حفظه الله- في الجامع الأزهر فحرصت إلى اقتناء كتبه وسماع ما انتشر من دروسه، حتى أتاح الله لي أن أجلس بين يديه أسمعه في الندوة اللغة العربية بأسيوط عام ٢٠٢٢، ولقيته في إحدى مكتب هناك ولما أردت تقبيل يده وضع يده في صدري ومنعني عن الانحناء تواضعا منه -رحمه الله-

كان -رحمه الله- معيارا لي في كل حادثة حدثت في مصر، فأنظر إلى موقفه فما وقف هو عليه، أحاول أن أتابعه فيه، فكان يصرح بتعزية الشيخ يوسف القرضاوي -رحمه الله- والقائد إسماعيل هنية -رحمه الله- والقائد السنوار -رحمه الله- مع أن موقف حكومة مصر كما علمنا في مقابل موقفه.. ومما حضرت من مجلسه أيضا بعض مجالسه في تدبر القرآن بمؤسسة وفاء الأجيال بالمقطم، وآخر

ما حضرته ندوته حول النهوض بالبحث العلمي في كلية أصول الدين.. كان له أثر قوي في نفسي سيما كتابه الهجرة في طلب العلم ومقدمته في كتابه دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين فقد وزعتهما للإخوة في إندونيسيا وبعض المشايخ وأخذتهما للمدارسة بيننا في مصر وإندونيسيا عسى أن يكون ذخرا له -رحمه الله- يجده في ميزان حسناته يوم القيامة وأتحسر غاية التحسر ليته يعقد مجلسا مفتوحا لعامة المسلمين في الجامع الأزهر...

فعلا فقدت الأمة إحدى كواكبها وظني بالله الواحد الأحد الذي على كل شيء قدير -وأنا عند ظني عبدي بي- أن الله سيأتي لنا بكثير من أمثاله، بل بالأفضل منه وهذا هو ما يريده -رحمه الله- فدعني أقول ولو كان لا يعرفني ولا يحس بحضوري في مجالسه رحمكم الله يا شيخي رحمة واسعة وألحقني بكم في العلم والعمل ودار الآخرة.. فاللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد وبدله دارا خيرا من داره وأهلا خير من أهله وارفع مكانه ومكانته في الجنة والدنيا واجعله رفيقا لحبيبنا سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- كما تمنى.

حزن مقفى

قصيدة للشاعر القدير د: أحمد محمد المعصراني

لِرَحِيلِنَا عِنْدَ الإلهِ مَعادُ ولِكُلِّ أَمْرٍ مَبْدَأٌ ومَعادُ

لِلْخَلْقِ مَوْعِدُ أَوْبَةٍ لإِلَهِهِمْ ولِكُلِّ عَبْدٍ مِنْهُمُ مِيعادُ

لا يُخْلِفُ المِيعادَ رَبِّي، إِنَّهُ ما بَعْدَهُ للعابِدِينَ مُرادُ

أَرْوَاحُنا لله صَاعِدَةٌ ولِلْـمَوْتِ الْوَشِيكِ حَصائِدٌ وحَصَادُ

حُكْمُ المَنِيَّةِ في الخلائقِ نافِذٌ كُلُّ الأنامِ لِحُكْمِها تَنْقادُ

انظُرْ لِمُعْجِزَةِ المَماتِ فعِنْدَها تَتَفارَقُ الأرواحُ والأجسادُ

تَقْوَى الإلهِ ذَخِيرَةٌ لِلِقائِهِ يومَ القيامةِ وهْيَ نِعْمَ الزَّادُ

فاعْمَلْ لِمَوْتِكَ ما تُسَرُّ بِهِ غَدًا واعْبُدْ كَمَنْ عَبَدُوا الإلهَ وسادُوا

وادْعُ الإلهَ وأنتَ تُوقِنُ فَضْلَهُ إِنَّ الدُّعاءَ لِبَابِهِ صَعَّادُ

لا تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَبْتَدِئُ الأَسَى فالْمَوْتُ فينا سَيِّدٌ نَقَّادُ

أوْ كيفَ أَكْتُبُ قِصَّةَ الْحُزْنِ الذي يَفْرِي الجَوانِحَ لافِحًا ويُعادُ

مَوْلايَ كَيْفَ رَحَلْتَ قَبْلَ وَداعِنا؟ هَلْ هكَذا تتفَرَّقُ العُوَّادُ؟

كيفَ التَّصَبُّرُ والفِراقُ مُرَوِّعٌ؟ نُوَبُ الْفِراقِ علَى القُلُوبِ شِدادُ

أَرْثيكَ كَيْفَ وأنتَ فينا شاهِدٌ ومُعَلِّمٌ في رُوحِنا تَرْتادُ

الدَّمْعُ زادُ الآمِلِيكَ وذُخْرُهُمْ وكأَنَّه لِلآمِلِيكَ مِهادُ

الأزهرُ المَعْمُورُ يَذْرِفُ دَمْعَهُ ما لِلدُّموعِ نِهايَةٌ ونَفادُ

لَمَّا رَحَلْتَ مُفارِقًا ما كانَ لي غَيْرَ الدُّمُوعِ ذَخِيرةٌ وعَتادُ

لَمَّا رَحَلْتَ -وأنتَ أَكْرَمُ راحِلٍ- فُتَّتْ عليكَ الرُّوحُ والأكبادُ

قدْ كُنْتَ رُكْنًا للبلاغةِ سَامِقًا في ظِلِّهِ يَتَسامَقُ القُصَّادُ

ما أَقْصَرَ الأعمارَ حِينَ نَعُدُّها ماذا يُفيدُ الْعَدُّ والأعدادُ؟

باقٍ مَدَى الأيامِ ذِكْرُكَ في الْوَرَى يُعْلِي خُطاكَ الدَّهْرُ والآبادُ

إنَّ الشُّيوخَ إذا تَقادمَ عَهْدُها في العِلْمِ أَرْسَوْا عِلْمَهُمْ وأَفادُوا

ما زالَ أَزْهَرُنا الشريفُ تَؤُمُّهُ الدُّ نْيَا ويَطْلُبُ نَبْعَهُ الْوُرَّادُ

دافَعْتَ عنْ حِصْنِ الشريعةِ جاهِدًا وهَدَمْتَ ما أَرْسَى الطَّغَامُ وشَادُوا

وتَخِذْتَ ذَيَّاكَ الجْهادَ فَرِيضَةً سَعِدَتْ بِهَا العُلَماءُ والأشْهادُ

وعَلَيْكَ مِنْ عِزِّ العَقِيدَةِ هَيْبَةٌ ومَهابةٌ وسَكِينةٌ ورَشادُ

قَضَّيْتَ عُمْرَكَ زَاهِدًا فتَعَجَّبَتْ مِنْ زُهْدِكَ الأصْحابُ والزُّهَّادُ

ولَكَمْ تَخِذْتَ كِتابَ رَبِّكَ صاحِبًا يَغْذُوكَ مِنْهُ الْوَحْيُ والأَمْدادُ

يا سَيِّدي قدْ كُنْتَ تَعْلَمُ ما يُدَبَّرُ للشَّريعةِ غِيلَةً ويُرادُ

ووَدِدْتَ أنْ لوْ كانَ مِنْ دَمِكَ الزَّكِيِّ لِنَبْعِها الفَيَّاضِ ثَمَّ مِدادُ

ولَكَمْ دَفَعْتَ عنِ الشريعةِ مُلْحِدًا حتَّى اسْتَجارَ الكُفْرُ والإِلْحادُ

زَرَعَ الضَّلالُ غِرَاسَهُ فحَصَدْتَهُ عَظُمَ الحَصَادُ وعُظِّمَ الحَصَّادُ

ولَكَمْ دَحَضْتَ زُيُوفَ أَهْلِ الجَهْلِ والإِلْحادِ.. والْكُفْرُ الْبَوَاحُ جَرَادُ

وجِهادُكَ العِلْمِيُّ يُعْظِمُ قَدْرَهُ أَهْلُ الشَّريعةِ كُلُّهُمْ والضَّادُ

لله دَرُّ الأَصْفِياءِ ونَهْجِهِمْ فَعَنِ العَقِيدةِ مَرَّةً ما حادُوا

جَعَلُوا لمَرْضاةِ الإلهِ حَياتَهُمْ وكَذَا يَكُونُ العُمْرُ حِينَ يُشَادُ

مُتَمَسِّكِينَ بِنَهْجِ أَكْرَمِ مُرْسَلٍ ولِطاعَةِ اللهِ العظيمِ انْقادُوا

تَتَوارَدُ النَّفَحاتُ في أخْلاقِهِمْ صَفَّتْهُمُ الأذكارُ والأورادُ

كَرَمٌ وإِخْلاصٌ وحُبٌّ باذِخٌ أَوَ مِثْلُ ذَيَّاكَ الفُؤادِ فُؤادُ؟

صافٍ نَقِيٌّ خاشِعٌ مُتَأَلِّهٌ وسَبِيلُهُ الإِخْلاصُ والإِرْفادُ

أللهُ لِلْقَلْبِ الذي أنْفاسُهُ لِصِراطِ رَبِّ العالمينَ تُقادُ

يا سَيِّدَ العُلَماءِ.. كَمْ عَلَّمْتَنا (أنَّ الحياةَ عقيدةٌ وجِهادُ)

عَلَّمْتَنا أَنَّ الجِهَادَ بِكِلْمَةٍ مِنْ أَجْلِ هَذِي الأُمَّةِ اسْتِشْهَادُ

عَلَّمْتَنا أَنَّ الجِهَادَ فَرَائِضٌ شَتَّى ومِنْهُ القَوْلُ والإنشادُ

عَلَّمْتَنا أَنَّ التَّفَانِي في سَبِيلِ اللهِ فَرْضٌ لِلْحَياةِ وزادُ

عَلَّمْتَنا أَنَّ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ بِكُلِّ أَنْواعِ الضَّلالِ يُكادُ

عَلَّمْتَنا أَنَّ التُّراثَ هُوِيَّةٌ ورِسالَةٌ وتَفَرُّدٌ وَقَّادُ

يا عَاشِقَ الْفُصْحَى ورَافِعَ رُكْنِها ومِنَ اللُّغاتِ مُيَسَّرٌ ومُقادُ

قُلْتَ: اسْتَقِيمُوا، فاسْتَقَمْنا سَيِّدي لَمْ يُثْنِنا نَصَبٌ ولا إِجْهادُ

بِالْعِلْمِ تَحْيَا أُمَّةٌ وتَمُوتُ بِالْـ ـجَهْلِ الْمُمَنْهَجِ أُمَّةٌ وبِلادُ

قَدْ كُنْتَ صاحِبَ هِمَّةٍ عُلْيَا.. لَتَصْغُرُ دُونَهَا الآفاقُ والأطوادُ

وعَطاؤُكَ الجَبَّارُ يُخْفِي عالِمًا فذًّا تَضاءَلُ دُونَهُ الأندادُ

العالِمُ الثَّبْتُ الذي بِجِهادِهِ تَتَفاخَرُ الأجدادُ والأحفادُ

لَكَ في قُلُوبِ العارِفِيكَ مَحَبَّةٌ قُدْسِيَّةٌ وصَبابةٌ ووِدادُ

لَكَ في البَيانِ فَرائدٌ ورَوائعٌ هيَ للبلاغةِ حُجَّةٌ وعِمادُ

لَكَ في حَديثِكَ نَفْحةٌ عُلْوِيَّةٌ يَهْفُو إليها الرُّوحُ والعُبَّادُ

وعلَى جَبِينِكَ مِنْ تُقاكَ عَلائِمٌ يَبْدُو عليها النُّورُ والإِمدادُ

وإذَا خَلَوْتَ ذَكَرْتَ رَبَّكَ خاشِعًا والذِّكْرُ كَمْ يَحْلُو بِهِ التَّرْدادُ

رُوحُ البلاغةِ كنتَ أنتَ إمامَها ولَكَمْ تَصاغَرَ دُونَكَ الأمجادُ

وهَضَمْتَ نَفْسَكَ حَقَّها، وكَذاكَ تُهْتَضَمُ النُّفُوسُ تَواضُعًا وتُرادُ

حتَّى كأنَّكَ لا تَراها في الحَيا ةِ وذاكَ مَذْهَبُكَ الذي تَعْتادُ

ها أنتَ تَحْيَا بَعْدَ مَوْتِكَ سَيِّدي وكَأَنَّ مَوْتَكَ وَحْدَهُ الميلادُ

لَكَ فِي الجِنانِ مَنازِلٌ عُلْيَا أرَا هَا الآنَ في عَلْيائِها تَزْدادُ

وأَراكَ في الفِرْدَوْسِ تَحْيَا هانِئًا لا مُنْتَهًى فيهِ ولا أَبْعادُ

السبت ٨ من رمضان ١٤٤٦هـ = ٨/ ٣/ ٢٠٢٥م

وجهك صفحتان

قصيدة د: علاء جانب

ذهولا لنعيٍ قال صدقاً؟! أم ادعى ؟!...

أنا لم يكن بي أن أجيء مودّعا

أجرجر أقدامي أتيتك هائباً

فأكبو كليمات وأعثر أدمعا

حييّا دخلت اليوم محراب نوركم

وسِرّك نورٌ بات بالنور مترعا

لأبصر آيات الكتاب عرائسا

وتختار منهنّ الشرود الممنعا

تدبرت حتى صار قلبك لجة

إذا خاضها البحار بات مضيّعا

دخلتَ لباب العلم موسى لخضره

تواضع حتى صار نجما وأرفعا

وكنت لوجه الله ترجو وتتقي

وتقصي وتدني ما فؤاد وما سعى

فلله عبدٌ صالح القلب هيّن

بَسُومٌ حيي الوجه يمشي تواضعا

وفي الحومة الغبراء لم يخش لائما

فإن صال جلّى أو تحدث أسمعا

وأمهر ما تلقاه نفسا إذا انتضى

بيانا فدوَّى بالبيان ورجّعا

شديدا على البهتان يضرب رأسه

فلست ترى البهتان إلا تصدّعا

ولست ترى إلا حديثاً مهذباً

على همسه من واخز الشوك أوجعا

وقد كنت في علم المعاني أميره

وإن كنت من بحر البلاغة أوسعا

وكنت ضليعا أزهريا مؤصلا

غذوت أصولا ثم فرعت أفرعا

صريحاً فصيحاً.. قلبه قلب شاعر

وفي روحه القطب الولي الذي دعا

تجلبب بالإسلام مذ كان يومه

فنال به من نفحة الحب مذ وعى

يناديه في الأسحار شجوٌ معتّقٌ.

فلا يستقر القلب عينا ومهجعا

له في سكوت الليل تنحابُ والهٍ

وجنبان أجْفى من يُجافي المضاجعا

وشبّ على الإيمان فاختار دربه

فلما رأته الحور قلن له: تعا

وكانت بنات الحور آيات مصحف

حرمنك من نوم فعدن مخادعا

فما أنت والقرآن إلا كظامئ

رأى الرشف لا يروي فعب وأمرعا

فما هزت الدنيا لركنك ثابتاً

ولا شغلت عينيك إلا .. تمنُّعا

رعيت لمفهوم التصوف حقه

فما كنت والإسلام إلا معا معا

وصاحبت ظل الوحي سبعين حجةً

فكنت مضيئا كلما جئت موضعا

كذاك شعاع الشمس تحيا به الدنا

بغير ضجيج واحدا أو موزعا

حفظت جنوبا بين جنبيك زاهدا

أصيلا متين العود ريان مبدعا

وحيدٌ .. كأن السيف قد سُلّ وحده

رهيفاً قويّا لا يحب التميّعا

حصيفا إذا ما الرأى حار بأهله

توخيته رأيا من البرق ألمعا

وقفت أمام الدار ليثاً محامياً

فأعطتك بنت الوحي .. سراً مقنعا

قرأت عيون الكتب حتى غدوتها

فعدت كتابا لين الحرف طيّعا

فوجهك فينا صفحتان تقابلا

فكانا من المقروء أحلى وأروعا

تحامي عن المعنى الشريف وتحتفي

بكل جميل طبعه لا تصنعا

وجاهدت حتى جاءك الحق كي ترى.

جزاء العباد الصالحين مجمعا

إذن صدق الناعي وأمسيتَ راحلا

وكنت الأنيس الأرحبي السميدعا

فنم في جوار الله نومة هانيءٍ.

وباب على الجنات.. في اللحد أوسعا.

من أقواله رحمه الله

❋ من برك بشيخك أن تدخل المسرة على قلبه بأن تشعره بان جهده لم يضع وانه مستمر إلى يوم القيامة وذلك بنقل علمه الى الناس.

❋ استطاع خدنة بني صهيون وسحره إبليس أن يصرفوا العداوة بين المسلم وبني صهيون الى ما بين الصوفية والسلفية، مما يدل دلالة قطعية على أن من شارك في ذلك من كل منهما انما هو أحمق موغل في السفاهة فلا هو سلفي ولا هو صوفي.

❋ هل من سبيل إلى أن يكف أدعياء السلفية والأشاعرة والمتصوفة عن هذا الركس الذي يتقلبون فيه وأن يلتفتوا إلى إخوانهم في فلسطين المسلمة وفي السودان واليمن والعراق وسوريا وفي بنجلاديش وبورما والفلبين وان يتطهروا من خذلانهم أفيقوا أيها المتناطحون المتناحرون إننا لمستنعجون.

❋ لا يمكنك البتة أن تفهم كثيرا من أحكام الشريعة وكثيرا من أحكام العقيدة الا اذا استطعت ان تكون قيوما في العلم بهذا اللسان العربي المبين.

❋ إن أول خطوات التوفيق ان تُهدي الى تحقيق ما تطلبه من الكتاب الذي تقرأ، فمن تشابه الأمر عليه لا يلقين باللائمة على غيره، وليعد إلى ذاته يقومها ويقيمها اهلا لان تقرا ولأن تطلب الأشياء من مظانها.

* ليس الاهم أن تقرأ وانما الاهم ان تكون العليم الخبير بماذا تقرأ ولم تقرأ وكيف تقرأ ما أردت قراءته فإنك إن تمكنت من ذلك فلن يكون لك مما تقرأ الا ما انت تطلب.

* إذا استطعت ان تكون في هذا اللسان عربيا قحا خريتا أحوذيا فإنك تستطيع أن تستخرج من خزائن القران الكريم ومن السنة النبوية، معاني كثرا ونحن بحاجة الى هذا.

* انت لن تؤتي القران ترتيلا ولن تؤتى القرآن تدبرا، ولن تؤتى القران دعوة الى الحق والى الخير، إلا بهذا اللسان العربي المبين فهو مفتاح كل خير.

* التعليم الجامعي مسؤوليته الرئيسية صناعة العقل العلمي للطالب وليست مسؤوليته تعبئه عقله بالمعلومات التي ينتجها الآخرون.

* لم نطع الله حق طاعته لأننا لم نحسن فقه البيان الذي أنزله الينا لأننا نأخذ المعنى الظاهري، ثم ندع المعنى الآخر الذي لا يمكن أن تعبر عنه لغة أخرى.

* برك بشيخك أن تحسن التلقي عنه وان تستثمر ما تلقيت، وأن تنشره في الناس، وان تدعو له بحسن الخاتمة.

❋ كان لزاما على أهل العلم الحاملين شرف وراثتي هدي النبوة الخاتمة أن يدحضوا افتراءات واباطيل وسمادير أولئك المرجفين في الامه من العلمانيين والماسونيين والشيوعيين اخدان الصهيونية وحلفاء الصليبية المتسترين تحت ستار الفكر الاسلامي.

❋ القرآن وان كان صالحا لكل زمان ومكان فإنه مصلح كل زمان ومكان بما فيه من هدي وليس معنى أنه لكل زمان ومكان، إنزال تأويل آياته على وفق ما تجري به حياة الناس في كل زمان ومكان لها ويقدم من المسوغات ما تبقى به على ما هي عليه.

❋ ان التصدي لنقد افتراءات أهل الباطل فريضة لا يليق بأحد من أهل العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التشاغل عنها بشيء من عرض الدنيا ولا التهاون في تقدير خطر تلك الافتراءات ان عاجلا او اجلا ولا الاعتذار بأن في التصدي من اهل العلم لمثل هؤلاء الطغام دفعا لشانهم وعونا لهم على تحقيق مآربهم من الشهرة والانتشار في الناس.

❋ إن اللجان التي عرضت عليها كتابات المفترين على الله تعالى المغيرين على القران بالباطل إنما هي لجان صنعتها الأهواء من غير ذوي الاختصاص بفقه الكتاب والسنة.

* إذا ما كان أولئك المجاهدون في سبيل تغييب الاسلام الحق من حياة الامة لا يتوانون لحظة ولا يهدرون فرصه ولا يكلون ولا ينقصون في تحقيق غايتهم ورسالتهم التخريبية فان التصدي لأباطيل وافتراءات وأضاليل اولئك المخربين لازمه على أهل العلم بالكتاب والسنة ولا يجوز لا يجوز لأحد منهم البته الفرار من هذا الزحف.

* لن تكون لمسلم عزة وكرامة في الدنيا والآخرة الا اذا قابل الافتراء على الله تعالى وعلى كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم بالصمت والخرس او ومصمصه الشفاه ان الاسلام لا يعرف هذه الوسائل في الدفاع عن الحق لأنها وسائل الخوارين غير الموقنين بالحق الذي يزعمون أنهم أتباعه.

* شاء الله تعالى أن يجعل للجهاد صورا عديدة فلم يحصره في الجهاد بالسيف بل جعل له صورا تستوعب المسلمين كافة أيا كانت أحوالهم، فلكل مسلم صورة من صور الجهاد في سبيل الله هي فرض عين عليه.

نعي المؤسسات الدينية

فضيلة شيخ الأزهر

نعى فضيلةُ الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، فى بيانٍ رسمي، الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء.. وجاء فى البيان الذي نشرته الصفحة الرسمية للأزهر الشريف على موقع «فيسبوك»: «يَحتسِب الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، عند الله تعالى، ويَنعَى إلى الأمتين العربية والإسلامية، فضيلةَ العالِم البلاغي الجليل الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر، الذى وافته المنية اليوم الخميس، بعد حياة حافلة فى دنيا العلم، أوقفها على خدمة كتاب الله، ونَشْر العلم والدِّين، وتربية الأجيال، والعمل الدؤوب فى الدعوة إلى الله جلَّ وعلا.

ويؤكد شيخُ الأزهر أنَّ العلَّامةَ الراحلَ كان بحراً من بُحور اللغة، أفاء المولى - عزَّ وجلَّ - عليه بالعلم فأفاض على طلابه، ولم يدخر جهداً فى خدمتهم وتعليمهم، فانتشروا في بقاع الدنيا ينشرون العلم، فكان نِعْمَ العالم والأستاذ، وقد أثرى - رحمه الله - المكتبة الأزهريَّة والإسلاميَّة والعربيَّة بمؤلَّفاته ومشروعاته العلمية التي أسهمت في صناعة العلماء وطلاب العلم.

ويَذكرُ شيخُ الأزهر للعالِم الرَّاحلِ أنه كان نَقِي الضمير، عَفَّ اللسان، لا يقول إلا خيراً، وقد تميَّز بهمَّة الشباب وحِكمةِ الشيوخ، ولم يطلب أمراً من أمور الدنيا؛ فقد عاش مُنكباً على طلب العلم ونَشْره.

ويتقدَّم شيخ الأزهر بخالص العزاء وصادق المواساة إلى أُسرة العالِم الراحل، وإلى العلماء وطلاب العلم فى هذا المُصاب الجَلَل، ويتوجَّه إلى الله تعالى أن يتقبَّل الشيخَ الراحلَ بقَبولٍ حَسَن، وأن يرزقه الفردوسَ الأعلى من الجنة، وأن يَربط على قلوب أهله وطلابه ومُحبِّيه، وأن يُعوِّضَ المسلمين والأزهرَ بفَقْده خيراً، وأن يجعل ما قدَّمه مِن نَشْر العلم وخدمة الأزهر الشريف في ميزان حسناته. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"

رئيس جامعة الأزهر

فقدت الأمة الإسلامية وفقد العلم وفقد الأزهر الشريف رائدا من رواده ونابغة من النابغين الذين قل وندر وجودهم.. كان الفقيد رحمه الله بحرا وعلامة وكان متواضعا عاش كنسمة صيف لم يشعر به أحد وكان متواضعا جدا وحينما كان يغمض عينيه كنا نسمع منه دررا.. ودائما كان يتميز رحمه الله بانه يطأ أرضا أنفا ويحب المشرب الصافي وكان يطأ أبوابا ويفتح أبوابا لم يفتحها أحد قبله.

اتاح له تميزه في علم أصول الفقه وتميزه في علم البلاغة أن يجمع بين العلمين في صورة لم نرى لها مثيلا عند من سبق وتفرد رحمه الله في هذا الباب لانه قلما نجد من هضم العلمين علم أصول الفقه وعلم البلاغة بهذه الصورة العاليه

المتقنة فدخل اصول الفقه وقدم عطاء جديدا بالات البلاغة وأدواتها.. لذلك كان الشيخ محمد ابو موسى رزقه الله العافية والصحة يقول: لو كان ما عند محمود توفيق سعد هو البلاغة فليس عندنا منها شيء ولو كان ما عندنا هو البلاغة فليس عنده منها شيء.. يقصد أعزه الله انه اختط لنفسه منهجا فريدا وطريقا قاصدا وانه لم يكرر غيره ويأبى ان يكرر غيره رحمه الله.

وهذه الكلمة التي نطق بها شيخنا ابو موسى انما اقتبسها من كلمة علماء النحو في الروماني حينما قالوا عنه لو كان النحو هو ما عند الرماني فليس عند علماء النحو منه شيء، ولو كان النحو ما عند النحاة فليس عند الرماني منه شيء.

فأسال الله تعالى أن يخلف الأمة فيه خير خلف وان يعوضها فيه خيرا وان يرزقنا في نشر علمه وفكره وإقامة دراسات متميزة حول هذا العطاء السخي فقد قالوا: من ينشر فكر العالم يكون له فضله على العالم حتى ولو تتلمذ عليه، قالوا ذلك في البيهقي بقولهم: ما من أحد إلا وللشافعي عليه فضلا ألا البيهقي فإن له الفضل على الشافعي لنشره مذهبه.

جامعة الأزهر

تقديراً من الأزهر الشريف لعلمائه تلقَّت جامعة الأزهر واجب العزاء في وفاة فضيلة الشيخ الجليل الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، في قاعة الاجتماعات بالدور الرابع من مبنى إدارة الجامعة بمدينة نصر، بحضور الأستاذ الدكتور سلامة داود، رئيس الجامعة، والسادة نواب رئيس الجامعة، وجمع من

قيادات الأزهر وعمداء الكليات وأساتذة الجامعة وموظفيها، وأسرة الشيخ رحمه الله.. وتضمَّن العزاءُ تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم، وكلمات لكل من الدكتور سلامة داود، رئيس الجامعة، والدكتور محمود صديق، نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا، والدكتور عباس شومان، أمين عام هيئة كبار العلماء، والدكتور إبراهيم الهدهد، رئيس جامعة الأزهر الأسبق، والدكتور سعيد جمعة، عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات، والدكتورة نهلة الصعيدي، مستشار شيخ الأزهر الشريف، والدكتورة فريدة بودى، عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة، والدكتور ياسين عطية، المدرس في كلية اللغة العربية بالقاهرة.

وجاء نعي الجامعة في بيان نشرته صفحة المركز الإعلامي للجامعة، جاء فيه: "تتقدم جامعة الأزهر برئاسة فضيلة الأستاذ الدكتور سلامة جمعة داود، والسادة نواب رئيس الجامعة، وعمداء الكليات، وأمين عام الجامعة؛ بخالص العزاء وصادق المواساة إلى الأمتين العربية والإسلامية في وفاة العالم الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد، أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف؛ حيث كان - رحمه الله -عالماً مكيناً، وشيخاً أميناً، عاش بالعلم وعاش للعلم، ونفع الله به خلقاً كثيراً من أساتذة العلم وطلابه، حتى قضى نحبه صابراً محتسباً صادقاً ناصحاً لدينه وأمته، لم تشغله الدنيا وزينتها، وعكف في محرابه فأنتج فكراً جديداً يؤخذ عنه وتتناقله الأجيال، وأثرى المكتبة العربية والإسلامية بكثير من المؤلفات التي كانت سراجاً لطلاب العلم ومحبى المعرفة على مر التاريخ."

دار الإفتاء

نعى الدكتور نظير عياد، مفتي الجمهورية، رئيس الأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم، الفقيد في بيان نُشر على صفحته الرسمية بموقع «فيسبوك»، جاء فيه: «إنا لله وإنا إليه راجعون. ببالغ الحزن والأسى ينعى فضيلة الأستاذ الدكتور نظير محمد عيَّاد، مفتي الجمهورية، رئيس الأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم، وجميع منسوبي دار الإفتاء المصرية، أحد أعلام العلم والفكر، فضيلة الأستاذ الدكتور- محمود توفيق سعد، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، الذي وافته المنية اليوم، تاركاً وراءه إرثاً علميّاً نافعاً وسيرةً زاخرةً بالعطاء".

وتابع مفتي الجمهورية: «إن الفقيد كان عالماً جليلاً، مشهوداً له بالفضل في خدمة العلم والدعوة، ومثّل نموذجاً للوسطية والاعتدال، وساهم بعلمه وفكره فى نشر تعاليم الإسلام الصحيحة»، مضيفاً أنه عاش حياته مخلصاً لدينه، ناذراً جهده فى خدمة المعرفة الشرعية، ومؤدياً دوره فى توجيه الأجيال نحو الفهم المستنير للدين الحنيف."

وزارة الأوقاف

قال الدكتور أسامة الأزهري، وزير الأوقاف، فى بيان نُشر على صفحته الرسمية بموقع «فيسبوك»: «بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره، ينعى معالى الأستاذ الدكتور أسامة الأزهري، وزير الأوقاف، إلى الأمة الإسلامية والعربية، رحيل العالم الجليل، والأستاذ الكبير، الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد، عضو هيئة

كبار العلماء، وأستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر، الذى وافته المنية اليوم بعد عمر حافل بالعلم والعطاء، أفناه فى خدمة كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتعليم الأجيال، وتكوين العلماء، ونشر الفكر المستنير.

ويؤكد معالي الوزير أن الراحل الكريم كان قامة علمية سامقة، جمع بين دقة العلم، ورحابة الفهم، ورسوخ القدم فى فنون البلاغة والنقد، فكان منارةً تضيء لطالبي العلم، ومرجعاً ينهل منه الدارسون والباحثون، وترك تراثاً علميّاً زاخراً يظل نبراساً للأزهر الشريف وللأمة كلها. كما كان –رحمه الله– أحد أركان الدراسات البلاغية والنقدية في الأزهر الشريف، أسهم بجهوده فى تطوير مناهجها، وأشرف على أجيال من الباحثين الذين صاروا اليوم حملة للواء العلم والفكر.. لقد كان رحمه الله نموذجاً للعالم الأزهري الأصيل، المتجرد للعلم، المنصرف إلى البحث والتدقيق، المتفاني في نشر المعرفة وتربية الأجيال، عفيف النفس، زاهداً في الدنيا، لا يطلب إلا وجه الله، ولا ينشغل إلا بما ينفع الناس ويمكث في الأرض.«

هيئة كبار العلماء

ببالغ الأسى ومزيد من الحزن وبقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره تنعي الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء وفاة العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمود توفيق سعد عضو هيئة كبار العلماء حيث انطفأ اليوم مصباح من مصابيح العلم بانتقاله إلى رحمة الله تعالى.. فقد ولد فضيلته في مدينة إسنا التابعة لمحافظة الأقصر حاليًا، في ١٩٥١/٦/٢٣م، وقد حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٦٢م،ثم الإعدادية الأزهرية عام ١٩٦٦م، وحصل على الثانوية الأزهرية عام ١٩٧٠م ،

ثم التحق بكلية اللغة العربية وحصل على الليسانس في اللغة العربية عام ١٩٧٤م بمرتبة الشرف الأولى، ثم حصل على مرتبة التخصص الماجستير في البلاغة والنقد بتقدير ممتاز عام ١٩٧٩م ، عن بحث بعنوان «آراء العصام الإسفراييني في شرحه للسمرقندي»، ثم حصل على درجة الدكتوراه العالمية عام ١٩٨٣م، بتقدير مع مرتبة الشرف الأولى ببحث تحت عنوان «التناسب القرآني عند برهان الدين البقاعي.«

وقد تدرج في الوظائف العلمية من معيد إلى درجة مدرس مساعد ثم عمل مدرسًا فأستاذا مساعدًا، ثم رُقّي إلى درجة أستاذ، واختير رئيسا لقسم البلاغة بكلية اللغة العربية بالمنوفية، وشغل عضوية اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر تخصص البلاغة والنقد. وقد صدر قرار بتعيينه عضوا بهيئة كبار العلماء من رئاسة الجمهورية برقم (١٠٨) في ٥/ ٣/ ٢٠٢٠م."

محتويات الكتاب

Contents